المركز القومى للترجمة

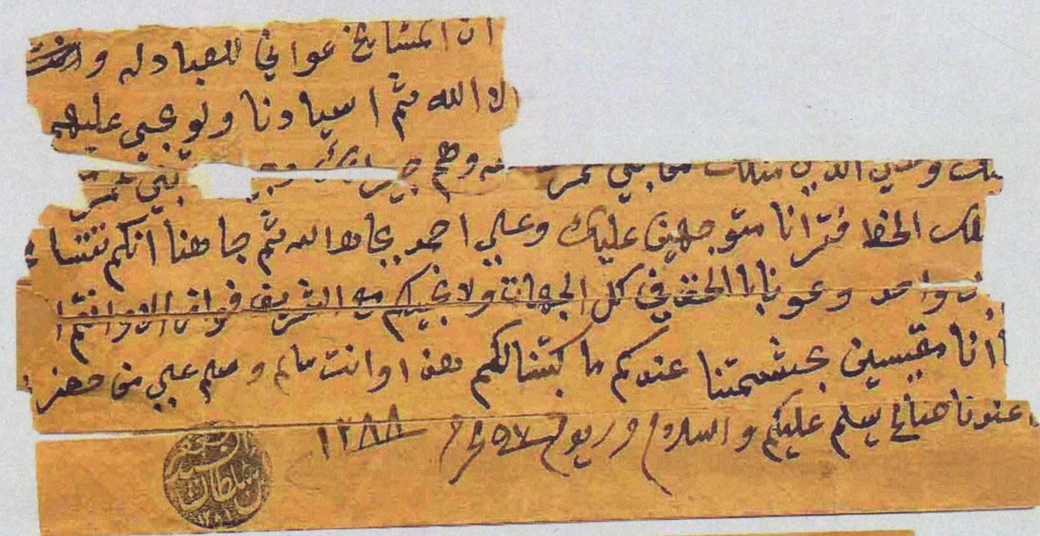
كمال عبد الله

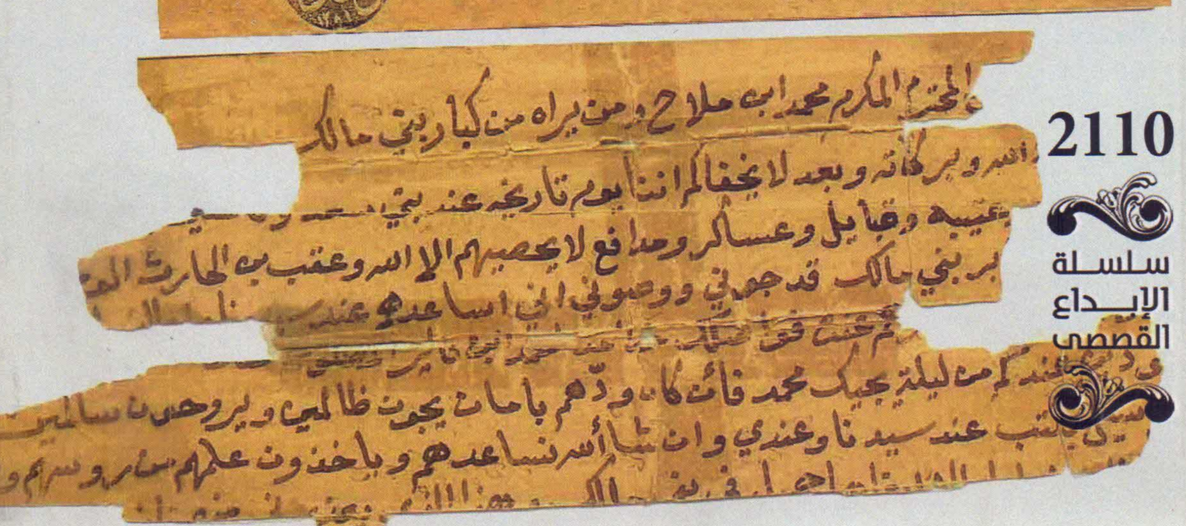
المخطوط المبتور

ترجمة وتقديم

أحمد سامى عبد الفتاح

المشروع القومى للترجمة

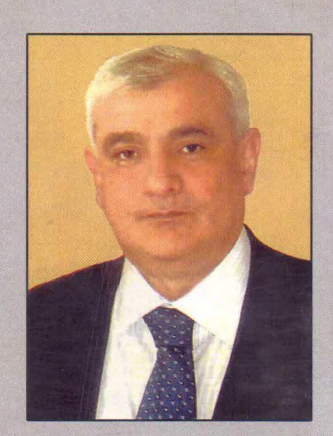




2110

سلسلة الإبداع القصصي





مرت عدة أيام. وشيء ما أتى بي ثانية إلى دار المخطوطات. ولكن في هذه المرة كان هدفي محدداً وواضحاً. كنت أحتاج إلى مساعدة مباشرة. كنت أعرف أن هناك أسرارا لكتابة المخطوطات. ويمكن أن أقول إنه من المستحيل إيجاد شخص يقرؤها أو حتى يعرف- بإتقان- الخط العربي... والحق، أنني لم أتمكن من المشاركة في قراءة المخطوط حتى النهاية، وعندما كانت تلك الفتاة تقدم لي الأوراق المرتبة المكتوبة بالأبجدية اللاتينية تمتمت بكلمات لم أتبينها رداً على شكري لها، فاعتبرت هذا استنكارا خفيا. أما هي فاستدارت فجأة وقالت لي بصوت واضح: "إن كنت تهتم بزلزال غنجة، فلا يوجد في المخطوط ما يشير إلى هذا الموضوع، فموضوع المخطوط يتحدث عن شيء آخر.

تصميم الغلاف: نسرين كشك

المخطوط المبتور

رواية

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2110
- المخطوط المبتور
- كمال عبد الله
- أحمد سامى عبد الفتاح
- الطبعة الأولى 2012

هذه ترجمة:
Yarımçıq Əlyazma
Dr. Kamal Abdulla

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

المخطوط المبتور

رواية

تأليف : كمال عبد الله

ترجمة وتقديم : أحمد سامى عبد الفتاح



2012

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عبد الله، كمال.

المخطـوط المبتـور (روايـة) / تـأليف: كمـال عبـد الله،

ترجمة وتقديم: أحمد سامى عبد الفتاح.

ط١، القاهرة : المركز القومي للترجمة، ٢٠١٢

٣٧٦ ص ، ٢٤ سم

١ - القصص العربية

(أ) عبد الفتاح، أحمد سامى (مترجم ومقدم)

(ب) العنوان ٨١٣

رقم الإيداع ٢٣٣٠٠ / ٢٠١٢

الترقيم الدولي : I.S.B.N 978-977-704-952-8

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهـات والمـذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

المحتويات

تقديم المترجم

(١)

شهدت أذربيجان تطورًا ملموسًا في شتى مجالات العلم بعد حصولها على الاستقلال من الاتحاد السوفيتي السابق عام ١٩٩١م. ومما لاشك فيه أن الأدب لم يكن بمنأى عن هذا التطور، بل أدى دورًا كبيرًا في تجسيد هذا التطور وإعادة وعي الشعب الأذربيجاني بتاريخه وبأمجاده، بعد أن حُرم من هذا الحق أكثر من سبعين عاما هي فترة الاحتلال الروسي لأذربيجان.

والأدب الأذربيجاني عامة أدب ثري له عمق تاريخي عريق بما يحتويه من قيم أدبية وإبداعية، وكذلك بما فيه من عراقة ومضمون إنساني. وتتميز المرحلة المعاصرة من هذا الأدب بغزارة الإنتاج الأدبي بشتى أنواعه شعرا ونثرا ، بجانب التجديد في الموضوعات نتيجة لنيل أذربيجان استقلالها؛ فأدى هذا الاستقلال إلى تغير منابع التأثير والتأثر والتبادل الثقافي لأذربيجان، فقد كانت العلاقات الأدبية في سنوات حكم الروس تقتصر على التبادل بين آداب الشعوب التي تدخل تحت الأيديولوجية الروسية فقط، أما الآن فقد ظهرت علاقات مع الآداب الشرقية والغربية.

(٢)

وتحتل الرواية مكانة مهمة في الأدب الأذربيجاني، فهي فلسفة الحياة، وفلسفة الوجود الإنساني وهي تجسد أفكار الإنسان حول مكانته وموقعه داخل

مجتمعه. و تبرز القضايا الفلسفية والاجتماعية والأخلاقية والمعنوية الجادة. ويرتبط تناول كل كاتب لهذه القضايا بشكل إبداعي بمدى علاقته مع أحداث الحياة الخاصة به.

وثمة آراء كثيرة بشأن بداية الرواية الأذربيجانية، ولكن الظهور الحقيقي للرواية الأذربيجانية بمفهومها المتعارف عليه بدأ في مطلع القرن العشرين، حيث كان لحركة التحرير القومية التي قام بها الشعب الأذربيجاني ضد القيصرية الروسية التي كان يعيش تحت سيطرتها بالغ الأثر في زيادة الحاجة المعنوية للرواية. فظهرت في تلك الفترة روايات – ضعيفة فنيا لحد ما- مثل رواية "البترول في سلطنة الملايين" للكاتب إبراهيم بك موسابيوف، ورواية "المليونير التعيس" للكاتب محمد سعيد اوردوبادي، ورواية "الزهرة الذابلة" للكاتب علي صبري، ورواية "أبطال زماننا" للكاتب عبد الله شايق، وغيرها من الروايات التي رسمت بشكل إبداعي منظرا للحياة الاجتماعية والسياسية لتلك الفترة وكذلك الحياة الصعبة التي تعيشها أذربيجان في تلك الفترة.

تمتعت أذربيجان بعد ذلك بالاستقلال لمدة ثلاثة وعشرين شهرا فقط هي عمر جمهورية أذربيجان الشعبية التي قامت فيما بين ١٩١٨-١٩٢٠، ولم تظهر في تلك الفترة ملامح أدبية واضحة، ولاسيما في فن الرواية نظرًا لقصر عمر هذه الجمهورية.

وبعد أن فقدت أذربيجان استقلالها مرة أخرى في ٢٨ ابريل ١٩٢٠ على يد البلاشفة الروس، عانى الشعب الأذربيجاني مرة أخرى من مرارة الاحتلال الذي عاش فيه هذه المرة ما يقرب من سبعين عاما، تاركا آثاره الواضحة على الحياة الأدبية. وقد ظهرت روايات أذربيجانية كبيرة الحجم في العقود الأولى للحكم السوفيتي. ومن هذه الروايات؛ رواية "الصباح" للكاتب

مهدي حسين، وروايتي "شامو"، و"ذو الشعر" لــسيمان رحيمــوف، وروايتــي "البطل"و"ذكريات الأغصان" للكاتب علي واليبف، وغيرهــا مــن الروايـــات. وكانت جميعها تتوجه لمدح النظام السياسى السوفيتي، وتقدم المآسي التي جلبها هذا النظام على الشعب الأذربيجاني على أنها السعادة الكاملة.

وجدير بالذكر أن الرواية الأذربيجانية تطورت تحت تضييق حاد مــن الأدب الروسي السوفيتي، وقد ظهرت آثار هذا جليًــا فــي مــضمون تلــك الروايات وفي المشكلات التي عالجتها وحتى في قوالبها وعناصرها الفنية.

(٣)

قويت القضايا الاجتماعيـــة وإعـــادة الـــوعي للإنـــسان فـــي الأدب الأذربيجاني منذ ستينيات القرن العشرين. وقد سعي لتجديد وتحـــديث الأدب كتاب أمثال "إسماعيل شيخلي"، و"عيـــسي حـــسينوف"، و"أكـــرم إلياســـلي"، و"عزيزة جعفر زاده"، و"علي عيسي نجات"، و"عيسي ميلك زاده "، وكـــذلك شعراء أمثال " باختيار وهاب زاده "،و"خليل رضا"، و"محمد آراز". وبـــدأت الأعمال الأدبية التي تهتم بالإنسان وهمومه ومآسيه تكسب أهمية كبيرة فـــي البيئة الأدبية والاجتماعية. وأصبحت أيضًا قضية الوجدان والحقيقة في الفن الإبداعي ضرورة ملحة. وقد ظهرت في هذه الفترة أعمال أدبية ساعدت في إعادة وعي الشعب وإحياء شعوره ووجدانه القومي،ومن هذه الأعمال رواية (الدعامة الرئيسية) لـــ"ميرزا إبراهيموف"، ورواية (نهر كـــور المجنـــون) لـــ"إسماعيل شيخلي"، ورواية (غابات ساحل نهر كور)، وروايـــة (محمـــد، ممد، مميش) لـــ"جنكيز حسينوف"، ورواية (القلب المحتـــرق) لـــــ"عيـــسى حسينوف"، ورواية (عرش الدنيا) لـــ"صابر أحمدوف"، ورواية (لو لم تكـــن الوردة الحمراء) لـــ"رسول رضا"، (جولستان) لـــــ"باختيـــار وهـــاب زاده" وغيرها.

وبسبب أن هذه العملية الأدبية قد بدأت في الستينيات من القرن العشرين عُرف كتاب وشعراء تلك الفترة في الأدب الأذربيجاني باسم "أدباء الستينيات".

وقد ظهر نتاج فني كبير في هذه الفترة يخدم بصدق أيديولوجية رسمية ويتغنى بالنظام الحاكم كأفضل نظام حر في العالم. ولكن لم يكن هذا النتاج الأدبي وحده هو الذي يحدد البيئة الأدبية، بل كانت هناك أعمال أدبية ظهرت خارج التعاليم النظرية والعملية للرومانسية الاشتراكية.

وبدأت الرواية الأذربيجانيه في ستينيات القرن الماضي تبتعد تدريجيًا عن المعايير الخدمية، وأخذت في التعبير بشكل واضح عن القيم القومية والإنسانية.

وسعى"أدباء الستينيات "في إزالة قوالب وحدود المنهج الإبداعي "الواقعي الاشتراكي" التقليدي وأرادوا إنشاء أدب مميز لا يكون خاصًا بالمجتمع السوفيتي آنذاك يبتعد تدريجيًا عن نموذج البطل الإيجابي والبطل المثالي الذي كان ينادي به الأدباء السوفيت وذلك بفضل الأعمال الأدبية التي كتبها هؤلاء الكتاب. وبدأ استخدام نماذج الإنسان العادي والبسيط بدلاً من هؤلاء الأبطال، بالإضافة إلي إلغاء تجربة تقسيم الشخصيات بشكل مصطنع إلي نماذج إيجابية وأخرى سلبية.

ونجح " أدباء الستينيات " في العزوف عن مشكلة الأدب الموجه الذي مثل ميراثا صعبا للأدب السوفيتي. وطبقوا فكرة أن الأدب ينبع من الحياة وأن الكاتب نتاج إبداعي فردي.

(٤)

دخلت الرواية الأذربيجانية مرحلة جديدة من تاريخها بسقوط الاتحاد السوفيتي في أكتوبر ١٩٩١. وتعتبر الرواية الأذربيجانية في فترة الاستقلال سجلا للتاريخ القريب الذي عاشه الشعب. فهي تتناول موضوعات جديدة كالاستقلال والتتريك والشهادة ومشكلة قره باغ واللاجئين والعودة للقيم الدينية والتعبير عن القضايا الاجتماعية. ومما لاشك فيه أن الأدب الأذربيجاني بصفة عامة في السنوات الأخيرة بصفة عامة لا يقدر أن يبتعد لسبب أو لآخر عن إلقاء الضوء على هذه القضايا، بل بالعكس يسعى إلي تحقيق الوطنية بتناول مثل هذه القضايا. فالأدب يقاس بأهمية القضايا التي يتناولها.

ولم تأت الرواية الأذربيجانية في فترة الاستقلال بشخصيات أدبية جديدة خاصة بها، بل تطور فن الرواية من خلال الشخصيات التي كانت موجودة في فترة الإمبراطورية الروسية. واستمر الكتاب والأدباء في الإبداع والكتابة في الفترة المعاصرة كما كان الحال في السنوات السابقة علي سقوط الاتحاد السوفيتي، ومن أمثلة هؤلاء الروائيين "عيسي حسينوف"، و"جنكيز حسينوف"، و"آنار"، و"إليتشين"، و"أكرم إلياسي"، و"صابر أحمدلي" وغيرهم كثيرين.

ومما يميز تلك الفترة عن فترة الاتحاد السوفيتي تناول الصحافة للأعمال الأدبية، وقد ظهر ذلك في جميع مناحي الأدب. وسبب هذا هو تفوق الصحافة وتدخلها الفعال في الموضوعات السياسية والاجتماعية التي تجري في المجتمع. واضطر الأدب - ولاسيما الرواية - أن يتأثر بها بسبب أنه لا يستطيع أن ينهض بهذه المهمة مثل الصحافة.

وتتسم عملية الانتقال من فترة الاحتلال الروسي إلى الاستقلال تلك التي جرت في المجال الاجتماعي والسياسي للمجتمع بتغيرات مشابهة في البيئة الروائية. فقد ظهر جليًا رغبة الشعب في الانفصال عن ماضيه المستعمر وذلك في البيئة الأدبية والثقافية بجانب البيئة السياسية والاجتماعية.

(٥)

وللرواية الأذربيجانية المعاصرة أنواع متباينة في الموضوع، فهناك الرواية التاريخية، والرواية النفسية، والرواية الاجتماعية، والرواية البوليسية، والرواية المتعلقة بالحرب، وغير ذلك من أنواع الروايات.

وتجدر الإشارة إلى أن الأعمال الأدبية عامة - والرواية خاصة - تعد متنفسا لتجسيد القضايا التي تعيشها أذربيجان بعد الاستقلال، وهو ما لم يكن موجودا أثناء حكم الروس. وخير دليل على هذا أن هناك أعمالا إبداعية كتبت أثناء حكم الروس ولم تر النور إلا بعد الاستقلال وإن مات مبدعوها. لأن ظهور مثل هذه الأعمال التي تسعى لإعادة وعي الشعب الأذربيجاني بحريته واستقلاله أثناء حكم الروس يعني القضاء على مبدعيها. وهذا ما يمكن أن يفسر لنا الميل الشديد في فترة الاستقلال من قبل الكتاب الأذربيجانيين لكتابة الرواية التاريخية التي تعيد للشعب الأذربيجاني أمجاده العريقة وتُعيد رسم صفحات من تاريخه قد طواها الزمن ونسيت أو بعبارة أدق أُجبر الشعب الأذربيجاني على نسيانها بسبب الاحتلال الروسي.

(٦)

ومن هذا المنطلق زاد الاهتمام بالرواية التاريخية في فترة الاستقلال لبعض الأسباب المذكورة آنفا وظهرت رواية "المخطوط المبتور" التي بين أيدينا للكاتب الأذربيجاني الشهير (كمال عبد الله).

اتسم مشوار الحياة العلمية للكاتب الأذربيجاني (كمال عبد الله) بالتنوع؛ حيث حصل على درجة الدكتوراه في الآداب من موسكو في موضوع "لغة سيرة "كتاب ده ده قورقود"، عام ١٩٧٧م وبعد ذلك حصل أيضا على درجة الأستاذية في "علم اللغة" عام ١٩٨٤م.

تدرج الكاتب في العمل بقسم "الدراسة المقارنة للغات التركية" بمعهد نسيمي للغويات التابع لأكاديمية العلوم الأذربيجانية حتى وصل إلى منصب رئيس القسم، وذلك في الفترة بين (١٩٧٧-١٩٨٤).

بعد ذلك ترأس قسم (علم اللغة العام واللغة الأذربيجانية) بمعهد التربية الأذربيجاني للغات الأجنبية في الفترة بين (١٩٨٤-١٩٨٧).

وبعد ذلك شغل عدة مناصب بالجامعات الأذربيجانية المختلفة، حتى عين رئيسا لجامعة باكو للغات السلافية بأذربيجان، ولا يزال يشغل هذا المنصب حتى الآن.

حصل الكاتب الأذربيجاني (كمال عبد الله) على عضوية العديد من المحافل الأدبية في أذربيجان وروسيا وتركيا وأوكرانيا وغيرها من الدول، فهو عضو مجلس إدارة اتحاد الكتاب الأذربيجانيين وعضو جمعية خدام المسرح، وعضو مجلس الصحافة الأذربيجاني وكذلك عضو عامل بمجمع اللغة التركية، وعضو عامل (أكاديمي) بأكاديمية النخبة الدولية الأوكرانية، وعضو مراسل بأكاديمية العلوم الوطنية الأذربيجانية.

حاضر في العديد من جامعات الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وتركيا وبولندا، وشارك أيضا في كثير من المؤتمرات والندوات الدولية، واشتغل لمدة عام (١٩٩٤-١٩٩٥) كأستاذ زائر بقسم "اللغة التركية وآدابها" بجامعة "اولوداغ" التركية.

أما عن المشوار الأدبي للكاتب (كمال عبد الله) فهو يتميز أيضًا بالتنوع؛ فهو ناثر وشاعر وكاتب مسرحي أذربيجاني معاصر، له العديد من الروايات والقصص القصيرة وبعض الدواوين الشعرية وكذلك المسرحيات الفنية. ترجمت بعض أعماله، ولاسيما المسرحيات إلى لغات مختلفة منها الروسية والجورجية والتركية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية والبرازيلية. وعرضت مسرحياته في جورجيا واستونيا وتركيا وإيران. وقد حصل على كثير من الجوائز والأوسمة داخل أذربيجان وخارجها، حتى أن رواية (المخطوط المبتور) رشحت رسميا لجائزة نوبل.

له أكثر من مائتي مقالة وأكثر من عشرين كتابا، وتناولت العديد من الدراسات والمقالات في مختلف الدول الإبداع العلمي والأدبي للكاتب (كمال عبد الله).

ونلحظ من خلال أعمال الكاتب (كمال عبد الله) الاهتمام الشديد بالتراث الأذربيجاني ولاسيما سيرة "كتاب ده ده قورقود" التي هي موضوع رواية المخطوط المبتور كما سنبين بعد قليل. ويمكن إرجاع هذا إلى عاملين: أولهما التخصص، حيث حصل على رسالة الدكتوراه في هذا الموضوع كما ذكرنا، والثاني هو إعادة وعي الشعب الأذربيجاني إلى تراثه القديم وأمجاده بعد أن حرم من مجرد الاحتفال بهذا التراث طيلة الحكم السوفيتي لأذربيجان.

(٧)

أما عن رواية (المخطوط المبتور) فكانت مسار جدل كبير في الأوساط الأدبية داخل أذربيجان وخارجها. ويرجع هذا إلى سببين رئيسيين: أولهما أن رواية "المخطوط المبتور" لم تتناول الأحداث التاريخية في أذربيجان على نحو شكلي حرفي جاف ، بل كان بها تفاعل وحبكة فنية وإضافات تصل إلى حد التحريف التاريخي لبعض الأحداث كما سيرى القارئ، مما سبب جدلا

كبيرا حول الرواية في الأوساط الأدبية. فكتبت حول الرواية أكثر من مائة مقالة على يد كبار النقاد ما بين مؤيد لها ورافض. والسبب الثاني هو تناول الرواية لموضوعين مختلفين مهمين في تاريخ أذربيجان ، أويمكن القول أنهما عهدان تاريخيان ليس بينهما رابط تاريخي، وهما سيرة "كتاب ده ده قورقود " (القرن الثاني عشر الميلادي) أشهر السير الشعبية في العالم التركي عامة، وأذربيجان خاصة، وتتناول هذه السيرة نشأة الأتراك وحياتهم في مجتمع "الأوغوز" حيث كانوا يقطنون. فالأوغوز ليسوا هم الأذربيجانيين وحدهم، بل يدخل معهم الأتراك العثمانيون، والتركمان أيضا. والشخصية الرئيسية في السيرة هي شخصية "ده ده قورقود " التي تروى السيرة على لسانها. وكان "ده ده قوروقود" شيخا مسنا ووزيرا اشتهر وسط "الأوغوز" بالحكمة والرزانة وصواب الرأي، وكان محل احترام الجميع آنذاك، ويروي لنا "ده ده قورقود" من خلال السيرة الأحدث التي وقعت في قبائل "الأوغوز"، بجانب بعض الأساطير والخرافات التي انتشرت بين الشعب آنذاك، وينقل لنا أيضا حياة الأتراك في تلك الفترة.

والموضوع الثاني هو حياة الشاعر الشاه إسماعيل الصفوي (القرن السادس عشر) مؤسس الدولة الصفوية الذي عرف في الأدب الأذربيجاني باسم (الشاه إسماعيل خطائي) وهو الذي جعل اللغة الأذربيجانية لأول مرة لغة رسمية للدولة وأثرى الآدب الأذربيجاني بدواوينه الشعرية التي كتبها باللغة الأذربيجانية.

وقد أحدثت رواية "المخطوط المبتور" صدى واسعا لدى القراء والنقاد، لا لاهتمامها بالتراث الأذربيجاني – كما سبق أن أشرنا – فحسب بل لطبيعة بنائها الفني الفريد؛ فهي تجمع بين الحقيقة والتاريخ، وتقدم قراءة لأحداث التاريخ، وتكشف بعمق عن النوازع البشرية التي تصدر عنها تصرفات الناس.

وتحقق الرواية ذلك كله بتنقلات رشيقة "ماكرة" بين الواقع والخيال الواقع المتمثل في الحقيقة التاريخية والخيال الذي يأتي إضافة لها فيهب القارئ الأبعاد التي ذكرناها.

والتنقلات قائمة بين مسارين تمضي الرواية موزعة بينهما الملك بايندر خان وتحقيقه في تهريب الجاسوس والشاه إسماعيل الصفوي وما كان من أمره في موقعة تنشالديران.

والمساران – تاريخيا – متباعدان، ومهارة القص وحسن توظيف فنيات السرد يقترب المساران شيئا فشيئا على مستوى النوازع البشرية والمغزى العميق الذي يكاد يقدم رؤية لحياة الإنسان: آماله وآلامه، أطماعه وطموحه، أثرته وإيثاره.

ونجد أن رواية "المخطوط المبتور" تعالج لنا هذين الموضوعين من خلال رؤية جديدة للكاتب تتلخص في أنه ذهب إلى معهد المخطوطات الأذربيجاني ذات مرة ووجد هناك مخطوطا تم العثور عليه حديثا يحيطه شيء من الغموض؛ فمسئولو المعهد يقولون إن أحدا أحضر هذا المخطوط وتركه ولا يعرف مصدره، وأن المخطوط يتحدث عن زلزال مدينة غنجة بأذربيجان الذي وقع في القرن الثاني عشر الميلادي وذلك طبقا لقول أحد مسئولي معهد المخطوطات. ولكن بعد أن اطلع الكاتب على المخطوط المزعوم وجد أن بدايته ونهايته فقط تتحدثان عن هذا الزلزال، أما ما بينهما فهو عبارة عن الأحداث الرئيسة للموضوعين السابقين.

وتضم الرواية ثلاث مقدمات ونص المخطوط المزعوم وخاتمة. وتتميز بالجدة في الموضوع والشكل، وقد عمد الكاتب إلى كتابة مقدمات

توضيحية للمخطوط المزعوم يذكر فيها قصته مع هـذا المخطـوط وكيـف حصل عليه وكيف كتب عليه بعض التعليقات اللازمة لتيسير فهم المخطـوط أو بمعنى أصح الرواية.

كما عمد الكاتب أيضا إلى استخدام لغة أذربيجانيـة غيـر معاصـرة مميزة عن اللغة الحديثة، حتى يقنع القارئ بجدية الموضـوع وأنـه يقـرأ مخطوطا حقيقيا.

وجدير بالذكر في هذا المقام أنه قد جمعت الكاتب والمتـرجم لقـاءات كثيرة حول الرواية أثناء فترة تواجده بجمهورية أذربيجان لإعداد أطروحـة الدكتوراه. وقد هدفت هذه اللقاءات لحل بعض الإشـكاليات التـي واجهـت المترجم في موضوع الرواية ولغتها. ولعل من أهم الصعوبات التي واجهت المترجم وألقت على عاتقه مسئولية كبيرة أثناء الترجمة إلى اللغة العربية هي موضوع الرواية نفسه؛ فالموضوع يتطلب خلفية قوية عن التراث الـشعبي الأذربيجاني (سيرة "ده ده قورقود")، وعن تاريخ أذربيجان القديم (موضـوع الشاه إسماعيل وموقعة "تشالديران")، وذلك حتى يستطيع المترجم نقل النص للقارئ العربي بشكل مفهوم، ويوضح له

فكما ذكرنا تختلف لغة الرواية لحد كبير عن اللغة الأدبية السائدة فـي أذربيجان حاليا، وبها مزج بين اللغتين الأذربيجانية والتركية الحديثة، ممـا يلزم من يتصدى للترجمة أن يتقن اللغتين بشكل كامل. والسبب في هذا يكمن في طبيعة الموضوع؛ فسيرة "كتاب ده ده قورقود" - كما سبق أن أشـرنا - قاسم مشترك بين الشعوب التركيـة بأسـرها ولاسـيما الـشعبين التركـي والأذربيجاني.

وكذلك اتبع الكاتب في الرواية –المخطوط المزعوم– حبكة فنية جديدة أشار إليها في إحدى مقدماته وهي أنه ذكر عدم تدخله في أحداث المخطوط وأنه ينقله كما هو ولكن وضع فقط بعض التعليقات على المخطوط بخط مائل يختلف عن خط المخطوط من أجل إيضاح بعض الأفكار كلما تطلب الأمر ذلك. ومن الطريف في الموضوع أن أحد النقاد الأتراك عندما قرأ الرواية ظن أن الكاتب وجد بالفعل مخطوطا يتحدث عن تاريخ أذربيجان القديم، وكتب مقالا بهذا الصدد.

ونلحظ أن الكاتب اختار موضوعي الرواية بدقة بالغة تتماشى مع مكانة كل موضوع وأهميته في تاريخ الشعب الأذربيجاني وفي إعادة وعيه بتاريخه الذي حرم منه لسنوات طوال. فالموضوع الأول يلقي الضوء على جانب من هذه السيرة، يتمثل في تحقيق أجراه ملك الأوغوز آنذاك الملك (بايندرخان) بعد اكتشافه وجود جاسوس في الأوغوز كان ينقل أخباره وأخبار مملكته للأعداء، وقام ببعض التخريبات والتجاوزات في مجتمع الأوغوز، وقد تم القبض على هذا الجاسوس، ثم أطلق سراحه دون علم الملك ودون أن يتلقى الجاسوس أي عقاب، فأراد الملك إقامة هذا التحقيق لمعرفة أسباب إطلاق سراح هذا الجاسوس دون علم أو حتى إذن منه، بالرغم مما سببه هذا الجاسوس من مشكلات للأوغوز. وثمة أمر مهم يجدر الإشارة إليه، وهو أن هناك أعمالاً أدبية كثيرة في فترة ما بعد استقلال أذربيجان تناولت هذه السيرة الشعبية بما لها من مكانة في نفوس الشعب الأذربيجاني، والتي تنقسم إلى اثني عشر جزءا أو ما يمكن أن نسميه فصلا. ولكن ما يميز هذه الرواية عن الأعمال الأخرى التي تناولت السيرة أنها لم تنصب على جزء أو فصل محدد من أجزاء السيرة، بل شملت الأجزاء كلها وأخرجت لنا نسيجًا جديدًا متميزًا عن هذه السيرة الشهيرة لدى العالم التركي أجمع.

أما عن الموضوع الثاني، فمن المعروف تاريخيًا أن الشاه إسماعيل الصفوي هزم أمام جيش الدولة العثمانية في موقعة "تشالديران" عام ١٥١٤م، وقد تركت هذه الهزيمة في نفسه آثرا قاسيا، ولم يكن قد لحقت به هزيمة قط، فانصرف إلى العزلة، وغلب عليه اليأس، وارتدى لباسا أسود، ووضع على رأسه عمامة، وكتب على أعلامه كلمة "القصاص". ونلحظ أن هذه المعركة كانت نقطة تحول في حياة الشاه إسماعيل الصفوي، ونجد أيضًا المفارقة الشديدة لحياة الشاه إسماعيل الصفوي قبل المعركة وبعدها. فبعد هذه الفتوحات والمعارك والانتصارات يتجه الشاه إسماعيل الصفوي إلى العزلة. فأراد الكاتب (كمال عبد الله) من خلال الرواية عرض رؤية فنية جديدة تفسر لنا سر هذا التحول سوف يطالعها القارئ خلال صفحات الرواية.

وقراءة الرواية "مجهدة" لمن أراد أن يقرأ للتسلية وتمضية وقت الفراغ، لكنها ممتعة لمن أراد من نصوص الأدب أن تحفز تأملا، وتستثير إبداعا في القراءة يوازي إبداع الكتابة، قراءة تثرى العلاقات الجامعة والصلات العميقة والرؤى النافذة.

ولهذا فتتطلب هذه الرواية ما تتطلبه نصوص الأدب الرفيع الطامحة أن تجاوز عصرها الذي كتبت فيه، وأن تستمد مكانتها من مستواها وطبيعة بنائها لا من شهرة مؤلفها ومنزلته، نقول: تتطلب هذه الرواية أن يقرأها القارئ – على الأقل – مرتين قراءة استكشاف وتعرف، وقراءة استمتاع وتأمل، ولعلنا لا نبالغ إن توقعنا أن الرواية ستبقى بعد القراءتين قادرة على دعوة القارئ بمعاودة التواصل معها من جديد.

وتعد ترجمة رواية (المخطوط المبتور) إلى اللغة العربية خطوة على طريق التبادل الثقافي بين الأدبين العربي والأذربيجاني، فهي أول رواية معاصرة تترجم إلى اللغة العربية، تليها إن شاء الله نماذج أدبية أخرى مترجمة.

والله ولي التوفيق

د/ أحمد سامي عبد الفتاح

القاهرة -١٤٣١هـ/٢٠١١ م

المخطوط المبتور

المقدمة أو كمال النقص

جذب اهتمامي مخطوط جديد تحت رقم ٢١ أ / ٧٣٣ بالسجل الموجود بالرف الثالث في قسم القرون الوسطى بدار المخطوطات القومية، وذلك - طبقا لما قالته مسئولة المكتبة - لأن مثل هذه المخطوطات واضحة وسهلة لحد كبير، لذلك لا تلقي كثيرا من الاهتمام الكافي بها.

اجتهدت بدأب مسئولة المكتبة التي شعرت بتعجبي في إيضاح ذلك قائلة: "لا يختلف هذا المخطوط عن غيره من المخطوطات، إلا أنه لم يدرس حتى الآن بشكل واف، ولكن من المعتقد أنه مخطوط يعود إلى القرن الثاني عشر. يتحدث عن زلزال مدينة غنجة(*) المعروف جيدًا تاريخيًّا في الأوساط العلمية والاجتماعية.

تتميز لغة المؤلف وأسلوبه بالسلاسة والوضوح. ولكن... هناك"لكن "في الأمر. وهي أن المخطوط مبتور. ليس له بداية ولا نهاية. ربما بسبب الزلزال: تناولته الأيدي، وأحرق بعضه وظل تحت الأنقاض... خلاصة القول أنه أصبح في حالة تصعب معها قراءته. لقد تمزقت بعض الصفحات بالكامل، والبعض الآخر من المنتصف، وهناك صفحات غير موجودة بالمرة. وهناك أثر حرق موجود ببعضها. "لن يكون المخطوط شيقا بالنسبة لك".

سألت مسئولة المكتبة "هل يمكن رؤية هذا المخطوط؟"، فردت: "لن يجذبك المخطوط". بعدها صحبتني بين أدراج الكتب التي ترقد بداخلها

(*) مدينة غنجة هى ثاني أكبر مدينة فى أذربيجان، لها أهمية تاريخية كبيرة عبر العصور. وقد وقع بها فى القرن الثانى عشر الميلادى زلزال قوى، دمر كثيرًا من معالم المدينة (المترجم).

مخطوطات كثيرة قديمة وحديثة تراص بعضها بجانب بعض في هذا القسم وعلا التراب أرففه الواسعة، وعبر سلالم رخامية انتقلنا من هناك إلى ممر موصل إلى باب الخروج.

لقد شعرت بالتعجب الذي يملأ وجهي واستمرت مرغمة في الكلام:

لقد ورد هذا المخطوط حديثًا إلى الدار، أحضره شخص ما ووضعه على منضدة مسئولة المكتبة ثم انصرف. فقمنا بإعلان في جريدة (٥٢٥)، "تعال أيها الشخص، من أنت، وماذا تعمل؟ ومن أين أتيت بهذا المخطوط، تعال فمن حقك مكافأة. كما تعلم، فالدار تقدم مكافأة مالية لمن يجد مخطوطًا قديمًا، الغرض، لم يأت أحد. ومسئولة المكتبة، مجرد موظفة، لا تتذكر شيئًا.

أعدتُ سؤالي:

- هل يمكن رؤية هذا المخطوط؟

- نعم، لم لا؟ ولكن يمر الآن بمرحلة ترميم. أعتقد أن المخطوط يصور زلزال غنجة بشيء من التفصيل.

ثم صمتت، وبعد ذلك استمرت في الكلام وكأن بداخلها شيء يأبى الكلام:

- وهناك اعتقاد أنه من المحتمل أن زلزال غنجة قد ترك أثره على المخطوط، أما الكتابة التي به فشيء آخر تمامًا... ما رأيك في هذا؟

لقد تعجبتُ من هذا السؤال الذي وجهته إلي. انظروا للسؤال: "ما رأيك في هذا؟ "، سكتُ ولم أرد مطلقًا. ولكن السؤال كان غريبا جدًا.

مرت عدة أيام. وشيء ما أتى بي ثانية إلى دار المخطوطات. ولكن في هذه المرة كان هدفي محددًا وواضحًا. كنت أحتاج إلى مساعدة مباشرة. كنت أعرف أن هناك أسرارا لكتابة المخطوطات. ويمكن أن أقول إنه من المستحيل إيجاد شخص يقرؤها أو حتى يعرف- بإتقان- الخط العربي.

.... كانت ثمة فتاة نحيفة، ضعيفة البنية. لقد رأيتُ من وجهها أنها انضمت لهذا العمل دون رغبة منها، بل بمعنى أصح أجبروها على هذا العمل. كان لي رجاء من مدير دار المخطوطات، لقي اعتراضا صامتا من الفتاة، بعد أن رد المدير "تحت أمرك، تستطيع أن تأتي في الوقت الذي تريده، وسوف أوفر لك أحد المتخصصين، يقرأ لك المخطوط...". فنظرت إليها هي الأخرى، وبدأنا العمل بدون رغبة منها.

في البداية خصصوا لنا حجرة صغيرة. وملأت الفتاة المتخصصة في اللغة العربية استمارة طلب المخطوط. جاء المخطوط داخل صندوق كرتوني تحت رقم ٢١ أ / ٧٣٣. كانت صفحات المخطوط كالصفحات الموجودة في الكتابات القديمة الأصلية؛ صفراء، باهتة، فُقدت أجزاء منها منذ زمن بعيد. مزق بعضها في كثير من الأماكن، وظلت آثار حريق واضحة في أماكن أخرى. في الحال بدأت العمل مع تلك الفتاة ضعيفة البنية التي يبدو على وجهها اعتراض صامت، دون اكتراث بي مطلقًا و... ما رأيكم، في ثلاثة أيام قرأت لي الفتاة النص وأنهيته. هل تتصورون ذلك؟! لقد أنهيته. حتى أنها قالت لي بشكل لم أكن أتوقعه: "إن أردت، أنقل لك ما قرأته إلى الأبجدية اللاتينية... وأقدمه لك في خلال ثلاثة أو أربعة أيام". ألم يكن ما أرغبه هو ذلك؟!.

أخيرًا، جئتُ في الموعد الذي اتفقنا عليه، وأصبحت وجهًا لوجه مع المخطوط الذي حولت حروفه من الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية حتى أستطيع التعامل معها. والحق، أنني لم أتمكن من المشاركة في قراءة المخطوط حتى النهاية، وعندما كانت تلك الفتاة تقدم لي الأوراق المرتبة المكتوبة بالأبجدية اللاتينية تمتمت بكلمات لم أتبينها ردًا على شكري لها، فاعتبرت هذا استنكارا خفيا. أما هي فاستدارت فجأة وقالت لي بصوت واضح: "إن كنت تهتم بزلزال غنجة، فلا يوجد في المخطوط ما يشير إلى هذا الموضوع، فموضوع المخطوط يتحدث عن شيء آخر. ثم استدارت دون أن تنتظر ردًا ومضت ثانية وهي تضرب في الأرض بكعب حذائها العالي.

مكثتُ وحيدًا في الحجرة. كما اتفقنا مسبقًا. كنتُ سأتعرف على النص في هذه الحجرة المتواضعة، وفي الوقت نفسه سيظل المخطوط هذه المدة لدي، أو بمعنى أصح في هذه الحجرة. كنت أفكر أنه ربما يستدعي الأمر المقارنة "أي مقارنة الأصل بالنص اللاتيني"، وبعد ذلك كلما أطلع على النص أنظر على الأجزاء الورقية الخارجية من المخطوط وكأنني شاهد عيان لما أقرؤه.

فقد قالت الفتاة "المخطوط يتحدث عن شيء آخر"، فلماذا إذا تغير الأمر هكذا؟

كنت أتخيل أنه مرتبط بتاريخ غنجة، ولكن ربما أنا مقدم على معلومات جديدة على أية حال. ربما يفكر الباحثون في دار المخطوطات، فضلاً عن هذه الفتاة في أن يخرجوا من تحت أيديهم موضوعًا جيدًا للدكتوراه من هذا المخطوط، فيعتقدون أنني أنافسهم في هذا العمل، على أية حال فأنا بالنسبة لهم رجل غريب... كانت مثل هذه الأفكار تؤرقني.

بعد أن قالت لي الفتاة هذا الكلام، فكرت لوهلة، ربما أنا أمام باب لسر ما. وشعرتُ باضطراب وقلق غريبين. وحاولت أن أُهدئ نفسي: "لا يوجـد مشكلة، بعد قليل، سيرى هؤلاء أن الذي يستوقفني لهذا العمل مجرد فـضول لا علاقة به بأي شيء. أقرأ جزءًا من هنا وجزءًا من هناك وأعيد المخطوط وأمضي إلى حال سبيلي، فلدي أعمال أخرى. فأنا لست مؤرخًا ولا كاتبًا ولا حتى متخصصًا في الزلازل. حسنًا إذًا من أنا؟ ولماذا أنا مشغوف بهذا السر إلى هذا الحد؟!".

لقد صح ما قالته الفتاة. والآن مع أنني أريد الحديث دون شـجون إلا أنني كنت أشعر من إحساسي بالقشعريرة –والقشعريرة دائما تنبئني بأن هناك أمرا مهما– أن هذا الأمر مستحيل. لقد قرأتُ المخطوط ثـلاث مـرات فـي غضون ثلاثة أيام ذهابًا وإيابًا. بعد القراءة الأولى، تبين لي الأمر بشكل عام بغض النظر على المواضع الممزقة والمتهالكة من المخطوط. لماذا كُتـب، وما الغرض والأهم من كل هذا من المؤلف؟! ولمن هذا المخطوط؟! كل هذا اتضح بعد القراءة الأولى. ولكن بعد القراءة الثانية اتضحت النقاط الغامضة الأخرى. وهذا لم يكن قليلا، لأنه أمر مرتبط بالمضمون. وهكذا، اتـضحت جميع المواضع الغامضة أيضًا بعد القراءة الثانية.

أما القراءة الثالثة، فقد كانت لإشباع احتياج نفسي شديد لدي. لقد أمنتُ أكثر بعظمة المؤلف وسموه الإنساني وبما قدمه لمجتمع قديم وعظيم، فلم يكن لإعجابي واحترامي حد. وما يؤسفني هو أن هذا المجتمع قد مضى. فقد ظل في الزمن البعيد الذي لا يصل إليه أحد. أنني لا أعرف، هل يمكن أن نقـول عليه أنه "انتهى" أم لا؟! ولكن هناك حقيقة من الصعب إنكارها، تتمثل في أن هناك علاقة ضئيلة جدًا تربطنا اليوم بذلك التاريخ القديم.

تقابلت مع الفتاة في بهو دار المخطوطات مرة أخرى. وكانت هنـــاك مسألة لا تزال مبهمة بالنسبة لي، وهي أن النص الناقص الذي أعطتـــه لـــي كان يحتوي بداخله على نص آخر أكبر منه. والنصان متداخلان فيما بينهما. ولو لم يكن الأمر هكذا، لكان من السهل التعرف على هذا المخطوط المبتور من أول نظرة. ولكن لم يكن الأمر كذلك. فبداية المخطوط تشتت الانتباه. فقد قالت الفتاة لي ثانية بدون اكتراث أن بداية المخطوط تتحدث عـــن زلـــزال غنجة بالفعل، أو بمعنى أصح تشير إليه، وفجأة وبدون سابق مقدمات ينتقـــل الحديث في المخطوط إلى الموضوع الأساسي الأول فيه، فبعد صـــفحتين أو ثلاثة مهلهلة تصعب قراءتها، يبدأ أول المخطوط بجملة ناقصة تقول:

"... طلبني بايندر خان يوما بجواره، فذهبت بعد الظهر إلى قـــصره، وانحنيت برأسي وألقيت السلام بأدب".

هذه هي الجملة الثانية من المخطوط.

أما الجملة الأولى فكانت عن زلزال غنجة. والغريب أن تلك الجملة لم تكتمل فقد ورد بها: "إن شيوخ المدينة الذين رأوا ما يعانيه الناس في غنجـــة بعد الزلزال كان...".

دون أن تكتمل هذه الجملة بدأت الأخرى. أهناك غرض فـــي إخفـــاء المخطوط المبتور بهذا الشكل داخل أحداث متعلقة بزلزال غنجة في البداية؟! لقد غرقتُ في التفكير. ولكن بدون فائدة. فحاولتُ أن أحدد الاتجـــاه لنفـــسي قائلاً: الخلاصة، هذه ليست مشكلتنا. فلنسع في اقتفاء أثر الأحداث التي بدأنا فيها بالفعل". إلى أين سار بي الأمر، فسترون بأنفسكم.

أذكر في البداية، أن المضمون الأساسي للمخطـــوط مكتـــوب باســـم الشخصية الأولى. ويمكن أن يطلق علـــى هـــذا الجـــزء مـــن المخطـــوط

"ملاحظات". لأن الأمر يكمن في أنه من الممكن أن يكون هذا الجزء عبارة عن ملاحظات أولية لسيرة شعبية كبرى كانت ستكتب في زمن ما. ربما انتبهتم لهذا. فالحديث بالطبع يدور عن سيرة "كتاب ده ده قورقود" أهم وأكبر السير الشعبية الأذربيجانية ليس في أذربيجان فحسب، بل في العالم التركي كله. فليس لدينا سيرة شعبة عظيمة أخرى تضاهي هذه السيرة التي تصور لنا التاريخ القديم لأمتنا الماضية وأشكال الحياة فيها وتبين أفراحه وأتراحه. فتُصور لنا شخصية (ده ده قورقود) مؤلف السيرة في مطلعها على أنه رسول لقوم الأوغوز، وتشمل الجوانب المختلفة لتلك السيرة العظيمة التي – تتكون من اثني عشر جزءًا في مختلف العصور القديمة–بعض الموضوعات التي يعتبرها المتخصصون أنها متداولة على نطاق واسع تساعد على الحديث بشأن أن بعض الأحداث التي جرت في ملاحم (هنر) عبارة عن إسقاط على عالم الأوغوز. ويتبادر للذهن سؤال مهم وهو: أي الأبطال الشعبيين عاشوا العصور القديمة قبل بعضهم البعض– (بولفين) أم (تباه جوز)؟! (اوديسه) أم (بيرالك)؟! (أجاميمنون) أم (صالور قازان)؟! (بينالوبا) أم (باني تيشك)؟!

لقد أورد كل من العالم الألماني (فون ديتس) واللغوي التركي (خطيب أوغلو)، والمستشرق الروسي (كاظم بك) من علماء القرن التاسع عشر هذا السؤال بالذات وأسئلة مشابهة في أبحاثهم. واليوم يمكن الإجابة على مثل هذه الأسئلة ويمكن أيضًا عدم الإجابة عليها.

الأمر الأساسي هو أن هذه الأسماء المذكورة التي وردت في السير الشعبية المختلفة –إذا تجمعت – ما احتجنا إلى توجيه هذا السؤال أصلا. ولما ظلت هناك حاجة للبحث عن سؤال: "من أقدم مِن مَن؟"، فهذه السيرة الشعبية عبارة عن صفحات حياتية لمجتمع قوي؛ لمجتمع الأوغوز القديم الذي أنشأ دولة ترتكز على نظام العلاقات الاجتماعية والسياسية المستقلة في زمن

أسطوري والذي حارب وتصالح مع جيرانه والذي أرسى قواعد مكملة داخليًا والذي حول مبادئ عاداته إلى منهج حياة والذي تعرض إلى هجمات وقـام بهجمات. ومما لا شك فيه تاريخيًا أن مجتمع الأوغوز - الذي لـه مكانـة خاصة - لم يحظ مع الأسف بالمكانة التي تليق به في كتب المؤرخين. وهذا ليس من الإنصاف.

تلك أمة قد خلت، ولكن بقيت أسماؤها. لقد أقـام الأوغـوز القـدماء حضارة جديرة بالاهتمام مثل قـدماء اليونـان وقـدماء الأرمـن، وقـدماء المصريين وقدماء الهنود وقدماء الخزر الذين قاموا في هذه الدنيا بما قـاموا سواء أكان قليلاً أم كثيرًا. والسيرة الشعبية "كتاب ده ده قورقود" أوضح تعبير إبداعي لهذه الحضارة.

والآن هذا المخطوط عبارة عن ملاحظات ومشاهدات أجريـت قبـل كتابة السيرة. عبارة عن ملاحظات تبلورت في ذهن المؤلف من قبل عن كل موقف أو شخصية وردت في نص السيرة التي دونت بعد ذلك. وعند مقارنة المخطوط المبتور بالسيرة التي نعرفها نجد اختلافات كثيرة، فعلـى سـبيل المثال: شخصية (بيراك) في نص السيرة، مثل شخصية (بيراك) فـي هـذا المخطوط المبتور. والاختلافات غير متوقعة في كثير من الأحيان. فالعلاقات بين (بورلا خاتون) و (صالور قازان) مختلفـة تمامًـا بـشكل لا يُـصدق. التصريح عن الأسباب الحقيقية المواجهة التي وقعـت بـين (أروز قوجـا) و(صالور قازان) (*). بالطبع مثل هذه الأمور موجودة. ولكن هنـاك أمـرًا

(*) يشير المؤلف في هذه الأمثلة التي يردها إلى بعض الاختلافات الموجودة بين أصل سيرة (كتـاب ده ده قورقود) والمخطوط المزعوم، وهذه الشخصيات المذكورة هي شخصيات وردت في الـسيرة الحقيقـة ومعروفة، وهو يمهد أنه في الرواية يتناول هذه الشخصيات بشكل أو برؤى جديدة قد تتفق أو تختلـف عمّا ورد عن السيرة الشعبية الأصلية. (المترجم)

لا يمكن إنكاره هو أن (ده ده قورقود) – المؤلف الوحيد سواء لنص السيرة أو نص المخطوط المبتور أو لملاحظات ومشاهدات المخطوط المبتور – قد قام بعمل جاد، وإبداع شاق، أو يمكن أن أقول أيضًا إنه قام بمهمة سياسية، وهذا ما أثبته المخطوط بقوله "لقد تم هذا بالفعل"، وكذلك أثبتته السيرة عندما ورد فيها عبارة "لكن يجب على الأجيال القادمة أن تقبل وتشعر بهذا".

وهناك سؤال ممكن أن يطرح نفسه: لماذا لم يتخلص المؤلف من الملاحظات الموجودة في المخطوط المبتور بعد أن أتم عمله في تأليف السيرة؟ من يعرف؟ ربما كان هناك محاولة لفعل هذا. لأن المنطق في الحقيقة يقول بهذا. فعلى الأقل يمكن أن يلتبس الأمر على الذين يقرءون هذه الملاحظات ويرون الاختلاف الموجود فيها مع نص السيرة المعروف. من يعرف، ربما أرادوا محوها، عن طريق إخفائها داخل المخطوط المبتور، داخل مخطوط يتكلم عن زلزال غنجة العظيم هذا. من الصعب الفصل في المسألة. ولكن أشعر بشيء ما، هو أنه كان يجب على المؤلف محو أحد هذين المخطوطين (نص السيرة الأصلي أو المخطوط المبتور المزعوم). والذي كان يستحق التخلص منه أكثر هو الناقص. ولكن هذا لم يحدث. وهذا سر لا يعلمه إلا الله.

هناك سؤال يُحير العقول كثيرًا: كيف تستوعب ذاكرة إنسان بداخلها ملاحم كبيرة جدًا مثل (الإلياذة) أو (الأوديسة) أو (كتاب ده ده قورقود)، تكاد هذه الملاحم تحفظ دون نسيان سطر واحد، وتتناقلها الأجيال !هناك آراء علمية متنوعة للإجابة على هذا.

ولكن إذا كان الحفاظ على هذه الآثار وتناقلها بين الأجيال أمرًا ضروريًا من ناحية، فمن ناحية أخرى هناك أمر لا يقل أهمية ولا ضرورة عن هذا، ألا وهو أسس كتابة السير الشعبية أو النصوص. فمن المعروف أن

أي نص يبدأ بملاحظات حول الموضوع. كما يُطلق على هذا "نتاج معمـل الكاتب". والمخطوط المبتور رقم ٢١ أ / ٧٣٣ مليء بالملاحظات المختلفة التي قام بها المؤلف أو بمعنى أصح (ده ده قوروقود) ربما لو أطلق على هذه الملاحظات اسم "مشاهدات" لكان أوضح، لم لا؟ ما الفرق؟ ربما كان المشكّكون في ذاكرة الإنسان والشاعر محقين (أعني بذلك الأكاديمي الروسي فومنكور وجماعته). وعلى أية حال يثبت مخطوطنا المبتور أن المؤلف كان يُعد نفسه لامتحان عظيم، أي لكتابة السيرة الشعبية العظيمة التي نعرفها (*) وذلك عن طريق كتابة جادة للأحداث التي يشاهدها يومًا بيوم وساعة بساعة. وهذا ما نلمسه من هذه الملاحظات والمشاهدات.

ذكر رجل حكيم قائلاً: "سيعود لنا (ده ده قورقود)، لا أعرف كيف، ولكن سيعود بلا شك. وذكر رجل حكيم آخر، أن المخطوطات لا تحترق، بل تنجو من النار سالمة.

قبل قليل استخدمنا عبارة "الجزء" الأولى الأساسية للمخطوط. لماذا؟ ما هو الجزء الثاني إذًا؟ أي جزء؟ بالطبع، لم نعن بالجزء الثاني أو الجزء الموازي للجزء الأول الجزء المتعلق بزلزال غنجة. إذًا فما هو؟ يلوح سرٌ آخر من داخل سر. كلما قرأت رأيت أن هذا النص الأساسي المقدم على أنه ملاحظات لـ (ده ده قورقود) ينقطع في مواضع كثيرة، فيحدث ما يشبه الفراغات في النص، وتملأ هذه الفراغات بموضوع آخر تمامًا يكاد لا يخطر على بال أحد. وللوهلة الأولى ينتاب الإنسان إحساس غريب وشك، حتى أنه يسأل نفسه (هل هذا صحيح)، ولا نجد في مثل هذه الأجزاء أي خلفية أو معلومات عن الموضوع.

(*) يقصد الكاتب سيرة "كتاب ده ده قورقود" الشهيرة. (المترجم)

ذلك الجزء الذي أطلقنا عليه "الجزء الثاني أو الموازي" يتعلق بحياة الحاكم الأذربيجاني والإيراني الشاه إسماعيل خطائي(*).

ويتضمن هذا الجزء تصوير جزء أو لمحة من حياته. وهذا الأمر لا يدركه العقل مطلقًا. وهذا لا ينبئ بأحداث تاريخية، بل بأحداث بديعية. شخصية (ده ده قورقود) و (الشاه إسماعيل)، أو (الشاه إسماعيل) و(ده ده قورقود). يجب أيضًا القول بأن هذين الجزأين غير متكافئين من حيث الحجم فالجزء المتعلق بـ (ده ده قورقود) أكبر حجمًا من الآخر، ومع أن لكل جزء لغته، إلا أنهما يتكاملان. فشخصيات مثل (الشاه إسماعيل)، و(لالا)، و (وزير) و (تاجلو خانم) و (الخضر) وغيرها من الشخصيات التي وردت في المخطوط، تذهب بالقارئ إلى عالم آخر، وتهز بعمق التصورات التي اعتدنا عليها بشأن هذه الشخصيات. وثمة سؤال أساسي واضح وضوح الشمس، وهو لماذا ينقسم هذا المخطوط الذي يكتنفه – بدءًا وختاما – حديثا عن زلزال غنجة بعد ذلك إلى جزئين؟ أو ربما إلى مخطوطين متداخلين فيما بينهما؟لماذا؟ لأي سبب؟هل أرادوا إخفاء أحدهما بالآخر؟!

إنني أقول بصراحة، إن هناك شيئًا ما يضايقني داخليًّا يرتبط بملاحظات (ده ده قورقود)، وليس بما ورد عن الشاه إسماعيل خطائي. يا ترى أليس التطرق إلى سرية هذه الملاحظات ذنبًا؟ هل من الصواب إفشاء هذه السرية؟

هذه الأسئلة تطرح نفسها؛ لأنه لو كان هذا المخطوط عبارة عن ملاحظات ومشاهدات عادية، لهان الأمر كما يقولون. ولكن حقيقة الأمر تكمن في أن هذه الملاحظات وضعت بغرض حل سر ما أو الوصول لأمر

(*) يكمن مدى كل هذا الاستغراب والتعجب في هذا الجزء الثاني لأن الشاه إسماعيل خطائي قد عاش في القرن السادس عشر الميلادي، و(ده ده قورقود) كان في القرن الثاني عشر الميلادي، فالتاريخان ليس بينهما أي رابط وهذا ما قصده المؤلف. (المترجم).

دقيق. وتنتشر هذه الملاحظات خلال النص وتحافظ على الغرض الأساسي. أما هذا الغرض فيمكن أن نطلق عليه بلغتنا المعاصرة "عملية تحقيق في قضية ما". أجرى هذا التحقيق الملك "بايندر خان" حاكم مجتمع الأوغوز – أو بمعنى أصح – دولة الأوغوز، أما من قام بما يمكن أن نسميه بلغتنا المعاصرة كتابة التحقيق، فهو (ده ده قورقود). ستقرءون وتشاهدون أن المحققين ومن حُقق معهم عبارة عن شخصيات أساسية وغير أساسية في السيرة الشعبية التي ستكتب بعد ذلك أعني سيرة "ده ده قورقود". ربما الشخصيات الأساسية في السيرة تكون شخصيات ثانوية في المخطوط المبتور. وبالعكس أبطال المخطوط المبتور قد تكون شخصيات من الدرجة الثانية أو الثالثة في السيرة. في الحقيقة يلقى سير هذا التحقيق الضوء على بعض الأمور المظلمة في السيرة. وعلينا أيضًا أن نلفت النظر إلى أنه يظهر جليًا من خلال سير التحقيق السبب الأساسي للعداوة بين أوغوز الداخل والخارج(*) الذي صورته السيرة الشعبية وانتهى بالحرب.

كلما قرأت شعرت أحيانًا بداخلك بأن الأمر معقد وصعب وأحيانا أخرى تشعر أنه بسيط للغاية ومضحك. وستشاهد بنفسك أيها القارئ أن هؤلاء الناس قد عاشوا في ذلك الزمن البعيد بأحاسيس تشبه تقريبا التي نعيشها نحن الآن، وأنهم كانوا يتنفسون مثلنا، وستشاهد أيضًا اضطراباتهم ومشاكلهم. وكأن ليس بيننا وبينهم هذه الحقبة الزمنية الطويلة. وكأن هذه الحقبة الزمنية الطويلة قد اقتصرت على الملابس، والذوق العام، والعطور والمظاهر والعادات فقط ، أو بمعنى أدق انصبت على تغير الأسلوب أو الشكل. أما المضمون أو الماهية فكما هي. يمكن أن نقول إنها تظل تقريبا كما هي من الزمن البعيد. أو بمعنى أصح تظل مستمرة دون التعرض لتغير. المهم...

(*) كانت دولة الأوغوز تنقسم إلى قسمين أوغوز الداخل وأوغوز الخارج وكانت بينهما عداوات أحيانا. (المترجم)

أعتقد أنه ليس عيبا التصريح عن سبب هذا التحقيق. تبدأ هذه الأحداث كجميع الأحداث المهمة والجادة بأمر بسيط، يكاد لا يذكر للوهلة الأولى. وهو أنهم يخبرون (صالور قازان) أنه يوجد جاسوس للأعداء في (الأوغوز).

ينشغل هذا الجاسوس بالتخريب على أعلى مستوى. وينقل الأسرار المهمة للدولة إلى العدو. فعلى سبيل المثال، إذا خرج (صالور قازان) للصيد، في الحال يُخبر العدو بهذا الأمر وأن الفرصة سانحة. تعالوا وانقضوا على (الأوغوز). وأعتقد أن المؤلف يشير إلى زلزال غنجة الذي وقع بعد ذلك بكثير جدًا عن طريق بعد نظره، وذلك من خلاله هو ومن خلال عصره. وبعد ذلك يستعد (بيرك) للزواج. فيقوم الجاسوس بوظيفته مرة أخرى. فيقوم الأعداء هذه المرة – بما يوافق السيرة – بخطف (بيرك) ووضعه في سجن (بايبورد) لمدة ستة عشر عامًا. مثال آخر، انكسرت قدم (بكيل)، فينقل العدو الخبر وهكذا. والخلاصة، أن نشاط الجاسوس قد أنزل ضربات موجعة بمجتمع (الأوغوز)، فقرر (صالور قازان) البحث عنه والقبض عليه بشكل حاسم.

يُلقي القبض على الجاسوس، ولكن لم تنته المشكلات عند هذا الحد، بل ربما الحقيقة أنها بدأت من هنا. فنجد أن "سادة الأوغوز الذين قرروا بشكل غاضب جدًا القبض على الجاسوس وشقه نصفين" – كما يذكر المخطوط المبتور – هم أنفسهم الذين بذلوا قصارى جهدهم لإخراجه من السجن بعد إلقاء القبض عليه ، أي كما يقال تغير الأمر مائة وثمانين درجة. وقد حصلوا على ما أرادوا. فبالفعل أقاموا مجلس شورى وأدلى السادة بأصواتهم، وفكوا وثاق الجاسوس بعد منتصف الليل وأمروه بالخروج من (الأوغوز) والابتعاد عنه، أي بمعنى أصح الاختفاء تمامًا.

ويبدأ التحقيق من هذه اللحظة. وعندما عرف الملك بايندر خـان بما حدث، أخذ يبحث عن إجابة لهذا السؤال ! "من هـرّب الجاسـوس؟" فأقام التحقيق، وقد اُستدعى فردًا فردًا لهذا التحقيق سادة (الأوغـوز) – (صـالور قازان)، و (شير شمس الدين)، و (بكيل)، و (أروز)، و (قوجا). وجاء بعض السادة النُجباء والنساء للملك ببعض الأخيار، فسعى البعض منهم المساعدة في هذا التحقيق بما يعرفون، وسعى البعض الآخر في تضليله.

ويعد (ده ده قورقود) الكاتب الوحيد لسير أحداث هذا التحقيـق الـذي ربما أول تحقيق له مكانة مهمة في مجتمع الأوغوز.

ومن الممكن تقييم الملاحظات والمشاهدات التي قام بها أثنـاء سـير التحقيق بأنها بمثابة مسودات للسيرة الشعبية العظيمـة التـي سـتكتب فـي المستقبل. أما أنه كان يعرف أنه سيُكتب بعد ذلك عمل كهذا (يعني السيرة)، أم لا، فهذا موضوع آخر. على أية حال، يساعد مضمون وهدف الملاحظات التي دونت أثناء التحقيق فى استنتاج رد إيجابي للموضوع.

يقوم محتوى المخطوط المبتور على حبكة محكمة. يُبرز فيها الأبطال المختلفون أنفسهم وعالمهم الداخلي. ويقف (ده ده قورقود) عند الطرف الآخر من الحكي ويراقب بدقة كل حركاتهم وسكناتهم. وينقل كل ما يسمعه ويـراه إلى عقله، وإلى ذهنه، وربما إلى قلبه، ثم ينقل أهم الأمـور إلـى الأوراق، التي تحولت إلى المخطوط، ها هو المخطوط المبتور! هـذا هـو الـنقص الموجود هنا !.

يكاد التردد يهلكني. قولوا أنتم بأنفسكم، هل أنا محق في نـشر هـذا المخطوط المبتور وتقديمه للقارئ أم لا؟! والغريب أنني بحثت عن إجابة لهذا السؤال كثيرًا، ولكني لم أجد له جوابًا...

مقدمة أخرى

أم أن للمتضادات الموجودة في الدنيا أهمية؟

يُطل علينا مخطوط آخر من داخل هذا المخطـوط الرئيـسي. وهـذا المخطوط الجديد يتحدث عن حضارة أخرى تختلف عن موضوع المخطوط الأصلي. ويبدو هذا الفكر لأول وهلة مستحيل التحقق. لأن وجود مخطـوط آخر داخل المخطوط الأصلي يطرح عدة أسئلة جديدة. ممـن خبئـت هـذه الكتابة الموجودة داخل المخطوط الأصلي؟ ولماذا؟ وممـن كـانوا يريـدون حمايتها؟! ولماذا؟وهل هناك مغزى من اكتشاف هذا المخطوط في أيامنا هذه تحديدًا؟!

إنني على يقين أن "المخطوط المبتـور" سـيحدث تغيـرًا مـا لـدى المتخصصين في سيرة "كتاب ده ده قورقود " بالرغم من نقـصه الخـداع. وسيلقي الضوء على بعض الموضوعات الخفية والمبهمة. ولكن لا يُـستبعد أيضًا أن البعض يمكن أن يشكك في صحة تقديم هذا النص نفـسه. ويظـل وسيظل باق هذا المصراع الشهير للشاعر الأذربيجاني (حسين جويد) والقائل فيه: "الإنسان محق في الشك". ولكن هناك أمرًا جليًا، يتمثل في أنه لن يبـدو كل شيء كالمعتاد جامدا لا روح فيه. فطبقا للقوانين الأسـطورية الخاصـة بكتابة السير والملاحم الشعبية؛ هناك بعض الجمادات التـي لا روح فيهـا ستتحرك فجأة في هذا "المخطوط المبتور" وتدب فيها الروح، وتبدأ في الحب والكراهية والصداقة والخداع والكذب والضحك والبكاء، أو بمعنـى أصـح ستبدأ هذه الجمادات في العيش بكل ما تحتويه الكلمة.

ومن المعلوم أنهم – المشاركين في أحداث السيرة – كانوا مجرد أناس بسطاء عاديين قبل كل شيء، فقد كانوا أناسا أحياء يعيشون ويتنفسون قبل أن يكونوا سادة أو أبناء سادة أو أمراء أو أميرات. وكذا بدأ مجتمع الأوغوز القديم يظهر في حدوده الحقيقية والواقعية والمعنوية.

نحن لسنا مجبرين على كتابة ملاحظات كاملة عن جميع الموضوعات المتعلقة بالمخطوط التي تحتاج لشرح أو غير المفهومة ، فليس هناك حاجة لذلك. وأنا على ثقة أيها القارئ أنك لن تضل داخل النص. أي تعليق مسبق على العمل ينبئ عن دعوى كتابة مدخل علمي، ونحن بعيدون عن هذا. فمن الصالح، أن نقوم بالتعليق الموضوعي الجاد فقط على الأجزاء المبتورة من هذا "المخطوط المبتور" وعلى بعض مواضع النقص التي تحتاج إلى تعليق خاص. وبما أن هذه التعليقات ستستمر طيلة النص، فقد فكرنا وقررنا –حتى تكون هذه التعليقات أكثر فائدة – أن نجعلها مكتوبة بشكل خاص داخل نص المخطوط الأصلي وسيتعرف عليها القارئ عن طريق تغير نمط خط الكتابة.

ومن ناحية أخرى، سيصادف القارئ طيلة النص علامة القوسين ( ). أما ما بداخل القوسين، فهو عبارة عن ملاحظات خاصة بمؤلف "المخطوط المبتور".

وهناك أمر يجب التنويه به. وهو أننا قد أشرنا من قبل، أن "المخطوط المبتور" في الأصل عبارة عن جزأين مختلفين، ولكن الأحداث تسير متوازية الاتجاهات ؛يكمل بعضها بعضا. فالاتجاه الأول عبارة عن تسجيل سير التحقيق الذي أجري من قبل بايندر خان وكتابه (ده ده قورقود) حول وقوع حادث غريب داخل مجتمع الأوغوز وهو موضوع الجاسوس. والاتجاه الثاني عبارة عن ملاحظات ومشاهدات خاصة بمؤلف التحقيق أي بـ (ده ده قورقود)، وربما سير التحقيق في ذاته ساعد في التعرف بعمق إلى العديد من

رجال الأوغوز وتقييمهم تقييمًا حقيقيا. ومما لا شك فيه أنه يمكن قبول هذه الملاحظات على أنها نتيجة لمراقبة سير التحقيق. وبجانب هذا، لا يمكن إنكار أن هذه الملاحظات تنبئ عن بداية كتابة المؤلف لسيرة شعبية عظيمة. ولم يكن من الممكن إتمام هذا الإبداع العظيم والشاق - أي سيرة (ده ده قورقود) - دون مثل هذه الملاحظات. ويُعتقد أن أفكار وملاحظات المؤلف المتعلقة بهذه الشخصية أو تلك أو المتعلقة بالأبطال والمكان والأحداث، بلغت تقريبًا أقصى درجة من الموضوعية. والأمر هكذا في "المخطوط المبتور". أما في النص الإبداعي أي في سيرة (كتاب.ده ده قورقود) فنواجه تغيرات حادة في كثير من الأحيان. ويختلف "المخطوط المبتور" كثيرًا عن نص سيرة (كتاب ده ده قورقود) الأصلية المعروفة لدينا.

أخيرًا: المقدمة الأخيرة
أو حقوق من يقول "لا أعلم"

هناك فرق جوهري بين مخطوطنا المبتور وجميع المخطوطات الأخرى، يتمثل في أنه ليس لمخطوطنا بداية كما ليس له نهاية. ربما عد هذا مجرد ذكرى للعصر الذي عاش فيه المخطوط المتعلق بزلزال غنجة، وربما لم يفكر مؤلف المخطوط في النص على أنه رواية بمفهومنا اليوم، تكون متسلسلة ومنظمة. في الأصل يوجد للمخطوط بداية ونهاية بالنسبة للمؤلف وهناك العديد من الإشارات داخل مخطوطنا المبتور تشكل تصورًا واضحًا وتامًّا عن بداية المخطوط.

ينتابني أحيانًا - إحساس أنني أقوم بعمل يخالف الأدب العام - كأنني أنشل أحدًا ما، أو أنني أراقبه من فتحة الباب، أو أنني أقرأ خطابًا خاصًّا به، وأفشي سره... تؤرقني طيلة قراءتي للمخطوط أسئلة مقلقة ومثيرة من هذا النوع.

والآن، قولوا أنتم -عندما أقدم لكم هذا المخطوط المبتور- هل أكون بذلك قد قمت بعمل خير أم لا؟ وأنا نفسي مكثتُ أبحث عن رد يحسم هذه الحيرة.

وبعد أن انتهيتُ من هذه الكتابة، وقع حادث غريب ، وهو أنني ما إن أنهيتُ الجملة الأخيرة (أعني قولي آنفا: "وأنا نفسي مكثت أبحث عن رد يحسم هذه الحيرة.") انتابني نوم فجائي. ومالت رأسي على المكتب دون أن

أدري، وكأني أخذتُ أشاهد حالي من بعيد. لقد وقع هذا لوقتٍ قصير. ورأيتُ في المنام رجلاً. نسيتُ تمامًا شكله وكل شيء عنه ما إن استيقظتُ من النوم. وكل ما بقي في ذاكرتي، هو هذا الحوار القصير الذي دار بيني وبينه :

لقد سألني قائلاً:

- لماذا عملت هذا؟

أجبتُه قائلاً:

- لا أعرف.

ربنا يحمي الجاهلين من غضب العالمين. آمين.

.... إن شيوخ المدينة الذين رأوا ما يعانيه الناس من غنجة بعد الزلزال كان...

.... طلبني بايندر خان يومًا إليه. فذهبت إلى حضرة الملك عند الظهيرة وألقيت عليه السلام بأدب. فسألني:

- ألا تعرف لماذا استدعيتك، يا قورقود؟!

أجبته:

- لا أعرف، أيها الملك العظيم.

قال بايندرخان:

- أنت الوحيد الذي ستقدر على هذا، يا قورقود. لقد اخترتك أنت بالذات. لقد أخبروني وقالوا لي إن الأمور في (الأوغوز) ليست على ما يرام، ربما سمعتَ أنتَ الآخر شيئًا. كان هناك جاسوس، تم القبض عليه، ثم بعد ذلك... فكوا وثاقه وأطلقوا سراحه... قل لي ما تعرفه، لنحل سويًا هذا اللغز.

ظل بايندر خان صامتًا.

مع أنني شعرتُ بأن الأمر جلي بالنسبة لـ"بايندر خان"، إلا أنني لم أتكلم، وانتظرتُ.

احمرَّ وجه بايندر خان ، وشعرتُ أنه يكظم غضبه بصعوبة. ونظر إلي بريبة كأنه يقول:

- "ألم تسمع شيئًا عن هذا؟! ألا؟

لم يقل شيئًا. وظل ينظر إليَّ صامتا. ومن الواضح أنه كان ينتظر مني ردًا.

هل يمكن الكذب على بايندر خان ، سلطان السلاطين؟ فلديــه جــيش عظيم، وله عبيد كثيرون، وله جلاد، وله حبس وسجن. فتشجعتُ وقلتُ:

- سمعتُ، يا سيدي، لقد سمعتُ أنا أيضًا أمورًا مختلفة.

أما ما دار في خاطري فهو: "من أين عرف الملك هذا، وهل يعني سؤاله لي أنه ليس لديه علم بهذا الأمر حتى النهاية، ماذا عليَّ أن أفعل؟ ساعدني يا رب. يا ترى، إلى أي مدى تصل معلوماته.

احتد صوت الملك شيئا فشيئا:

- قورقود، ماذا سمعت؟! تكلم. انظر إليَّ، إلى أي شيء تنظــر؟! ألستَ هنا معك؟

- كنتُ أفكر يا سيدي. من الممكن أن يقع كل ما يمكن أن تقوله أو تفكر فيه في هذه الدنيا الفانية. سيدي، كل ما يدور ببالك يمكنك أن تراه على أرض الواقع.

أعجب بايندر خان بهذا الكلام وبدا كالمبتسم.

(علي أن أحفظ هذا، سيأتي الوقت الذي أستخدمه فيه).

بعد ذلك قلتُ شيئًا ما، ولكن نظرتُ فجأة، فإذا بـــ"بايندر خـــان" لا يستمع إلي. نعم، كان الأمر كذلك كان الملك يرمق بعينيه طائرًا صغيرًا تعلق بأشواك أغصان الورد في حديقة قصره. بدأ بايندر خان في النظر من النافذة ويرمق باهتمام حركات ذلك الطائر الصغير، وبدأتُ أنا الآخر فـــي النظـــر من فوق كتفه ودار ببالي هل يمكن إنقاذ هذا الطائر المــسكين مــن أســر الأشواك أم لا؟

قال "بايندر خان" بهدوء بالغ:

- (قيلباش)، أنقذ هذا الطائر المسكين من الأشواك.

لقد استغربت هذا، لأنه لم يكن أحد في حجرة الملك سوانا.

أين رأى بايندر خان (قيلبـــاش)؟! ولكنـــه رآه. بينمـــا كنـــت أنظـــر من فوق كتف بايندر خان ثانية، إذا بـــ (قيلباش) قد أخذ الطائر مـــن بـــين الأشواك وحمله.

- تعال هنا، يا (قيلباش).

لقد تعجبتُ ثانية. كيف سمع (قيلباش) هذه الكلمات التي قالها باينـــدر خان تلك التي كادت أن تكون همسًا وهو في الناحية الأخرى من حديقة قصر الملك؟! وسرعان ما كان (قيلباش) معنا في حجرة الملك.

(كان (قيلباش) ظل بايندر خان، ونفسه، وروحه، وعقلـــه. لا يوجـــد أحد في (الأغوز) يرد له قولا. في الأصل لم يكن لـــ (قيلباش) كلام خـــاص به. فقد كان يقول ما يقوله "بايندر خان" فقط. كان (قيلباش) يجلب الأخبار وينقلها. ويأمر سادة الأوغوز ويطلب منهم تنفيذ الأوامر. خلاصة القـــول، كان مقربا لـــ (بايندر خان) حقيقة.

أما وزير بايندر خان فهو شخص آخر. يدعى القاضي قوجـــا. فـــي الحقيقة كان يتحدث معه في جميع شئون الدولة. ولكن كانت هناك بعـــض الموضوعات الخفية التي يجب حلها ولا يمكن أن يعرفهـــا الجميـــع. كـــان بايندر خان يحل هذه الأمور بواسطة (قيلباش).

حدثني (قازان) ذات مرة عن حكاية (قيلباش) وأنا الآن أتـــذكر هـــذا الحديث. أتى "بايندر خان" بـــ (قيلباش) إلى قصره وهو لا يـــزال صـــغيرًا. وكانت عائلة (قيلباش) في أسر قبائل (قيبتشاق). وقد ولد (قيلباش) نفـــسه في الأسر. وقد أرسل والده وأمه طلبًا للملك بابيدر خان ، يقولان فيه "يـــا ليتك تشتري ابننا أيها الملك بدلاً من الأسر الذي نحن فيه". وبعد هذا الطلب

أقاموا فخًا وهرّبوا (قيلباش) من الأسر وأحضره سرًا لـ (بايندرخان). أخذ بابيدر خان (قيلباش) في حمايته لأنه يعرف والده. والآن أصبحت جميع أسرار بايندر خان وجميع خصوصياته عند (قيلباش). ولكن...).

لم يبتعد بايندر خان عن النافذة المطلة على الحديقة حتى جاء (قيلباش) إلى العرش. كان يشاهد الحديقة. لم أره في هذا الحال حتى وهو في أسوأ حالاته. إذا. سيثير بايندر خان عدة موضوعات مهمة. فلم يستدع (قيلباش) هباء.

عندما وصلت إلى هذا الموضوع في أول مرة، اعتقدتُ أن المخطوط غير مهم كما قالت إحدى موظفات دار المخطوطات وأن الفتاة المتخصصة في اللغة العربية قد أصابت. فهذا موضوع آخر تمامًا. بايندر خان، قيلباش، ده ده قورقود، كل هؤلاء عم يتحدثون؟! ماذا حدث في الأوغوز؟ بأي لغة يتحدثون فيما بينهم؟! ربما لتلك الفتاة – كما يقولون –يد في الموضوع.

الخلاصة، لنر ماذا سيحدث بعد ذلك؟! فما بعد ذلك كطوفان هاج كما سنرى.

... شعر بايندر خان هذه المرة بدخول (قيلباش) إلى الحجـــرة، وهـــو بالفعل بالداخل. التفت إلينا. وأمعن النظر في كلٍ منا، في النهاية قال:

- ستحلان هذا السر.

وأشار بايندر خان إليَّ بيده. ونظر إليَّ هذه المـــرة بـــشيء مـــن الغضب وقال:

- أنت، ستكتب. ستكتب كل ما يدور في هذه الحجـــرة، أي كلمـــة تخرج من فم أي أحد، ستكتبها كلمة كلمة.

استدار بايندر خان نحو (قيلباش) وقال:

- وأنت، يا (قيلباش)، لا يسمح بالخروج لأي رجل أو امرأة مـــن (الأوغوز) حتى يُفصل في هذه القضية. تؤجل جميع الأعمـــال: الحملات ورحلات الصيد والأسفار. من أطلبه، فليكن هنا فـــي الحال. وأيضًا...أفعل أي شيء يا (قيلباش) في سبيل ألا يتسرب أي حديث يدور هنا، فليدفن في الأرض، ولا يخبر أحدٌ أحدًا بما يحدث. حتى ولو كان وزيري القاضي (قوجا). فلا تخرج كلمة واحدة من هذه الحجرة. فلا يتفاقم الموضوع. هل فهمت؟ علـــى أية حال سنجد المذنب.

مرة أخرى يدقق بايندر خان فيهما النظر ويتوجه نحو الحديقة ويقترب من النافذة تمامًا:

- سيشرح لك (قيلباش) ما لم تفهمه. أما الآن فانصرفا.

كان هذا الكلام موجهًا لي. خرجنا أنا و (قيلباش) من حجرة الملـــك. وقلت:

- اشرح لي الأمر، يا (قيلباش).

عبرنا من ممر طويل سويًا ودخلنا إلى حديقة قصر الملك. وفرشنا سجادة وسط الحديقة في مكان مظلل على الحشائش الخضراء. جلسنا القرفصاء تحت هذا الظل. فبدأ (قيلباش) الكلام بهدوء بالغ:

– مما لا شك فيه أن الملك يثق فينا ثقة كبيرة. ومن الواجب علينا أن نجعل هذه الثقة في محلها، ماذا تقول يا (قورقود)؟

سألتُ (قيلباش):

– ماذا أقول؟ أنا أوافقك تمامًا.

لقد قلت هذا الكلام بطريقة مباشرة بعد أن دار في عقلي فترة.

رد (قيلباش):

– نعم، سيجري الملك تحقيقًا. لم يخرج الجاسوس من السجن من تلقاء نفسه. أنت تعرف هذا، وأنا أيضًا أعلمه. يعلمه الجميع في (أوغوز الداخل) حتى الطفل الرضيع. (شعرتُ بعرقٍ باردٍ يتصبب على ظهري). فالجاسوس لم يتحول إلى طائر ويطير إلى السماء، وما صار فأرًا ويختبئ في الأرض. فقد أخرجوه جهارًا نهارًا وهربوه من السجن من (الأوغوز). أليس كذلك؛ بالطبع هناك مدبر لهذا الأمر. وواجبنا أن نجده ، ونسعد قلب الملك. فهو...

(كنت أوافق وأؤمن على كلام (قيلباش) وأومئ برأسي قائلاً "بالطبع"، "بالطبع". هل كان لدي حل آخر؟ كنت لا أستطيع أن أعمل سوى ذلك. كان (قيلباش) يدقق النظر فيّ وهو يتحدث. وكأنما يريد أن يخترق قلبي بعينيه الصغيرتين. خطر ببالي بسرعة سؤال "ما لا شك فيه أن هناك من أبلغ بايندر خان هذا الخبر. لكن، من هو؟! آه لو كنت أستطيع معرفة

ذلك من (قيلباش) بشكل أو بآخر...لا، لا فائدة من ذلك. من الذي أخبـره؟ ومن لا. لا ليس لهذا معنى الآن. الآن ستقع أحداث مدهـشة. هـل يمكـن تحمل تحقيق بايندر خان والنظر إلى عينيه التي تذرف دمًا؟ مـاذا ينتظـر السادة...العون منك يا الله. . ")

أعادني صوت (قيلباش) إلى الظل حيث قال:

- أين ذهبت يا قورقود؟

- أنا؟!. . أنا معك ، يا (قيلباش).

- أنت لم تكن معي على الإطلاق. انتبه، اسمعني انظر ماذا أقـول لك. نبدأ أولاً بـ (قازان). حتى لا يُقال في (الأوغوز)، بايندر خان لا يريد أن يُدين زوج ابنته.

- هكذا؟ نبدأ من (قازان)؟

- نعم. هكذا. ثم بعد ذلـك، (شـير شـمس الـدين)، و (بكيـل)، و (أروز قوجا)...

فأضفت ببطءٍ شديد:

- بيرك...

لم يكترث (قيلباش) بمداخلتي وقال ببرود:

- ماذا يمكن أن يعمل (بيرك)؟ لا يمكن الشك فيه.

وأراد أن يغير الحديث فجأة فقال:

- يا (قورقود)، لكن (بيرك) هو (بيرك). فالبقاء في الأسر لمدة ست عشرة سنة في مكان مثل (بايبورد) مثلما حدث لـ (بيـرك)... ليس بالأمر اليسير، ولا يستطيع الجميع تحمله.

فلم أجد أنا الآخر سوى أن أقول:

- (بيرك) هو (بيرك) والفرس الرمادي... عاقل منذ نعومة أظفاره.

(بالطبع سيأتي اليوم الذي تتطاير فيه جميع الحيل التي قمت بها وتتلاشى كالضباب ويظهر النهار...).

فسألت قائلاً:

- أنا أعرف أن (بيرك)، قد قدم مؤخرًا لخدمة بايندر خان، أليس كذلك يا (قيلباش)؟

- قدم، ولكن ليس لهذا دخل بالموضوع الأساسي

لقد رأيتُ أن (قيلباش) ليس مهتمًا بالحديث عن (بيرك) بجدية. نهض (قيلباش)، ونهضتُ أنا أيضًا، واتجهنا إلى الناحية الأخرى من الحديقة، إلى البوابة السوداء. عندما كان (قيلباش) يودعني قال:

- قورقود، تأتي غدًا مبكرًا. بورقك وأقلامك. ولكن لي عندك رجاء. بالله عليك، لا تقل لأحد ما سمعته هنا. أنت رأيت بنفسك، هذه هي رغبة الملك.

- أنت قلت لي "لا تقل"، أنا لن أقول.

- نعم، لا تقل. نحن ننفذ ما يراه الملك ففيه الصالح.

- أنا موافق.

- إذا ، مع السلامة. اذهب، ولتأت غدًا.

فقلتُ:

- حفظك الله ورعاك. إلى اللقاء. شكرًا، يا (قيلباش).

ركبتُ الحصان. وخرجتُ من حديقة الملك، وأسرعتُ بالحصان وقت الظهيرة ولا أعلم كيف وصلتُ إلى المغارة المفتوحة الموجودة علـــى ســـفح جبل (آلاداغ).

نزلتُ من فوق الحصان، وتركته في المرعى. جلستُ مـــستندًا علـــى الحجر (نور) الموجود أمام المغارة. وقضيتُ وقتًا كبيرًا علي هـــذه الحالـــة. تدور الأفكار في خاطري حول الخيول الملكية، أما أنا فكنتُ لا أســـتطيع أن أمسك واحدا منها مطلقًا. وكان الشك ينتابني:

"ما الذي يمكن عمله، فلو افتضح موضوع الجاسوس لـــ (بايندر خان) فستحل المصائب على رءوسنا".

لقد مضى جزء كبير من الليل. وبدأ يحل عليَّ النوم. وقد أنهى القمـــر سياحته كالمعتاد كل ليلة في السماء. وانتقل في السماء من هذه الناحية إلـــى الناحية الأخرى. وفكرتُ، "ما الذي سيحدث"، دخلت المغارة ووضعتُ رأسي على السرير الحجري. ووضعت على الدثار المصنوع من جلد الجمال. ولكن مهما حاولت، لم أستطع الاستغراق في النوم حتى مر أكثر من نصف الليل. وبدأت بعض الموضوعات تدور في عقلي. وتـــداخلت هـــذه الموضـــوعات فيما بينها:

"سيطول الموضوع ، وماذا عليَّ أن أعمل؟! لـــو أغمـــضت المـــرأة (فاطمة) (أم الجاسوس) عينها وفتحت فمها وتكلمت. لا. بالطبع، ليس هنـــاك عيب في لقائها، وتلقينها ماذا تقول إذا استدعاها الملك...ولكن الأمـــر لـــيس بهذه السهولة. سرعان ما سيكشف بايندر خان، و (قيلباش) الأمر، ويعرفـــان الأمر وبالطبع، سيكون ذلك صعبًا. هل يعرف (بيرك) الأمر؟ هل أنت الذي أخبرتَ الملك عن أمرنا؟ أم هو الذي أغواك يا (بورلا خاتون)؟ بالطبع، هل يستقيم الأمر بدون (خاتون)؟.

من بقي بعد ذلك؟ (قازان)... قـــازان مـــن؟ إنـــه زوج ابنـــة الملـــك (بورلا خاتون) الحبيب. (قازان) هو (صالور قازان). لم يعـــص (قـــازان) (بايندر خان) مطلقًا. ويعرف الملك هذا جيدًا. ولهذا يثق فيه ثقة عميـــاء، إذا فالتحقيق مع (قازان) ليس بغرض إخفاء الحقيقة، فما الأمر؟ في التحقيق إما أن يقول (قازان) للملك أن قورقود قال لي أطلق ســـراح الجاســـوس، وإمـــا (أروز قوجا) أو (شير شمس الدين)؟ لا، لا يخطر بباله هذا. أمـــا (بكيـــل) فيخاف أن يؤذيني. (أروز قوجا). نعـــم، أروز قوجـــا يمكـــن أن تقـــول ! (أروز قوجا)...(أروز قوجا) و (فاطمة) هما أضعف حلقة في تحقيق الملك، أخطر حلقة. يمكن خداع (فاطمة) بشكل ما. أما (أروز قوجـــا)...ملعونـــة. يمكن أن تقضي على الدنيا كلها من أجل نفسها وابنها. متكبرة، ليس لتكبرها حدود. ولا أحد يحب المتكبرين. والحقيقة ههذا. كل شيء متوقف على (أروز قوجا). بالطبع الأمر يكمن في (فاطمة)، و (أروز قوجا)، والجاسوس. هـــذا الربط يكون مفيدًا للجميع. مفيدًا لـــ (قازان)، نعم. ولـــ (بورلا خاتون)، نعم ونعم. فهل هو مفيد لـــ (شير شمس الدين)؟ الأمر لا يعنيه. فهل هو مفيد لـــ (بكيل)؟ ماذا يمكن أن يقول (بكيل) في التحقيق؟ (بكيل) غاضب من (قازان). لا يرتاح كل منهما للآخر.

("قازان" يقول كلامًا، و (بكيل) يقـــول كلامًـــا آخـــر عـــن ســـبب هذا الغضب).

والآن أهم شيء، وضع (بكيل) أمام (أروز قوجا). لو اســـتطعنا فعـــل ذلك، إذا فلتقل (أروز قوجا) ما تقول، لن يكون لكلامها أية أهمية. لن يسمع لها بايندر خان أي كلام. ولكن وضع هذا الفخ ليس بالأمر الهين. يمكـــن أن يسمع (قيلباش) بهذه الحيلة، فليسمع. فهو أيضًا غير متحيز لـــ (أروز قوجا). الجميع ضد (أروز قوجا) ما عدا (بكيل). لقد تعب (الأوغوز) من سوء أدب

(أروز قوجا). تقول من تكبرها دائما: "لــولا ابنـــي (باصـــات)... ، جـاء (باصات)، راح (باصات)، انتصر (باصات)...". (أروز قوجا) هـــي (أروز قوجا)...لكن الحيطة. يجب اتخاذ اللازم. (أروز قوجـا) مـــاكرة لا يمكـــن الاستمرار في هذا الأمر. من السهل وقوع (بيرك) في المـــصيدة...". لقـد ظللت مدة طويلة بين النائم واليقظان أفكر في مثل هذه الأفكار. ولا أعــرف متى رحت في النوم. لقد حملني الموت الأصغر.

***

كانت الشمس تتراءى شيئا فشيئا على قمة الجبل عندما استيقظت في الصباح الباكر من النوم، واتجهتُ إلى عتبة بايندر خان قرابة الظهر، دون أن أتأخر. كان (قيلباش) يتجول هنا وهناك وينتظرني في حديقة القصر. وكان بجواره أيضًا فتيان طويلا القامة، عريضا المنكبين. كانا ينتظران أوامره. أحنيا رأسيهما بأدب وألقيا عليَّ السلام.

سلام علي (قيلباش) وسألني قائلاً:

- السلام عليكم، يا قورقود، صباح الخير. لقد صدر الأمر من الملك، أن يأتي اليوم (صالور قازان) إلى الديوان. وقال الملك إنه سيرد على أي استفسار. هل أنت مستعد؟

أجبته:

- أنا مستعد، يا (قيلباش).

وعندئذ قدّرتُ أنه قد صح ما فكرت فيه بالليل. لقد عرف (قيلباش) أن الملك يبدأ بـ (قازان).

أعطى (قيلباش) أوامره للفتيين الذين بجواره قائلاً:

- اذهبا واستدعيا (قازان بك) إلى ديوان الملك، فليحضر. وقولا له قد أمر الملك بايندر خان أن تأتي.

أحنى الفتيان رأسيهما بدون أي كلام وذهبا، وأخرجا فرسين من مرتع الخيول وركباهما. وخرجا من البوابة السوداء وأسرعا وغابا عن الأنظار. بدأ ما يشبه الحركة البسيطة في حديقة الملك. كانت الجواري تروح هنا وهناك، إحداهن تحلب البقر والأخرى توقد التنور. وفككن عقال الأغنام والجمال، وتركنها ترعى في المرعى. وكان هناك عبدان يمسك كل منهما

بلجام فرس خرج به من البوابة السوداء. أنا أعرف هذين الفرسين، أحد الفرسين عبارة عن فرس رأسه رأس ماعز ويسمى (كيتشر). والآخر رأسه رأس خروف صغير ويسمى (دورو). كان هذان الفرسان أسرع فرسين في مرعى بايندر خان. لقد ركبت هذين الفرسين عند الذهاب لخطبة (بيرك).

نادى علي (قيلباش):

– تعال هنا يا قورقود، تعال إلى الظل.

كانت الشمس تميل إلى مكانها المعتاد – قمة سفح (قارآغاج). ذهبت تحت ظل أغصان الشجرة.

سألني (قيلباش):

– ما رأيك يا (قورقود)، ننتظر (قازان)، أم نذهب للملك، حتى يعرف أننا وصلنا؟!

قلت بحذر:

– كما ترى، يا (قيلباش).

أتى آنذاك الخادم، وكان الرد عنده. "الملك يريدكما لديه". نظر كل منا – أنا و (قيلباش) – إلى الآخر، وذهبنا إلى عرش الملك. عندما دخلنا عنده كان الملك بايندر خان قد جلس بهيبة على العرش شارد الذهن. لم يكن معتدل المزاج كالأمس. ألقيت عليه التحية بأدب. ورد السلام وأشار بايندر خان بيده للجلوس. فجلسنا.

نظر إليّ بايندر خان أولاً ووجه إلي الكلام:

– ألا تعرف، يا (قورقود)، يا ابني، ما الذي يؤرقني؟ الذي يؤرقني هو أن سادة (الأوغوز) العظام لا يفكرون اليوم مطلقاً في مستقبل (الأوغوز). حتى (قازان)، كنت لا أتوقع أن يكون له يد في هذا الأمر...

هكذا قال "له يد في هذا الأمر". إن كان الملك يختبرني فالأفضل آنذاك أن أقف صامتًا. وإن كان لا يختبرني، فالصمت أيضًا واجب. هذا ما فكرتُ فيه.

استدار بايندر خان فجأة إلى (قيلباش) وقال:

- (قيلباش)، هل جاء (قازان)؟

أجاب قيلباش قائلاً:

- يأتي، يا سيدي، ذهبوا لاستدعائه.

- استقبلوه، واحتفوا به، فهو والد حفيدنا.

نظر بايندر خان إلي ثانية بريبة. وكأنه يسألني بنظراته "فيما تفكر يا ترى؟". فلم أرد وصرفتُ بصري إلى الأرض، وظللتُ واقفًا. ومكثنا فترة طويلة صامتين تمامًا دون كلام.

دخل الخادم:

- قدم (قازان) بك، يا سيدي. جاء مع ابنه (اوروز). ويستأذن للدخول.

نظر (قيلباش) وبايندر خان كل منهما للآخر وسأل بايندر خان:

- هل جاء مع (اوروز)؟! لماذا جاء مع (اوروز)؟!

(إنني أعجبتُ من ذكاء (قازان). بالطبع، عرف بالأمر، فقدم بابنه (اوروز) (حفيد الملك)، حتى يرقق قلب بايندر خان. كم هي حيلة جميلة قام بها).

فكرتُ قائلاً: "الحمد لله، خلص (قازان) نفسه من هذا المأزق بسلام. وبقينا نحن. إن شاء الله لا يذكر اسمي للملك".

أشار (قيلباش) بيده للخادم "أن أخرج". نظر (قيلباش) لـ (بايندر خان) سائلاً:

- ماذا سنفعل، يا سيدي؟

قال بايندر خان:

- لا تُدخلوا (اوروز) هنا الآن. اتركوه، يذهب ويلعب مع الخدم. ونبه على الحرس، أن يتركوه، يفعل ما يريد حتى وإن ذهب إلى الجواري، ماذا يحدث؟ إنه طفل. وليأت (قازان) بمفرده.

خرج (قيلباش) قائلاً: "على العين والرأس". توجه بايندر خان بوجهه إلي قائلاً:

- اجلس مكانك، هل معك ورقة وقلم؟

جلست القرفصاء وتمكنت من جلستي وأجبتُ قائلاً:

- نعم، يا سيدي، معي.

دقق بايندر خان في النظر قائلاً:

- اكتب، يا (قورقود)، يا بني، اكتب ما أقوله أنا، وما يقوله هو. لا تنس حتى ولو كلمة واحدة. فليُكتب هذا التحقيق. ، ليقرأه من يقرؤه بعد ذلك. ولكن ما رأيك؟ أنا أعرف تمامًا أن (قازان) ليس له يد في الموضوع. فهل يا ترى ما حدث نتيجة لحماقته، أم لطيبة قلبه، أم ماذا؟

من الواضح أنه كان يختبرني بهذا الكلام.

أجبت الملك قائلاً:

- (قازان) يا سيدي، فتى شجاع. وحبه لك ليس له حد ولا حدود. (قازان) عماد (الأوغوز).

بينما أقول العبارة الأخيرة، دخل (قازان)، لعله يكون قد سمع هذا، إن شاء الله.

دخل (قيلباش) وراء (قازان). زحف (قازان) على ركبتيه حتى وصل إلى بايندر خان، وأخذ يُقبل يدي بايندر خان، وأحنى رأسه بأدب وقال:

- كل الحب والتحية للملك.

نظرتُ نحوه وألقيتُ نظرة خاطفة، وسألته بعيني "ماذا حدث"؟

- تعال، يا (قازان)، اجلس، اجلس، كيف حالك؟ وكيف الحال في (الأوغوز)، جئت بـ (اوروز)، أليس كذلك؟ خيرًا فعلتَ. اجلس هنا يا (قازان). واجلس هنا يا قورقود، يا بني، قريبًا من (قازان). وانشغل بعملك، الكتابة. وأنت يا (قيلباش)، اذهب إلى الناحية الأخرى.

لاحظتُ أن (قازان) حتى الآن لا يعرف ماذا يحدث. وكان يبدو عليه أنه أحضر ابنه (اوروز) بلا هدف ولكنه كان لا يفهم أنني أعرف ماذا يجري. وبعد أن جلس في مكانه واستراح فيه. نظر إلي وعيناه بهما ألف سؤال. ودققت أنا النظر، فرأيت أن يده التي وضعها على ركبتيه أخذت ترتعد ببطء، وأصابعه ترتعش. سرعان ما رأى (قازان) أن نظري على يديه، فأخفاها تحت المتكأ الذي يجلس عليه. وأدار إلى بايندر خان وجهه قائلاً:

- أيها الملك، لم يتركني (اوروز). قال لي، إذا كنت تذهب إلى جدي، خذني معك. فلأقبل يدك، وأحضرته هو أيضًا ليقبل يدك. فما رأيك فيما فعلتُ؟

- خيرًا عملتَ، يا (قازان) يا ابني. مرحبا بكما. ليتك أحضرت معك ابنتنا (بورلا خانم)، وأنت قادم هنا.

شعر الجميع بالاستهزاء في كلام بايندر خان. ولكن لم يدع الفرصة تفوته فقال:

- قالت لي (بورلا خانم) "اذهبوا أنتما في آمان الله". وبلغوا السلام الكثير جدًا إلى والدي. وقالت أيضًا إنها زارتكم منذ عدة أيام. وقالت، قبل لي يد أبي.

(قازان) هو هو (قازان)، أراد بهذا أن يقول للملك، أنني أعرف بمجيء (بورلا خانم) إلى هنا، وأعرف ما قالته لك، وإذا كانت هناك لعبة ما فأنا مشترك في هذه اللعبة. شرد بايندر خان في التفكير، وقرر أن يدخل في الموضوع مباشرة.

- (قازان)، هل تعرف سبب استدعائي لك؟

غطت الحيرة والاستغراب وجه (قازان) وفتح عينيه وأجاب بودٍ جم:

- لا أعرف، يا سيدي. لم يقولوا لي. أنا مستعد برأسي، وسيفي لأي أمر لك مهما كان. امنحني شرف الموت في سبيلك. ما الأمر، هل هناك هجوم مرتقب على الأوغوز؟ أخبرني!

قال هذا الكلام وهو يلتفت برأسه هنا وهناك.

ألقيت نظرة على بايندر خان الذي كان يلعب في لحيته بهدوء دون أن أتوقف عن الكتابة. حرك بايندر خان رأسه بالرضا، قائلاً:

- شجاعتك معروفة للعالم بأسره، يا (قازان). وبطولتك..

آنذاك أخذ بايندر خان نفسًا عميقًا ورمقني بطرف عينه ليعرف هل أنا منشغل بالكتابة أم لا، فأنزلتُ عيني في الحال في الأوراق، فرأى بايندر خان أنني مشغول بالكتابة بالفعل، فاستمر في كلامه بهدوء:

- .... وبطولتك، يا (قازان)، واضحة تمامًا لي. لا حاجة لأن تقول هذا. إنني أعرف أن عندك أصلا ونسبا. وقلبك كقلب الطائر. أنا أثق فيك وأصدقك، يا (قازان). أنت سندي.

- أشكرك، يا سيدي، أشكرك، امنحني الفرصة في إفناء رأسي الأسود في سبيلك حتى الموت،....

(انظر إلى هذا، كيف خطر بباله كلمة "رأسي السوداء"؟! أول مرة أسمع هذا اللفظ. أحسنت، يا (قازان)، وهو يعني أنه يقول له: "فداك ضياع رأسي الأسود في سبيلك". إن شاء الله يظل هذا اللفظ في ذاكرتي).

- أمنحني إفناء رأسي الأسود في سبيلك حتى الموت.

قال (قازان) هذه الجملة وانطرح أرضًا، وأخذ يضرب رأسه في الأرض، وانحنى لـ (بايندر خان).

- قف، يا (قازان)، لا تفعل هذا، يا (قازان)، هل أنت غريب عني؟ ماذا حدث له، يا (قيلباش) !...

احتضن (قيلباش) (قازان) بهدوء ولكن بقوة، ولم يمكنه أن يرفع رأسه ويضربها على الأرض مرة أخرى.

بدأ (قازان) يهدأ رويدًا رويدًا وهو يقول: "سيدي، وأبي بعد أبي. ثـم جلس القرفصاء مرة أخرى مكانه.

وعندما صمت (قازان) واصل بايندر خان كلامه:

- ألا تعلم، يا (قازان)، يا ابني، أن داء (الأوغوز) يؤرقني، إنه داء عضال. يوجد جاسوس في (الأوغوز)، يا (قازان)، جاسوس!..

- آه الأمر كذلك، يا سيدي بايندر خان؟ جاسوس؟

كان يتعجب (قازان) بشدة، لدرجة أنني كدتُ أنا الآخر أصدق أن هذا الشخص ليس لديه أي خبر عن الموضوع. وتعجبتُ لذلك. وفجـأة دب الخوف في قلبي حين قال لي: "انظر للملك". فنظرتُ وقد تجمد الدم في عروقي، فإذا بـ بايندر خان يسلط نظره لا على (قازان)، بل علـى أنا. وقد خرق عيني ، بنظراته الحادة: ووجهه المليء بالتعجب

- اكتب، يا (قورقود)، يا بني، انشغل أنت بالكتابة.

لقد تغيرت نبرة صوت بايندر خان هذه المرة تمامًا. وأصبحت بـاردة برود ماء النهر. وبعد ذلك تحول نحو (قازان)، وقال له:

- انظر يا (قازان)، لقد تعجب (قورقود) أيضًا. إذًا، ألم يكن لـديك أي علم عن هذا الأمر؟.

- لم يكن لدي علم...، وعندما قلتُ "لم يكن لدي علم"، كنت أعني "كان لدي علم يا سيدي الملك"، ولكن قد أخذ ذلـك الجاسـوس جزاءه. ألقينا القبض عليه، نعم، ألقينا القبض عليه، وعلقناه فـي البئر، وأسرناه. وأذقناه ألوانًا من العذاب. ولكن بعد ذلك طردناه، وابتعد عن (الأوغوز) للأبد، ولن يعود مرة أخرى إن شاء الله، لقد قضينا عليه، يا سيدي الملك، لقد محوناه.

- الأمر كذلك؟ تقول "لقد محوناه"...كيف ذلك؟ هل شققتموه نصفين؟ إذا حسناً فعلتم...ليكون عبرة للجميع. أم فصلتم رأسه عن جسده؟. . حسنا. حسنا جدًا...لقد أحببتك، يا (قازان). ولكن، انتظر، ربما صعدتم به قمة جبل وألقيتم به من فوق قمة الجبل، ليكون طعامًا للذئاب. هذا أيضًا لا بأس به أنت تقول "لقد محوناه"، أليس كذلك يا (قازان)؟! أحقًا ما سمعته منك؟

هز (قازان) رأسه كطفل صغير مذنب. وشعرتُ أنه يهتز من الداخل.

خرج صوت (قازان) بصعوبة بالغة وقال:

- لا، لم نشققه نصفين.

قال بايندر خان:

- لم نشققه نصفين؟

نهض قازان على قدميه وقال:

- لا، يا سيدي. ولكن ليس عليَّ ذنب.

- هل تقسم بي، يا (قازان)؟

همس قازان :

- سيدي...

- أسألك شيئًا آخر، يا (قازان)، لا تغضبني، يا (قازان)، أسألك ثانية، هل تقسم أن لسانك سيقول الصدق؟

- نعم، سيدي. أقسم برأسك الغالي، أن لساني لن يقول إلا الصدق.

(أي صدق، يا (قازان)؟ إن قلت الصدق، فستنصب على رأسك الأسود البلايا صبا، ألا تعلم ذلك؟! ولكن ما هذا الصدق الذي تريد أن تقوله؟ من يعرف هذا غير الله؟! تقسم بأنك ستقول الصدق. قل ماذا سيحدث؟ قل إن "فاطمة بوغازجا" (أم الجاسوس) جاءت لك وقالت لك، إن الجاسوس الذي قبض عليه هو ابنك وابنها، قل يا (قازان) هذا، ألست تريد أن تقول الصدق. ولكن انسني بعد ذلك، انسني، انسني للأبد. ولا تبحث عن (قورقود) مرة أخرى في أي مأزق).

قال بايندر خان:

- لا، لا تقسم برأسي.

- أقسم بروح ابني (اوروز).

غضب بايندر خان وقال:

- لا

التفت (قازان):

- ماذا أفعل إذا؟

وبعد ذلك، استنار عقله فجأة قائلاً:

- حسنا، أقسم، بروح أمي.

فانفض غضب بايندر خان كطائر نجا من مكان مليء بالأشواك وعاود الطيران فرحًا، وقال:

- الآن، صدقتك. جميع (الأوغوز) تعرف جيدًا يمينك هذا، وأنك تحب أمك كثيرًا، وأنا أيضًا.

(ابتسم آنذاك "بايندر خان" ابتسامة رقيقة. ربما تذكر اتفاق (قازان) مع (شوكتلو مالك). هذه القصة مشهورة. لا يوجد أحد فـي (الأوغـوز) لا يعرفها. في وقت من الأوقات قـام (شـوكتلو مالـك) بالانقـضاض علـى (الأوغوز) ونهبها وأسر شبابها، وسبى نسائها. وكان فـي ذلـك الوقـت (قازان) كبير السادة خرج إلى الصيد مع رجال جيش (الأوغوز). وتركـوا البلاد بدون حام. لقد نهب الأعداء البلاد تمامًا. ولكن هناك أمـرًا تناقلتـه الألسنة، وهو أن (قازان) الذي ذهب للقصاص من (شوكتلو مالك)، وأرسل إليه ما يلي: "لك كل ما استوليت عليه وطالته يدك. فلتكن زوجتي جاريتنـا لك، وليكن ابني خادمًا لك، ولكن أعطني أمي فقط". وبعد ذلك أخبر (قازان) بايندر خان الذي كان في شدة الحزن والأسى ما يلي: "إنني أخدعه". ولكن ليس من السهل معرفة ما إذا كان بايندر خان صدقه أم لا. الغرض، لحـق سادة الأوغوز بـ (قازان) الذي كان ذاهبًا للحرب...وفكوا وثاق الأسـرى، وأنزلوا ضربة شديدة بالعدو. وعندما عرفت (بورلا خاتون) زوجة (قازان) بما قاله، ظلت عامًا كاملاً لا تتحدث معه وقالت له: "بعتني بأمـك، وبعـت ابنك، وبعت البلد كلها. وغد ابن وغد". هذا ما أتـذكره ممـا قالـت. لقـد سمعتها بنفسي. لقد انقلب حال (قازان)، كم صرخ ونادى قائلاً "هذه خدعة حرب، ليس للمرأة دخل فيها"، ولكن بلا فائدة، فاضطر (قازان) للذهاب إلى عتبة بايندر خان وقت الظهيرة وتحدث معه. وبعد ذلك صدر أمر لـ (بورلا خاتون) من بايندر خان. وجاء (قيلباش) وقال ما يلي: "المرأة هي المـرأة. لا يمكن أن تتدخل في الحرية الخاصة بزوجها. (قـازان)، ابننـا وسـندنا. وسيظل هكذا دائمًا. أما (بورلا خاتون)، فعليها طاعة زوجها، تقـوم حيـث قام، وتجلس حيث جلس".

أطاعت (بورلا خاتون) الأمر، وقالت "سمعًا وطاعة" لأمر أبيها وعفت عن ذنب قازان. ولكن منذ ذلك الوقت عندما يريد أحدًا أن يُقسم بعمر أمـه في (الأوغوز)، يتذكر قازان).

- إذا، أنت أقسمت يا (قازان)، وصدقتك. قل لي ماذا حدث.

نهض بايندر خان من فوق عرشه ووقف بمحاذاة قازان تمامًا. وحدق النظر فيه من أعلى لأسفل، وسأله:

- قل لي، من هرّب الجاسوس؟ لا يمكن أن يكون طائر هو الـــذي قام بهذا. قام بتهريبه شخص، ألـــيس كـــذلك؟ أم احتـــال علـــى الحراس وكأنهم أطفال وهربوه؟ من يا (قازان)، الذي فعل هذا، من هذا الملعون؟ قل أنت يا (قيلباش) !

قال بايندر خان هذا، وعاد إلى مكانه. لم يكن توجيه بايندر خان الكلام لـــ (قيلباش) بدون سبب. فـــ (قيلباش) ساعده الأيمن. أمسك (قازان) برأسه من الخلف، وتأوه وفقد الوعي وخر على الأرض. كان (قازان) ذا قلب رقيق كالطائر وكان الجميع في (الأوغوز) يعرف هذا.

أمر بايندر خان (قيلباش) قائلاً:

- انثر على وجهه الماء.

أحضر (قيلباش) كوبا من ماء من فوق المنضدة الموجودة على الناحية الأخرى من الحجرة. وصب الماء مباشرة على رأس (قازان)، ما إن ســـقط الماء على وجه (قازان) وملابسه، عاد إلى وعيه، فسأله بايندر خان:

- ماذا حدث لك يا (قازان)؟ هل فقدت وعيك؟

- لا، يا سيدي، لا. لا أعرف ماذا حدث... اسودت عيناي، وفجأة أظلمت الدنيا أمام عيني، وفقدت الوعي. ثم نظر إلى (قيلبـــاش) وقال: "أعطني هذا الماء يا قيلباش، أريد أن أشرب.

صب (قيلباش) الماء في الكوب، وقدمه لـــ (قــازان). بــدأ قــازان يشرب الماء بنهم مصدرا صوتًا من شفتيه ، وكأنك تظن أنه لم يشرب الماء منذ ألف عام. مهما يشرب لا يرتو. ففكرت قائلاً "مـــا هــذا، هــل يــشرب نهرًا جاريا؟".

في البداية نظر "بايندر خان" إلي وبعد ذلك إلى (قازان) قائلاً:

- اكتب يا (قورقود)، اكتب أنت يا (قورقود). أســألك أنــت يــا (قازان) مرة أخرى. لقد أقسمت آنفًا، قل الصدق. مــن هــرب الجاسوس؟ هل تقول بنفسك أم...

أسرع (قازان) بالرد في نفس واحدٍ دون أن يفكر في شيء آخر قائلاً:

- (أروز قوجا) الذي هربه، يا سيدي الملك، (أروز قوجا).

- خالك (أروز قوجا)؟

- نعم، يا سيدي الملك، خالي (أروز قوجا).

فسأله الملك مرة أخرى :

- (أروز قوجا) الذي يشبه فمه فم الحصان؟

(ما أجمل ما قاله بايندر خان. حقيقة. فم (أروز قوجا) يــشبه فــم الحصان. ما أجمل هذا التعبير " (أروز قوجا) الذي يشبه فمه فم حــصان". يجب أن يُحفظ هذا القول. لقد تعجبت، لأنه سرعان ما استخدم قازان هــذا الاسم. كأن (قازان) يعرف ما يدور بعقلي الآن. ربما يحس بما يــدور فــي عقلي، هل يمكن أن يكرر ما يدور في عقلي؟! إذا لنختبر هذا الأمر).

كرر (قازان) الكلام قائلاً:

- نعم، يا سيدي الملك. هرّب (أروز قوجا)-الذي يشبه فمــه فــم حصان- هذا الجاسوس الملعون؟

لقد رمقني قازان بعينه وكأنه يسألني "هل هذا صحيح؟" اجتهــدت أن أحرك رأسي عدة مرات وأن أشير إليه سرًا. وكأنني أقول لــه "أنــت فــي الطريق الصواب يا قازان. لو مضيت في هذا، ستتصلح الأمور، إن شاء الله، أنت في الطريق الصحيح".

- أقول الصدق، يا سيدي، صدقني. سبب كل البلايا هو (أروز قوجا). أقسم بروح أمي.

وواصل (قازان) كلامه بكل شجاعة:

- إن لم تصدقني فاسأل (بورلا خاتون). (أروز قوجا) هــو بــلاء على (الأعوز)، اعلم هذا، لقد قلت الصدق، نعم، بالفعــل (أروز قوجا) يشبه فمه فم حصان.

(كاد (قازان) أن يشير لي. ولكنه لم يفعل، لقد أنجانا الله مــن هــذا البلاء).

عدّل بايندر خان جلسته دون أن يتكلم بكلمة. وبدأ في حك لحيته ببطء. وصمت كثيرًا. وشرد ذهنه وسلط عينيه على شيء معين دون أن يــرمش. نظرتُ لــ (قيلباش)، ونظر هو لي. وكان بايندر خان يفكر في القرار الــذي سيتخذه.

(لم يكن بين (قازان) وخاله (أروز قوجا) مطلقا علاقة ود وحب كخال وابن أخت. بالرغم من أنهما متقاربان في السن تقريبًا، فإن (أروز قوجا) دائمًا يجعل نفسه في مقام الكبير؛ لهذا أطلق شاربه ولحيته من وقت مبكر، وكان بجانب (قازان) يشبه رجلاً يكبرُه سنًا وأنا الذي سميته (أروز قوجا)[*]. والآن أضاف بايندر خان على هذا الاسم صفة جيدة: (أروز قوجا)الذي يشبه فمه فم الحصان. ولكن من يعلم، أنا أكتب هذا النص، وربما يُقال بعد ذلك (قورقود)هو الذي أضاف هذه الصفة. لا يريد بايندر خان أن يسمع أحد بهذا الاسم أو بهذه الصفة.

بالرغم من أنه لم ينظر نحوي عندما قال "فمه يشبه فم الحصان"، فإنه قالها لي كأنه يقول "أحفظ هذه الصفة، يا قورقود، يا بني".

قلتُ سابقًا إن (قازان) و (أروز قوجا) لا يحب أحدهما الآخر. فهناك غرض ظاهر لكراهية (قازان) لخاله، وكراهية خاله له...وهناك غرض آخر خفي منسي لا يُرى. ولا يسمع. والآن في فترة ما كان بايندر خان شارد الذهن في التفكير، تذكرتُ أنا ذلك الغرض.

كانت أيامًا صعبة جدًا على (الأوغوز)، قدمت طائفة مجهولة، وقطعت النهر الذي يعيش عليه الأوغوز والذي يجري من قمة جبل (قاضيليق)، واستقروا هناك. لقد أُعجبت الجيوش بالمكان، لدرجة أنها كانت لا تنوي تركه والذهاب لمكان آخر. لم يكن أحد يعرف لغة هذه الطائفة، ولا أحد يعرف ماذا يريدون. فأرسلوني. إليهم، وقال لي سادة الأوغوز الذين تجمعوا حول (قازان) ما يلي:

(*) تعني كلمة "قوجا" في اللغة الأذربيجانية الشيخ أو المسن. (المترجم)

"تعطيهم كل ما يريدون، ولكن لا يقطعون علينا الماء. لقد أمر بايندر خان قائلاً، فليذهب "قورقود" إليهم وليقابل كبيرهم. ونحن موافقون على أية شروط".

لقد أرسلني السادة إلى موتٍ محقق.

كان كبيرهم بعين واحدة ويسمى "تك جوز"، ولكنه نحيف. أخذ ينظـر إلي بعينه الواحدة، حتى تظن أنه سيأكلني. فارتعبتُ، والتصقت قدمي بالأرض وأخذت أبتهل إلى الله، وأطلب العون من السماء واحتميتُ في قلبي بالحجر "تور" قائلاً "يا إلهي، يا ليتني أستطع العودة إلى (الأوغوز)". جلس رجل يعرف لغتنا بجانب "تك جوز وقال ما يلي: "تقدمون لنا كل يوم رجلين ومائة خروف. حينئذ نفتح لكم الماء". قال "تك جوز" كلامًا بصوتٍ رفيـع لا يناسب جسمه، فصاح المترجم علي بهذه الكلمات التي قالها كبيرهم وهي: "وإلا اليوم قطعنا عنكم الماء، وغدًا سنقضي عليكم تمامًا. آخر كلام لنا هو هذا". فسألتُ:

- ماذا ستفعلون برجلين كل يوم؟

نظر ذلك المترجم إلى "تك جوز" بحب قائلاً:

- سنأكل نحن الخراف، ورئيسنا يأكل قلب الرجلين.

ففكرتُ قائلاً "يا إلهي، إنهم آكلو لحوم البشر". ثم استأذنتُ للعودة.

فقالوا:

- اذهب، ولكن إذا لم يحضر غدًا في الصباح الباكر ما طلبناه، إذن، لم يتم بيننا أي اتفاق، ولا تلوموا إلا أنفسكم.

لم أعرف، كيف عدتُ إلى الأوغوز. وقدمتُ إلى (قـــازان)، واســـتمع السادة إليَّ، وسخطوا بشدة، وأخذوا في التفكير...).

...نهض بايندر خان فجأة من مكانه، واقترب نحو النافذة ونظر إلـــى الحديقة، ونادى قائلاً "قيلباش". فاقترب قيلباش منه منحنيًا.

- قيلباش، تعلق هذا الطائر الصغير مرة أخرى بالشوك. وتلطـــخ في دمه. أسرع، وخلصه من الأشواك، ليطير ويمضي، ويعيش.

وبعد ذلك كأنه كان يهمس لنفسه ويقول:

- ما معنى أنه طائر، فهو أيضًا يريد العيش، ويريد أيضًا التـــنفس وفرد جناحيه في كبد السماء. مما يعني أنه طائر.... .

ولكن مع أنه قال هذه الكلمات بهدوء إلا أننا سمعناه أيضًا.

خلص قيلباش الطائر من الأشواك وتركه يطير ويمضي إلـــى حـــال سبيله، ثم عاد إلينا مرة أخرى.

بدأ بايندر خان الكلام وهو يتجول في الحجرة قائلاً:

- نعم...يعني أنت يا قازان، تتهم (أروز قوجا)، أليس كذلك؟! هكذا قلت، أنت تعرف نفسك. ولكن الآن نفكر للحظة. مـــا أهميتـــه بالنسبة لـــ (أروز قوجا)؟! أعني الجاسوس، لماذا أطلق سراحه؟ لماذا يُخالف السادة؟ فـــ"أروز قوجا" ليس أبله. ليس كذلك. فهـــو يعرف جيدًا ماذا يعمل. إذا، هناك هدف خفي...

طلب قازان الإذن حتى يقول شيئًا ما فقال:

- سيدي الملك...

فسأله بايندر خان يضيف:

– ...لا يقوم بأي عمل بدون هدف، ما هذا، ما رأيك.

– سيدي الملك، الجاسوس في الأصل، هو جاسوس له. فلتعرف هذا. فهو أنقذ أحد رجاله بإخراجه من السجن أصلاً. ألستُ أقول الحق؟

صمت بايندر خان مرة أخرى. وكأن الأمور تسير في شكلها الطبيعي. فالجاسوس يقوم بالتجسس على العدو والجاسوس رجل من رجال (أروز قوجا). وكان (أروز قوجا) على علم بكل حركاته. وكان (أروز قوجا) ذاته يوجه حركات هذا الجاسوس. إذا، فـ (أروز قوجا) نفسه يخون الأوغوز. فالأمر واضح تمامًا. ويمكن اعتبار أن التحقيق قد انتهى. فليكن الله في عوننا.

(إذا، لو كان الملك يعرف أو يدرك هذا، فمن الذي أخبر (البيقورد) بخبر زفاف (بيرك)؟وكيف حدث هذا؟لو قام (أروز قوجا) بهذا الأمر ، فمن الذي أوحى إليه به، يا ربي عونك).

سأل بايندر خان قازان بهدوء بصوت مليء بالحيلة:

– أنت تقول إن أروز قوجا هو الذي هرّب الجاسوس، أليس كذلك؟

أجاب قازان بدون تردد:

– هرّبه، يا سيدي الملك.

(فطنتُ فجأة، أن بايندر خان عنده علم بكل شيء فهو يعرف دعوة قازان لسادة الأوغوز للشورى ويعرف عملية التصويت التي جرت بينهم لاتخاذ قرار بشأن الجاسوس. بل إنه يعرف أيضا أنه ليس هناك أحد هرّب

الجاسوس، وأن السادة قالوا فيما بينهم إن الجاسوس بريء، وإن كلاً منهم قرر إطلاق سراحه. ولكن إذا كان بايندر خان يعرف هذا كما هو، فلماذا إذا يبحث عن الذي هرب الجاسوس، ما دام أن أحدا بعينه لم يُهرّبه؟!).

شق بايندر خان هذا الصمت:

- ألا تقول، كيف كان حال أروز قوجا عندما تـم القـبض علـى الجاسوس؟

ثم سأل بايندر خان قازان:

- لماذا لم تتحدث يا قازان عن مجلس الشورى الذي عقده السادة؟ لقد تشاورتم بشأن الجاسوس؟ أليس كذلك؟ لقد أخذتم القـرار مـرتين. المرة الأولى ناديتم جميعًا بالموت للجاسوس، أليس كذلك؟

كان قازان واقفا يقول دائمًا "نعم" على أي شيء ويتسرع في الإجابة:

- نعم، الأمر كذلك، يا سيدي. لقد قلت بنفسي، يا سيدي. قلت أولاً: الموت، لا غير الموت. الدم، لا غير الدم. حتى يكـون الأمـر علانية أمام الأوغوز، ولا يتجرأ أحد مرة أخرى أن يسلك طريق التجسس، طريق الخيانة. خيانة الأوغوز خيانة لي، خيانة الملك بايندر خان ملك الملوك. هل يمكن تحمل هذا؟! يجب إراقة الدم، يجب القصاص. لا يمكن أن يكفر هذا الجاسوس عن جريمته إلا بالدم. الموت، لا غير الموت، جزاؤه الموت فحسب. ولا ينطبق الشق نصفين والشنق والتمزيق والقطع والمحو من الوجود على ذلك الجاسوس فحسب، بل هناك أناس آخرون فـي الأوغـوز مشتبه فيهم. يستحقون هذا أيضًا يا سيدي، مثل "دلي دونـدار"،

و"آلب رستم"، و"بكيل"،...و"أروز قوجا". "أوغوز الخارج" مليئة بالأعداء. يتحدث بكل ما يخطر على بالهم، ويفعلون ما يحلو لهم، إنهم يريدون القضاء علينا نحن، "أوغوز الداخل"، ولكن هيهات، هيهات، لن يحدث هذا. بل نحن الذين سنقضي عليهم. جميعهم، فردًا فردًا...

صمت قازان فجأة، وكأنه هدأ، وسلط وجهه نحوي وقال لي:

- ألستُ أفكر هكذا يا "ده ده قورقود"؟ ألستُ أفكر هكذا يا "ده ده"؟ قل أنت، قل أنت للملك...

رفعتُ رأسي، وسرعان ما خفضتها لأسفل، ماذا كان يمكن أن أقول، الحق إن قازان كان لا ينتظر مني أي رد. فقد تحدث، وألقى ما بقلبه، وصمت. هل قال قازان هذا الكلام؟ أنا أعتقد أنه لم يقل هذا الكلام لمجرد أن يرضي عنه بايندر خان. أول مرة يتحدث قازان اليوم بأفكار كثيرة كان يخفيها ويحتفظ بها بداخله ومنذ سنوات طويلة. لقد قال هذا، وهدأ. فقد تحول قبل ذلك إلى تنين، ولكنه الآن تحول مرة أخرى فجأة من تنين إلى حمل وديع.

لقد رأيتُ أن بايندر خان، وكذلك قيلباش، ينظران إلى قازان، كأنهما أول مرة ينظران إليه. قازان، يقول هذا الكلام؟! خيرًا إن شاء الله. يا ربي، يا قدير، أنت العظيم، اغفر لنا. لم أكن أعرف قازان جيدًا حتى الآن، اغفر له يا قدير، لم يشعر بما قال بهذا أراد أن يفرق الأوغوز. أراد أن يخلق بينهم فرقة. اغفر له يا قدير، أنت العظيم.

(بعد قليل، سينفذ قازان ما فكر فيه، وسيأمره بايندر خان من أجل أن يعم السلام بين أوغوز الداخل والخارج أن يدعو الطرفين لحضور عمليـة "اليغمة" (*) التي يقيمها في منزله).

سلط بايندر خان مرة أخرى نظره على حديقـة القـصر. ثـم اتجـه نحونا وقال:

– قيلباش، ليحضروا لي حفيدي "اوروز". أما أنتم، فيكفي الآن هذا، اذهبوا، واستريحوا، ونلتقي بعد ذلك.

قمنا جميعًا، وانحنينا، وخرجنا من حجرة الملك.

***

(*) تعني كلمة "يغمة" باللغة الأذربيجانية "النهب" والمقصود بها كما ورد في سيرة "كتاب ده ده قوروقود" أن قازان كان يدعو السادة كل عام مرة من أجل أن يأتوا إلى قصره وينهبوا ويأخذوا كل ما يريدون منه في ذلك اليوم. (المترجم)

...لم يكن من السهل العثور على الصغير "اوروز". لم يحتمل الانتظار في حديقة جده الملك، فخرج من الباب الأحمر الموجود في الناحية الأخرى من حديقة القصر إلى ميدان الفروسية. الطفل هو الطفل.

أخبروا بايندر خان بذلك فقال بود: خرج "اوروز" ولم يذهب للجواري، أليس كذلك؟ ماذا يحدث، فليذهب حيث شاء. ولكن ليمر علي، عندما يعود، فلا يرجع إلى منزله دون أن يراني. أنا أعرف أنه الآن في ميدان الفروسية. لقد كبر إذًا، الوغد ابن الوغد".

قال بايندر خان هذه الكلمات ووقف ودخل حجرته.

خرجتُ أنا وقيلباش إلى الحديقة المواجهة لحجرة الملك، ولم يأت قازان معنا. ووقف عند الظل في المكان الذي تشرق منه الشمس. كان ظل الشجرة يشبه سجادة خضراء. فقال لي "قيلباش":

- لا خاب من استشار يا قورقود، فلنجلس.

نجح قيلباش بكلمة واحدة أن يسألني، ويأمرني في آن واحد، ودون أن ينتظر أي رد جلس القرفصاء تحت الشجرة وقال:

-تعال هنا، اجلس، هل يأتون بشيء نشربه؟ أم تريد أن تأكل، ألنت جائع؟

- نعم، أنا جائع، لنأكل شيئًا. ولكن لن أشرب خمرًا؛ يجب أن أكون في كامل وعيي أثناء التحقيق. لو سكرتُ يكون عيبًا.

ابتسم قيلباش وقال:

- تفكيرك صواب، وأنا أيضًا لن أشرب خمرًا، ولكن ما رأيك في"عصير عنب"؟

أشار قيلباش برأسه أن "تعالوا هنا" إلى خادمين كانا يُسلطان نظريهما علينا ويقفان بعيدًا عنا وينتظران إشارة صغيرة من قيلباش، فأسرع الخادمان وأحنيا رأسيهما وقالا:

- أمرك، يا سيدي.

- ماذا يوجد من الطعام الجاهز؟ إن يوجد أرز فأحضره، ولــيكنْ عليه لحم، وأحضرا إلينا خبزًا ولبنا رائبًا. ثم توجه إليّ قائلاً، ما رأيك، يا قورقود في عصير العنب؟

فأجبتُ بدون تركيز، ولم أعرف أنني أقع في فخ، فقلتُ:

- حسنا، عصير العنب جمِيل، فليحضروه.

أمر قيلباش الخادمين:

- اذهباً وأحضرا ما طلبتُ منكما.

أسرع الخادمان وذهبا نحو المطبخ.

وألقيت كلمة لا لزوم لها من أجل فتح حديث مع قيلباش:

- هل دخل قازان مع الملك إلى الحجرة الداخلية؟

احتال قيلباش ونظر يمنة ويسرة وقال ردًا ليس له علاقة بالموضــوع مطلقًا:

- أعلم أنك مرتبط بـــ"قازان" ارتباطًا وثيقًا.

- وأنت أيضًا تزور قازان كثيرًا.

- أزوره كثيرًا، هل أنكر هذا؟!

- ولكن اليوم خطرت ببالي أفكار سيئة. فلا يتعرض قازان للأذى. أنت تعرف يا قيلباش أن قازان هو سند الأوغوز.

للمرة الثانية يتهرب قيلباش من السؤال ويغير الكلام ويسألني:

- هل تعرف يا قورقود، ماذا يُطلق على عصير العنب؟!

كان من المفترض أن يرد قيلباش على سؤالي الأول بما يلي: "يا ترى دخل بايندر خان إلى الحجرة الداخلية مع قازان، أم أخذوا قازان إلى حجرة أخرى" ولكنه لم يرد هذا الرد. لقد كنتُ أسعى إلى معرفة بعض الأشياء من قيلباش بطريقة خفية عندما قلتُ "هل قازان في خطر؟". أما قيلباش فهو قيلباش. لم يرد على أي من السؤالين. كان يسعى أن يُضللني وهو يسألني عن عصير العنب. هذا فخ، مثل فخ الأرانب، أما أنا فقد وقعت في الفخ.

- عصير العنب...هل من المعقول أنني لا أعرف عصير العنب؟. . عصير العنب. .

لم أفهم لماذا كان قيلباش يضحك هكذا بشكل خفي. لقد ابتسم قيلباش بخبث قائلاً:

- الآن يحضرونه، وتشرب، وتذوق طعم عصر العنب، أليس كذلك؟..

بدأ صبري ينفد قليلاً وارتفع صوتي:

- ماذا سيحدث، عندما يحضرونه؟

- لا تغضب يا قورقود. لا تغضب. أليس عصير العنب هو الخمر؟ هو عصير عنب بعد تخزينه ثلاثة شهور، فكر في هذا...

قدم الخدم وفي أيديهم الطعام وأكواب الماء. في البداية فرشوا المائدة. وبعد ذلك نظم الطعام على المائدة. وانحنوا ورجعوا إلى أماكنهم كما كـــانوا. ووقفوا منتظرين الأمر.

قال لي قيلباش وهو يصب في كوبي عصر العنب:

- انظر :هذا هو عصير العنب. أليس خمرًا؟ ولكنْ هنـــاك فـــرق واحد، هو أنه حُفظ في زجاجات لمدة شـــهور. فـــي زجاجـــات خشبية. والآن يشرب العنـــب نفـــسه، هـــو عـــصير العنـــب، أليس كذلك؟

غضبتُ، فاندفعت قائلا بلا وعي: ما هذا الكلام الفارغ؟

وضع قيلباش يده بلطف على كتفي قائلاً:

- قلتُ لك لا تغضب، نحن إخوة. ألم تفهم هذا المزاح؟... اشرب، اشرب، من هذا، ليستقيم مزاجك. ليس في هذا أي ضرر. لديك رأس تحمل حدة هذا الخمر، وليس لهذه الخمر أي ضرر مطلقًا.

الغرض، أكلنا وشربنا واعتدل مزاجنا شيئًا فـــشيئًا وبـــدأت الـــشمس تنسحب وتستدير، في البداية انسحبت، من فوق قصر الملك، ثم من جـــدران الحديقة إلى الناحية الأخرى ثم سارت نحو التل الموجود هناك.

بدا فارس عند البوابة السوداء الضخمة الموجودة في الناحية الأخـــرى لحديقة القصر. نزل من الحصان وأخذ منه الخدم الحـــصان وأطلقـــوه فـــي إسطبل الخيول. أما هو فقد تحدث مع أحد الخدم، سأله سؤالاً، وتلقى الإجابة. ثم بدأ التقدم نحونا. كنا قد انتهينا من طعامنا. كانت الشمس قد بدأت تكـــوي قفانا، ونحن ننهض على أقدامنا مرتشفين آخر رشفة مـــن عـــصير العنـــب الموجودة في الكوب، فسألتُ قيلباش من نفسي:

- من هذا الفتى؟

فأسرع قيلباش بالرد عليَّ قائلاً:

- من سيكون؟! ألا تعرف "شير شمس الدين"، لقد عرفته من مشيته.

حول قيلباش عينيه عن البوابة السوداء التي كان ينظر إليها، وابتسم لي. نعم، إنه هو، كيف لم أعرفه. اقترب شير شمس الدين منا بسرعة ملتفتا يمنة ويسرة وأحنى رأسه. وألقى السلام. نظرتُ إلى وجه شير شمس الدين. كان يتوسل ويقول بعينيه:

"ماذا حدث، يا "ده ده قورقود"، اسألني أنت عن سبب مجيئي. لن يسألني قيلباش هذا. أنا مسكين لا حيلة لي ، لا أعرف ماذا أعمل؟

فبادرتُ قبل قيلباش بسؤاله قائلاً:

- عليكم السلام، هل أنت "شير شمس الدين"؟ ماذا حدث؟ هل حدث أمر ما؟ ما الذي جاء بك؟ هل طلبك الملك أنت الآخر؟

أسرع "شير شمس الدين" في الرد بفرح:

- لا، يا قورقود. لم يحدث شيء. ألف شكر لله، الأمور مستقرة وآمنة في الأوغوز. ولم يطلبني "بايندر خان" إلى جواره. لم أصبر - استدار "شير شمس الدين" إلى قيلباش - لم يتحمل قلبي، فجئت خلف سيدي قازان إلى هنا. سأنتظره هنا. إذا سمح بذلك قيلباش بالطبع...

- ما هذا الكلام؟ ألا يعرفك قيلباش، مرحبا بك، أيها الفتى، جئت أهلاً ونزلت سهلاً.

في الحقيقة كنت لا أتوقع هذا الود من قيلباش.

- لم أحضر شيئًا. لقد أسرعتُ في المجيء. قلتُ لنفسي، فلأنهض ولأذهب، عليّ أن أكون في المكان الذي يكون فيه سيدي قازان.

(لو لم تضحك، فماذا تفعل؟! ظللتُ أنظر إلى قيلباش، وهـو ينظـر إلي. لا يوجد كلام. كان "شير شمس الدين" فتىً وفيًا. دائما يكـون بجانـب قازان. فهو بالنسبة لـ (قازان)، مثل قيلباش بالنسبة لـ (باينـدر خـان). والآن عندما يعرف بايندر خان بمجيئه، فيم يفكـر؟! وممـا لا شـك فيـه ضرورة مجيء "شير شمس الدين" أيضًا للتحقيق.... ولكن انظر إلى الكلام الذي قاله هذا: لقد أسرعتُ ولم أحضر شـيئًا" إنـه والله لأبلـه وسيفـسد الأمور. حقًا لا يتمالك الإنسان نفسه من الضحك!).

ظل قيلباش يضحك بداخله. وكان شير شمس الدين المسكين يلتفت إليَّ تارة، وإلى قيلباش تارة أخرى دون أن يفهم شيئًا. ويدعك عينيه. أمـا أنـا فأخذت أفكر :"يا إلهي، لم أر هذا الفتى متزنًا قط، ربما يخدعنا. فليحدث مـا يحدث يا إلهي، ولكن في النهاية اجعل العاقبة خيرًا.

قال قيلباش وهو يحاول أن يتمالك نفسه من الضحك:

- حسنًا فعلت، يا شير شمس الدين إنك جئت بالفعل لقـد أمرنـي الملك أن أستدعيك إلى هنا. ولكن بعد قازان. يريدك الملك عنده بعد قازان. لا تبتعد عن هنا. بالفعل كان سيُرسل رسولا لطلبك.

حسنًا أنك جئت بنفسك. يا بطلي، ولا تحزن أنك لم تحضر معك شيئًا. ما المشكلة؟ المرة القادمة تأتي وأنت محمل بالخيرات.

من الواضح أن قيلباش كان يستهزئ بهذا المسكين، قال هــذا الكــلام وهو يُدير ظهره لــ"شير شمس الدين"، واستدعى الخادمين مرة أخرى برأسه وقال "انظر إليهما"، قدموا له كل ما يطلب، املأوا له بطنه، وقدموا له المــاء والشراب وأرضوه". لقد أمرهما بذلك، وبعد ذلك أمسك بذراعي بــبطء دون أن يكترث بــ "شير شمس الدين" الذي وضع يده على صــدره، وقــال لــي بهدوء دون أن ينظر إليَّ. "هيا يا قورقود، لنذهب، الملــك ينتظرنــا، فــلا نتأخر عليه".

الآن فقط أدركت شيئا، لقد اتضح لي عندما كنا نأكل وكذلك عندما كنا نتحدث مع "شير شمس الدين" كان قيلباش – دون أن ألحظ ذلــك – مــسلطًا عينه وأحيانًا عينيه الاثنتين على النافذة الموجودة في حجــرة الملــك. كــان قيلباش ينتظر من هناك إشارة. وقد جاءته الإشارة الآن، وبدأ يمــشي كأنــه يردد لنفسه قائلاً: "فلنذهب". فاتجهنا معًا أنا وقيلباش إلــى حجــرة الملــك. وعندما دخلنا عليه، رأينا أن بايندر خان، قد أنهى استراحته بالفعل وينتظرنا فأمر بايندر خان قائلاً:

- ادخلا، واجلسا.

دخلنا وقد طأطأنا الرءوس، وجلسنا في المكان الذي كنا نجلــس فيــه سابقًا أنا بجانب النافذة وقيلباش أمامها. وقد دار بخلدي أنه"يلزم هذا من أجل مشاهدة ما يحدث بالخارج من النافذة– أعني جلسة قيلباش – ما شاء الله لــه أربع عيون، يعرف ويرى كل شيء له عين من الوراء أيضًا هــذا الظــالم، عندما قلت كلمة (عين) تذكرتُ ذا العين الواحدة. الله لا يُعيد هذا البلاء مــرة أخرى على الأوغوز. الملعون كنت أدعو بهذا في قلبي، وقد نبهني صــوت بايندر خان وقطع أفكاري، ولكن قبل أن ينبهني صوت بايندر خان كنت أفكر في...

ينقطع نص المخطوط في هذا الموضع ومع الأسف الذي تذكره "ده ده قورقود" في هذا الموضوع أصبح مجهولا لنا للأبد.

.... – قورقود، وأنت يا قيلباش، ما رأيكما في هذا؟ هل فهمتما شيئًا من الحديث السابق؟ هل قازان قال الصدق في الأمر؟

مرة أخرى نظر كل منا أنا وقيلباش للآخر لوهلة وأشار لي قيلباش برأسه قائلاً "ابدأ أنت"، "بالطبع يجب علي أن أبدأ أنا أولاً، فالملك ذكر اسمي أولاً".

(وغد ابن وغد. أنا أعرفك جيدًا. أنت من، وأنا من. . أم هذا عصير عنب أيضًا؟).

قلتُ:

– سيدي الملك، أعتقد أن قازان بك قد صدقك القول. ولكن لم يتحدث عن مجلس الشورى الذي أقامه السادة. ربما نسي. كان مرتبكًا حقا قال إن...هذا صعب علي أن أقوله، ولكني سأقوله إن لم يكن اليوم، فغدًا سيحدث بلاء في الأوغوز. فلتعلم يا سيدي

تعجب بايندر خان:

– حقًّا؟

وكأن لسان حاله يقول "أنا لستُ غافلاً عن هذا، بل أنا الذي أتظاهر بعدم المعرفة". ولكنه قال:

- قل، يا قورقود يا بني، لا تخجل، قل، تحدث، قل لي ما هذا البلاء الذي يصيب قومنا؟! أنت تقول كلاما مثيرا. أنت تقول كلاما مخيفا...

كم حاول أن يصبغ صوته بالدهشة، ولكني فهمتُ أن بايندر خان فاهم الموضوع لقد تجرأتُ وقلتُ:

- لا تسأل يا سيدي، لا تسألني. ذكر الآن "قازان "أروز قوجا" أليس كذلك؟ لا تسألني أنا. اسأل من شئتَ، ولا تسألني أنا. ولكن اعلمْ أن أوغوز الداخل ليسوا هم أوغوز الخارج. هناك فرق بينهما. اليوم الأمر خفي، غدًا سيظهر. حفظ الله الملك.

جلس بايندر خانِ على المتكأ وسلط نظره عليَّ وقال:

- نعم...نعم استمر يا قورقود، استمر.

(عندما سلط بايندر خان نظره إلي، هذا يعني بالتأكيد أن الموضوع جذبه وأنه يركز بشدة في الحديث. فلا يستطيع أمر آخر أن يشتت انتباهه عن هذا الحوار. قليلاً ما يسلط بايندر خان نظره إليَّ هكذا. وأنا فكرت في هذا كثيرًا).

واصلت الحديث:

- هذا الأمر أمر طويل وعميق، يا سيدي الملك. الغرض، الموضوع طويل. . وفيه أسرار كثيرة.

قال بايندر خان:

- ماذا حدث يا قازان يا بني، هل انطبقت الأرض أم اجتاحت السيول أراضي الأوغوز، أم طاشت الجبال؟ ما الأمر يا قورقود، أم أنت على عجلة من أمرك؟ أليس لدينا شغل آخر

غير هذا الموضوع. وعندنا وقت كاف كما تريد، أليس كذلك، يا قيلباش؟ أنت تقول إن الموضوع فيه أسرار كثيرة، قل هذه الأسرار سرًا سرًا، وأظهرها. لدينا متسع من الوقت. أنا سمعت إن الوغد ابن الوغد "شير شمس الدين" قدم. هو أبله لا يميز الصواب من الخطأ، هل أنت استدعيته حتى يأتي؟ لا. لا يوجد مشكلة. هل تعرف يا قورقود أن هيبة الأوغوز ضاعت، أضاعوا هيبتها. من يريد عمل أي شيء، يعمله. شير شمس الدين حدثته نفسه أن يأتي إلى عتبة الملك وقت الظهيرة، فجاء. غدا إذا لم يرد المجيء، فلا يأتي هذا غير ممكن، لا يمكن أن يحدث مثل هذا. كل من يريد عمل أي شيء في الوقت الذي يريده يعمله، هذا الأمر مرفوض.

طأطأت راسي.

وقال بايندر خان أيضًا:

- أنت ليس لك دخل يا قورقود. لماذا طأطأتَ رأسك للأرض. ليس لك دخل. هذا أمر آخر. ماذا كنت أقول أنا الآن؟ نعم، أقول، ليس لدينا أمر عاجل وابدأ أنت الموضوع من جذوره، من البداية. قلتُ لك، قل الأسرار سرًا سرًا. اكشف الأمر. أظهره تمامًا. ابدأ من قلب الحدث، من البداية. لأرى، ماذا تعرف، وما الذي لا تعرفه.

قطع بايندر خان كلامه. كنت أنتظر، حيث شعرتُ أنه يريد أن يقول شيئًا آخر. فقال:

- تعرف، يا قورقود - يا بني، سيأتي يوم، وستحتاج أنت كل هذه الأمور والموضوعات والأحداث، ستلزمك انتبه لذلك. انتبه

لذلك، ولكن يجب عليك أن تكون منصفًا، وأنت تعرف أن الإنصاف ليس بالأمر الهين. أما الآن...أستمع إليك الآن؟ ما هذا الفرق؟ أنت قلت هناك فرق بين أوغوز الداخل وأوغوز الخارج. أنا لم أقل، ألم يقل هذا، يا قيلباش؟

قال قيلباش:

- قال، يا سيدي الملك، قال بنفسه.

فقال الملك:

- دعه، فليرد هو بنفسه.

خيم صمت على المكان. لم يخرق أحد هذا الصمت. "من أين أبدأ يا إلهي؟ هل أقول كل شيء؟ فلو غضب الملك على الأوغوز فما العمل إذًا؟... ولو أرسل الملكُ قيلباشَ مع جنود العقاب فما العمل؟.... ولو عاقب الملك سادة أوغوز الداخل واحدًا واحدًا... ولو اجتمع السادة وأرادوا الانتقام مني؟ يا إلهي، يا قادر، أطلبُ العون منك أنت. ولكنْ لهذه القضية وجه آخر. لو أخفيته شيئًا ولم أصرح به، ولو عرف بايندر خان ما لم أقله، فما العمل إذًا؟ ألم يقل الملك: "أريد أن أعرف، ماذا تعرفه وما الذي لا تعرفه "، لقد قال بايندر خان هذا، ماذا نفعل؟ ما الحل؟! لو قلتُ كل ما أعرفه كما هو يكون حسنًا. يا الله، يا قادر، أهمني أنت الصواب. التجأت في ظلك، أيها الحجر "نور". اعف عن ذنبي يا الله يا عظيم".

فبدأت الكلام. "إن كان غدو الحصان كالرياح، فلسان البليغ أسرع". ولكن ليس كل لسان بليغ. أما أنا بفضل الله بليغ. أحيانًا يُخيل إلي أنني أستطيع أن أحدث عن أخبار غيبية. ماذا سيحدث وكيف يحدث؟ لا يعرف هذا أحد. ولكني أعرفه.

بدأتُ الحديث، ويا لها من بداية. استمر حديثي ثلاثة أيام بلياليها. ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ كاملة. و"بايندر خان"لم يتكلم بكلمة واحدة. لم يقطع كلامي حتى ولو لمرة واحدة.

كان الطعام يأتي من حين لآخر. فنأكل بدون كلام، ثم أواصل الحديث. وذات مرة أخذت بايندر خان سنة من النوم. أما أنا وقيلباش فجالت أعيننا في الحجرة، وأرهقنا جدًا ونحن في حجرة الملك. وقبل أن يستيقظ بايندر خان ببرة غمزني قيلباش وأشار لي "قم" فعندما طردت الإرهاق من عيني واستعددت لمواصلة الكلام، نظرت فرأيت بايندر خان قد فتح عينيه. ودون أن يتحدث سلط وجهه في وجهي وعينه في عيني، وأعطاني إشارة تعني "استمر". فواصلت الحديث ومضت ثلاثة أيام وثلاث ليال. وطيلة هذه المدة لم يتذكر الملك حتى ولو لمرة واحدة " قازان" الذي يتكبد عناء الانتظار في حديقة الملك، وكذلك لم يتذكر "شير شمس الدين"، و"أروز قوجا" أو أي أحد ممن ينتظرون الدور للمثول أمام حضرة الملك. لم يتذكر أحدًا مطلقًا. ثلاثة أيام وثلاث ليال. أنا "قورقود" تحدثت واستمع لكلامي ملك الملوك بايندر خان، وانتبه إليه. ماذا قلت؟ ولماذا؟ وربما كان يجب عليَّ ألاَّ أحدث بايندر خان بكل هذا؟ ولكن لا أعرف سبب هذا. الشيء الوحيد الذي أعرفه أن الله القدير قد ألهمني، كلما تحدثت شعرت بالارتياح وكلما شعرت بالارتياح، صفت نفسي، أخيرًا وبعد ثلاثة أيام بلياليها، أخذت نفسًا عميقًا وكدت أفقد الوعي وأنهيت كلامي.

أما عن ما قلته، فقد بدأتُ أنا قورقود الحديث كالآتي:

– أيها الملك المعظم ! أنت ملاذ أوغوز الداخل، وعون المحتاجين. تدعو الأوغوز لك كثيرًا وتحلف باسمك فلديك الجبال الشوامخ والأنهار الجارية والجيوش العظيمة. وعندك العبيد والخدم، ولكنك لا تعلم أن.....

هناك ما يشبه البقع في هذا الموضع من المخطوط كما أسلفت الذكر. ليست مقطوعة، ولكن باقي الكتابـــة لا تقـــرأ جـــراء تـــأثير خارجي. إنـــي أعتقـــد أن هـــذا الموضوع الذي تناول قورقود فيه الحديث علـــى مـــدار صـــفحتين أو ثلاث، أصبح مجهولا لنا للأبد. وإنني لا أظـــن أن هـــذا الجـــزء الشيق الناقص من المخطوط وقع بفعل فاعل متعمد، ولا أعتقدُ أنـــه حدث هذا بالمخطوط عن عمـــد. وربما الأمر غير ذلك. ولكن ربما الذي حدث هو القدر. لا أقصد هنا قـــدر الأوغـــوز. أقـــصد قـــدر المخطوط المبتور.

يجب أن يُقَبل النص التالي على أنه استمرار للنص النـــاقص لـــ "ده ده قورقود"، وعلـــى أنـــه جزء مما قاله لـــ بايندر خان".

***

...أرسل السادة لي رجلاً مرة أخرى. وطلبوا مني أن آتـــي، وأضـــع اسمًا لهذا الفتى. فأتيت وسألتهُم:

– تقولون: إنه أظهر شجاعة؟ وأطاح برءوس العدو.

فأجاب السادة قائلين:

– نعم، أظهر شجاعة وأطاح برءوس العدو. وأنقــذ التجـــار مـــن هجوم العدو.

فسألتهم:

– تقولون إن هذا الفتى يتسم بالشجاعة والبطولة؟

فقال:

– شجاع وبطل، انظر أيضًا يا "ده ده"، كم هو صبور. اختـــر لـــه اسمًا.

استدرتُ نحو "بايبور" بك وسألته:

– بايبور بك، بماذا تنادي على ابنك حتى اليوم؟

أجاب بايندر خان:

– أناديه بـــ "باسام"، أو "بامسي".

فقلت:

– إذا اجعل اسمه "بامسي بيرك".

كان الفتى جالسًا أمامي. ووجه مضيء. إلا أن بعينه حزنا عميقا. فجأة دبت في قلبي أمور مرعبة. فنظرتُ للفتى بشك. ولم أشعر تجاهه بالـــشفقة،

وفكرت: "لن يكون هذا كما أتوقع. فأمره به ريبة. يعلم الله الحقيقة. ليس لي دخل. أصلح الله عمره". ولكن ساورني الريب.

سيدي الملك. بعد أن انتهيتُ من التسمية وبعد أن سميته باسم "بيـــرك" فرح "بايبور" بك والسادة فرحًا شديدًا. وأقاموا الاحتفالات. وأقام بايبور وليمة كبيرة في منزله. وأثناء الطعام والشراب، ألقي في روعي شيء ما يا سيدي الملك. فنهضتُ وخرجتُ من الخيمة. كانت الليلة مقمرة. والجو نقي. وكانت الرياح الباردة تهب من جبل "قاضليق" الواقع في الناحية المقابلـــة. ومـــلأتُ صدري بهواء الجبل النقي. وكأن "بيرك" (*) كان يتعقبني. خرج، لا أعــرف من أين ولكنه فجأة ظهر بجانبي، وقال:

- هل تأمر بشيء يا "ده ده"، أنا رهن إشارتك.

كان في غاية الأدب. أما أنا عندما أنظر إليه ينتابني الشك. ويدب في قلبي ريب. كان في وجه الفتى وعينه بريق غريب. تسرب إلى أذني همس. كان هذا الهمس إما نازلاً من السماء أو طالعًا من الأرض، كان يقول لي بلا توقف: "سيجلب هذا الفتى المصائب على الأوغوز".

وقف (بيرك) أمامي، ونظر لي نظرة بعينه البراقة. وكأن فـــي هـــذه النظرة بركانا يغلي...كان يرمقني خلـــسة وينـــصت لمـــا أقولـــه بـــشغف، فسألته قائلاً:

- ألم تخف مطلقا يا بيرك، يا ابني، وأنت تنقذ التجار من العـــدو الغاشم.

(*) بيرك: تعني في اللغة التركية "شجاعة أو بطولة" أي أن اسم هذا الفتى "بامـــسي البطـــل أو الـــشجاع". (المترجم).

أجاب بيرك بحرارة شديدة:

- لماذا الخوف يا "ده ده"؟ لم أخف مطلقًا.

- فكيف هزمت العدو؟ كم كانوا كُثرا وأنت بمفردك...

- سأقول لك، يا "ده ده"- أنت وحدك- ماذا حدث. هذا الذي يسمونه عدوًا، كانوا أصدقائي ومعارفي. في البداية أرسلتُ لهم فقاموا بإحداث جلبة وتخويف التجار.

لم يكن لاستغرابي وحيرتي حد فقلتُ:

- كيف فعلت هذا؟ ألم تطح برءوس العدو؟

- أطحت بها. يا "ده ده"، أطحت بها. هل يمكن ألا أكون قد فعلت ذلك؟ أطحتُ برأس رجل منا...طيرتُ رأسه. كان شخص يطلق عليه "ابن الكذاب"...لقد خانني فاستولى على بضاعة أحد التجار، وأخفاها مني في سرج الحصان.

فسألته:

- هل تقصد "يالينتشيق" ابن الكذاب؟

- فقال بيرك :

- لا، يا "ده ده"، ليس " يالينتشيق". له أخ توءم يسمى "بالنجيق". . هذا هو الذي طيرت رأسه.

تجمد الدم في عروقي يا سيدي. وسألته بغضب:

- هل يعرف أحد هذا؟ أبوك، أو أي أحد من سادة أوغوز الداخل؟

- لا، لا يعرف هذا الكلام أحد سوى مساعدي. أثق فيه تماماً. وأنت الوحيد الذي يعرف هذا ، يا "ده ده ". لقد تعجبتُ، يا سيدي الملك. أبهذه الطريقة اكتسب هذا الوغد ابن الوغد هذه الشهرة؟

فسألته:

- لماذا إذاً أفشيت لي هذا السر؟

فقال:

- لا أعرف، يا قورقود....

يصعب هنا أيضًا قراءة المخطوط إلا أنه لا أهمية عندي لقراءة هذا الجزء المَعيب أو عدم قراءته. لأنه يُفهم أمران من النص بوضوح، الأمر الأول عبارة عن إفشاء بيرك هذا السرَّ لـ"قورقود" ظنا منه أن قورقود لن يُحدث به أحدًا. أو بمعنى أصح لأنه يثِق في قورقود. وأن "ده ده" لن يحدثُ به أحدًا. إذًا هناك وظيفة أخرى لـ "ده ده قورقود" أمام أعيننا "لم تقرأ" حتى الآن في نص سيرة "كتاب ده ده قورقود" الذي نعرفها. وهذه الوظيفة هي أن الجميع يأتون ويبوحون بأسرارهم

لـــ "ده ده قورقـــود" أي أن "ده ده قورقود" كاتم الأسرار. كل فـــرد من أفراد الأوغوز واثق أن السرَّ الذي يفشيه لـــ "ده ده" بمثابة أمانة عنده يحـــتفظ بهـــا. وأن "ده ده" سيحفظ هذا السرَّ أكثر من الجميع، وأنه لن يعرف أحد بهذا الـــسر. ونـحن نعرف أن هنـــاك اعتقـــادا قديما لدى الطوائف القديمة وهـــو أنك لو لم تقل سرك لأحد وكتمته في نفسك، فسيتعقبك الجن والشياطين خطوة خطوة وســـينتقمون منـــك حتمًا حسبما ارتكبته. ولكن الراحة والحل هو أن تقول سرك لـــ "ده ده قورقود"، ليبقى لديه السر، و"ده ده" نفسه يعرف جيدًا كيف يـــرد على الجن والشياطين. ويتضح من هذا كم أن الأوغوز، كان يـــسعى لتجنب الأســـرار أي مـــن كـــتم الأسرار. وبهذا المعنى نجـــد أن قيمة ده ده قورقود العالية تتبـــين من خلال كَـــمِّ الأســـرار التـــي يعرفها. وفي اعتقادي هـــذا هـــو السبب الأول.

أما السبب الثاني، فهو خفي بعض الشيء. ففي اعتقادي أن بيرك أراد كما يقولون ضرب عصفورين بحجر واحد. أو بمعنى آخر، أراد أن يحل أمرين في آن واحد. فأراد أن يفشي السر – أي يريح قلبه حسب اعتقادهم – وأراد أيضًا أن يجعل "ده ده" حليفًا له، فهو يحتاج شخصية لها احترامها في الأوغوز، ولها كلمتها المسموعة ولها قدسيتها مثل شخصية "ده ده قورقود"، وذلك حتى يكون له حليف لخططه المستقبلية التي تدور في عقله.

ونجد أن الواقع يثبت على الأقل أحد هذين الافتراضين، وربما يكون الافتراض الأول أكثر. فسوف يشير "ده ده قورقود" بنفسه الآن إلى حمله الثقيل وهو أنه تحول إلى كاتم للأسرار شاء ذلك أم أبى.

قال بيرك:

– ...لقد أفشيتُ لك سري. وعليك المحافظة عليه.

ثم صمت

ماذا يجب عليَّ قوله؟! أيها الملك. لقد تعجبت جدًا. الوغد ابن الوغد يربطني في سره. ففرض عليَّ شئتُ أم أبيت حفظ هذا السر. هذا ظلم والله ظلم، يا سيدي الملك. أن يتحمل المرء مسئولية السر بهذه الطريقة فهذا أظلم الظلم.

(ولكن يجب علي أن أعترف أنه ليس كل رجل في الأوغوز يمكن أن يكون مالك أسرار. وهذا ظلم على ظلم. ولكن كل من له احترام وعزة يسلك هذا الطريق. لم يبق أحد لم يقل لي سره. الجميع؛ الغاضبون من الدنيا والقتلة والمقتولون والأمهات اللاتى تعرفن أبناءهن من أي رجل، والآباء الذين يشتكون من زوجاتهم...ومن أيضًا؟ غير هؤلاء، الحموات الغاضبات من زوجات أبنائهن والرجل الغاضب من زوج ابنته...كل أسرار الأوغوز عندي. وأنا أفشي كل هذه الأسرار للحجر "تور" وأحمله هذه الأمانة. لا أعرف ماذا كنتُ أعمل لو لم يوجد الحجر "تور"...).

***

...عدتُ إلى الخيمة بعد هذا الحديث مع بيرك. ووجدت السادة قد سكروا تمامًا، فلا أحد يسمع ما يقوله الآخر. فغصت في الخيال واستغرقت في التفكير في "بيرك"، وحدثتني نفسي بما يلي: (يجب علي أن أسأل الحجر "نور" عن مستقبل هذا الفتى...لم يتحدث أحد معي بهذه الطريقة حتى الآن، مستقبل بيرك بالنسبة لي غيب لا أعرفه. يجب عليَّ أن أسأل الحجر "نور"). ألحت على خاطري هذه الكلمات عدة مرات. لاحظ السادة شرود ذهني، فلم أغب عن نظر "بايبور بك"فسألني:

- لماذا لم تذق الخمر مطلقًا يا "ده ده قورقود"؟! ألم تعجبك؟ قل لي ماذا تريد، ليحضروه بك. أنت تعلم أن اليوم يوم سعيد بالنسبة لي. أنت سمّيتَ ابني، باسم جميل. وأيضًا أردتُ أن يقضي السادة يومًا جميلاً. هيا أيها الخدم، أحضروا أفضل الشراب لـ "قورقود". لو يريد الشرب فليشرب، وإن لم يرد...

أصر "بايبور بك" على كلامه، وصمت. لم أكن في حالتي المعتادة. كنتُ لا أستطيع أن أكتم ما سمعته من بيرك. والآن هم يجبرونني على الشرب وأنا لا أستطيع أن أقترب من الحجر"نور" وأنا شارب للخمر. ولو كتمت الأمر، فلن يكون الأمر خيرا.

نهضت وقلت دون انتظار الرد:

- الطريق طويل. والدنيا ليل، ائذنوا لي أيها السادة. كلوا واشربوا، واهنئوا أنتم، أما أنا فأريد الذهاب، يا "بايبور بك" ليسعد ابنك ونأتي في الأفراح. وليجعل بيتكم أفراحًا دائمة. أشكركم.

طلب "بايبور بك" مني أن أبقى. وكذلك السادة ولكن قلـــتُ، "لا ، لا". الوحيد الذي وقف صامتا هو بيرك ونظر إليَّ نظرات فاترة. فلم أنتظر كثيرًا وخرجتُ من الخيمة. وركبتُ الحــصان، ومــضيتُ وأســرعتُ بالحــصان لا ألتفت خلفي.

***

لا أعرف كيف وصلتُ إلى المغارة تلك الليلة وإلى الحجر "نور". كانت النجوم في تلك الليلة مصطفة في ركن السماء بشكل أنيق. وكان الحجر "نور" وسط النور. فضممتُ الحجر "نور" إلى صدري وسألته:

- أيها الحجر "نور"، لقد زادت اليوم أسراري سرًّا جديدًا، هل تسمعني؟

كان يجب أن تأتي إشارة من الحجر "نور" بدلاً من الرد، ولكن خيم الصمت على جميع الأرجاء. كاد الصمت يخرق الأذن. فكررتُ عليه السؤال ثانية:

- أيها الحجر نور، يا أجمل الأحجار وأعقلها. أأنت نائم؟ أم مستيقظ. قل لي، لقد أفشوا لي اليوم سرًّا جديدًا اليوم، هل أفشيه لك ، أم أحتفظ به في قلبي حتى الموت؟

لازال الصمت يخيم على المكان. ففكرتُ: "أليس الصمت ذاته إشارة؟ بالتأكيد إشارة. إشارة إليَّ لكي أبدأ الكلام وأقول السر للحجر "نور".

فقلتُ السر للحجر "نور" كما هو بالضبط، فاستمع إلي الحجرُ "نور" وأنصت، وبينما أنا أتحدث، لا أعرف كيف غرقتُ في النوم، ورأيت في المنام أن...

لقد بيّن لي الحلم كل شيء. من أنا حتى أرى حلمًا وأرى في تلك الحلم مستقبل بيرك؟!. لقد أخبرني الحجر "نور" بكل شيء في المنام. في البداية انتابني النوم. وظهر ضباب أو دخان من الحجر، وبدأ شيء يشبه الستارة البيضاء يغطي المكان رويدًا رويدًا، وأخذني هذا الضباب داخله. والحجر

"نور" هو الذي جعلني أغط في النوم. وهو الذي جعلني أرى أحداث بيـرك عيانا بيانا؛ فللحجر "نور" حكم كبيرة، يا سيدي الملك، وله علـم بالأحـداث الغيبية كهذه، فللحجر "نور" حكم كثيرة، وأنا بدونه مجـرد "قورقـود". مـن جعلني "ده ده قورقود" وجعل لي مكانة في الأوغوز، هو الحجر "نور". هـذا ما رأيتُ في المنام يا سيدي الملك، ورأيت أن....

***

...استيقظ الشاه(*) اليوم مبكرًا على غير العادة. في البداية أخذ يتقلب في مكانه كثيرًا. وقد أغمض عينيه ولكن ليس تماما عندما سقط عليهما ضوء الشمس وقد اخترق الستارة الحريرية المذهبة، ودخل من النافذة. واستمر في التقلب يمنة ويسرة في مكانه. كان الوزير ينتظر في الحجرة الخارجية المجاورة للديوان. كان على السفراء أن يأتوا اليوم بحرًا من إحدى المدن البعيدة. كيف سيصلون؟ الله أعلم! فالطرق طويلة ومخيفة. بعد قليل قدم "رئيس الحرس" إلى الديوان. وتبادل هو والوزير النظرات. وصمتا طويلاً. ثم قال الوزير بعدم اكتراث:

- لا زال "قبلة العالم"(**) يستريح حتى الآن.

- أوشك السفراء على الوصول من هذه الناحية...

قطع رئيس الحرس كلامه، فقال الوزير

- كيف من هذه الناحية؟

- لقد أمر "لا لا" أمرًا وكان على عجالة من أمره...

- إن أمر "لا لا" بأمر، فعليك تنفيذه. هل لديك اعتراض؟!

- الله أكبر، أنا لا أعترض، أيها الوزير، لماذا تغضب؟

صمت رئيس الحرس، ولم يتكلم بكلمة أخرى.

(*) نلاحظ أن الكاتب الآن انتقل في حديثه إلى "الشاه إسماعيل الصفوي"، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في المقدمة، وأن المخطوط بداخله أحداث ثانوية ليس لها علاقة ببعضها البعض فيتحدث عن أحداث أخرى ليس لها علاقة بالأحداث السابقة المتعلقة بـ "ده ده قورقود"، داخل حديثه الأساسي، ثم بعد ذلك يعود مرة أخرى لأحداث وملاحظات "ده ده قورقود". (المترجم).

(**) يقصد الشاه إسماعيل الصفوي، كما كان يلقب في بعض كتب التاريخ، (المترجم).

...خرج أولاً رئيس الخدم "صافي يار" من الحجرة. وهـذا يعنـي أن الشاه سيخرج الآن هو الآخر من حجرته إلى الديوان. ولكن هذه المـرة لـم يحدث هذا. تأخر مجيء الشاه. اقترب رئيس الخدم "صافي يار" من الـوزير وهمس له بشيء. نهض الوزير دون أن يتكلم وخرج مـن الـديوان. أومـأ رئيس الحرس، لـ "صافي يار" أن يأتي بجواره، فأتى.

فسأله رئيس الحرس قائلاً:

- أين ذهب الوزير أيها الولد، ماذا قلتَ له؟

تلفت رئيس الخدم يمينًا ويسرًا وقال بهدوء:

- قلتُ له، إن الشاه أمر أن ينتظر الوزيرُ السفراء. ويهـتم بهـم. وأن قبلة العالم سيتأخر. وسأل عنك أيضًا. فقلـتُ إنـك هنـا، تحت الأمر.

- أقلت هذا؟ حسنًا قلت. كيف حال "قبلـة العـالم". إن شـاء الله يكون بخير؟

- بخير. الحمد لله. بخير، فداه نفسي، لماذا....

- خرج "صافي يار" ومر بجوار رئيس الحرس وهو يقول:

- الشكر لله، الشكر لله، اذهب، وانشغل بأمرك...

دخل "حسين بك لا لا" إلى الديوان. فانتصب رئيس الحـرس قائمًـا. فطأطأ "لالا" رأسه لأسفل ومر ناحية العرش اليمني وجلس علـى الأرض. وأحنى رأسه على صدره مرة أخرى. وكان مشغولاً بتحريك المسبحة التـي

في يده. قدم رئيس الحرس بجوار لالا" ووقف أمام النافذة تمامًا. فقال لالا" له بهدوء دون أن ينظر إليه.

- تنح جانبًا، تنح جانبًا، بالله عليك! لا تقطع نور الله.

- بالله عليك، يا "لالا"، فداك نفسي، حل لي مسألتي اليوم.

- حسنًا، ألم أقل لك "أصبر قليلاً، أم لم أقل لك؟ الآن وقت مجيء الشاه". بالله عليك امض الآن إلى حال سبيلك، فيما بعد، فيما بعد، لقد وعدتك.

ظهر مرة أخرى رئيس الخدم "صافي يار" عند باب الديوان. ودخل بسرعة، وتفقد ما حوله. وتجمد مكانه وانحنى ناحية الباب.

حضر الشاه إلى الديوان. دخل الوزير والأعيان من الناحية الأخرى منحني الرءوس. انحنى رئيس الحرس ووجهه على الأرض. واقترب "لالا" ناحية الشاه. وعظمه بكل حب واحترام. فتوجه الشاه نحو "لالا" قائلاً:

- هل جئتَ يا "لالا"؟

تقدم الوزير من بين الأعيان المصطفين في الخلف واقترب من الشاه هامسًا:

- السفراء رهن إشارتك...

- حسنا، أعرف، أعرف. نؤجل حديثنا فيما بعد يا "لا لا". لألتقي مع هؤلاء السفراء. ولكن قل لي، هل حللت الأمر أم لا؟

- حللتُه، يا سيدي، حللتُه. فداك نفسي حللتُه كما أردتَ.

ربت الشاه برضا على كتف "لالا" قائلاً:

- حسناً، ممتاز. انهض، انهض الآن اذهب للحديقة. انتظرني هناك. انتهى مع السفراء وآتي. تعال هنا. هل هو أيضًا هنا؟ تنحى الشاه جانبًا وقال السؤال الأخير لـ "لالا" بهدوء حتى لا يسمعه غيره. فأجاب "لالا" هو الآخر بشكل لا يسمعه أيضًا أحد إلا الشاه:

- هنا، فداك نفسي.

- كيف هو، أعني مظهره الخارجي، إن به شبهًا بي، أليس كذلك؟

- تمامًا. الشبه واحد. فداك نفسي. لو غطى وجه، لن يستطيع أحد أن يميزه....

- حسناً. افعل كما قلت لك، انتظر في الحديقة، أنتهي مع السفراء، وبعد ذلك...ألا تشارك في اللقاء مع السفراء؟

- لا أعرف، لم يدعني أحد.

نادى الشاه على الوزير. كان الوزير خلف الشاه ينتظر أمره فقال:

- نعم، أيها الملك المعظم.

ولكن الشاه تذكر أمرًا ما، فلم يكمل كلامه. وخيم الصمت. ثم قطع الشاه هذا الصمت وقال لـ "لالا":

- حسناً يا "لالا". اشتغل أنت بهذا الأمر حتى النهاية، فهذا أمر ضروري أيضًا. وأنا أيضًا أنهي لقائي مع السفراء. وفي المساء نفكر سويًا أثناء العشاء.

قال الشاه هذا، ولم ينتظر، استدار وخرج من الديوان. وخـــرج وراءه الوزير ورئيس الحراس والأعيان الآخرون. جال "لالا" قليلاً فـــي الـــديوان وهو غارق في التفكير. وفي النهاية خرج هو الآخر وخلا الديوان.

هكذا يبدأ المخطوط المبتور بالجزء الثانـي منه الموازي للأول بحكايات متعلقة بالشاه إســماعيل. وينقطع المخطوط هنا كما أن نص المخطوط انتقل قبل قليــل إلـــى عصر آخر وأحداث أخرى لـــيس لها علاقة بما سبق، يعــود مـــرة أخرى نص المخطوط إلى ســابق حديثه وواصــل الحــديث عـــن "ده ده قورقود". وأنـــتم أنفـــسكم ستشهدون ذلك.

***

...رأيتُ في المنام يا سيدي الملك، أن مكانًا يشبه المغارة. ولكن كان هناك رجل يغطي الشعر عينه ووجهه جالسًا في هذه المغارة. دققت النظر قليلاً فوجدته يشبه "بيرك". كان يشبهه تمامًا يا سيدي الملك. كان بيرك هذا جالسًا. في الناحية العليا من المغارة. وقد صُفت أمامه ورُتبت جميع أنواع الطعام والشراب والخبز وحتى الخمر وكان حوله حوالي ثلاث أو أربع فتيات. يجلسن بنظام. وكانت هناك فتاة غاية في الجمال تجلس ملاصقة لـ "بيرك". كانت إحدى الفتيات تعزف على الربابة، ونهضت فتاة أخرى وأخذت بيده وبدأت في الرقص. فاحتضن بيرك الجميلة التي بجواره. واحتضنته هي الأخرى. ثم قالت له الفتاة:

- ما المشكلة لو تغنى لنا مقطوعة أخرى، أيها الفتى الهُمام؟ نحن كنا نسمع صوتك. وأنت أيضا كنت تُصغي لنا. ارفع يدك، وارقص وغن. هل أعجبتك الفتيات؟

أجابها بيرك:

- لقد أعجبتُ بك أنت أكثر من الجميع، وأحببتك.

- حقا، ما الذي وجدته فيَّ؟ هل الفتيات الحسناوات في بلادكم قليلات؟ لقد سمعت أن الفتيات الحسناوات كثيرات عندكم. وعندكم أيضًا فتيات تركب الخيول مع الفتيان وتمسك بالسيوف. ماذا حدث لهن؟ قل لي، لا تخبئ وجهك عني. لا تخف وجهك عني.

نعم؛ يا سيدي الملك، لقد تعرفتُ على الكثير والكثير. كان هناك قلعة لـ "بالبورد".. ظل "بيرك" حبيسا في هذه القلعة. كنا نظن أنه ظل ستة عشر عامًا داخل العذاب وأن عينيه قد عميتا من البكاء بسبب بعده عن بيته وقومه

والأوغوز. ولكن هذا غير صحيح يا سيدي. لقد رأيتُ بيرك – أعني الرجل المغطى الوجه بالشعر – يرتع ويلعب.

أما هو فقد أجاب الفتاة :

– هل يمكن أن يكون ما تقولينه صحيحًا؟ هل تصل واحدة منهن إلى جمالك؟ لقد أحببتك حبًا جمًا.

لم تدع بنت الكافر "بيرك" وأدارت بوجهه نحوها وسألته:

– كيف حال خطيبتك، "بانوتشيشك"، أنسيتها؟

– لم أحبها مثلك. خطبها لي والدي قبل أن أولد، وجعلها خطيبتي في المهد. فلم أعص والدي. ولكن لا يوجد غيرك الآن أحبه، أنت فقط التي أحببتها بقلبي وعيني. نسيتُ الجميع ولكني لن أستطيع نسيانك مطلقًا. قولي لوالدك، أن يشقني نصفين، حينئذ سأنساك.

فقالت له تلك الفتاة التي وجهها كالقمر:

– آه يا حبيبي، يا روحي. يا بيرك. يا بيرك يا حبيبي. لقد أحببتك. لا أرى أحدًا غيرك أنت. يحبك قلبي وعيني. سأخبر أمي وأبي. فلن أستطيع أن أتحمل بعد ذلك. لن أكون لأحد غيرك أنت، أنت فقط.

فكرتُ، ربما الذي رأيتُه في المنام ليس "بيرك". مستحيل. لقد دار هذا في بالي أيضًا وأنا نائم. وفكرتُ ربما يكون هذا كابوسًا.

لقد تعانق الاثنان، يا سيدي الملك، وتبادلا القبلات الحارة، وغابا عن الوعي. فلم تتوقف الفتيات عن اللهو، وأخذن في اللهو، ونثرن عليهما كوبًا من الماء، فأفاقا وتعانقا ثانية. فأخذت الفتيات يتفرجن عليهما هذه المرة وهن يتأوهن. لقد مرت فترة على هذا الحال. وفجأة دخل أحد الحراس مسرعًا قائلاً:

– تعالوا بسرعة. أبوك بايبورد قادم. بايبور بنفسه.

سيدي الملك أنا واثق تمامًا أن هذا هو "بايبورد" والذي رأيته هو "بيرك". وأن هذه الفتاة هي إحدى بنات "بايبورد" الحسناوات.

***

بعد ذلك يا سيدي الملك، نقلني المنام إلى مكان آخر. أغمضتُ عيني وأخذت أشاهد بعيني البلاء الذي قلب "الأوغوز" رأسًا على عقب في تلك الآونة. رأيتُ "تك جوز". كان ظمآنا قد تشققت شفتاه. رأيتُ يا سيدي الملك أن جيش "تك جوز" قد حاصر الأوغوز، فلا يسمح لهم بالبقاء ولا بالرحيل. ورأيتُ الأسرى الذين وقعوا في يد هذا الجيش الغاشم واحدًا، واحدًا. ورأيتُ شباب الأوغوز والأسرى والعبيد والجواري الذين يُقدمون فداء لـ "تلك جوز". ورأيت مجلس شورى السادة الذي عُقد في بيت "أروز قوجا". كان "أروز قوجا"، يقول غاضبًا:

- أين الفتيان الشجعان؟ أين سند الأوغوز " قازان"، أين ابنه "أوروز"؟ أين بيرك، و"قانتورني"، و"شير شمس الدين و"قارا بوراك"، وأين أبوه "قاراقونا"؟ هل الحرب مع "تلك جوز" صارت من نصيب "أوغوز الخارج" فقط، أيها السادة.

رأيتُ من السادة "دلي دوندار"، و"دلي قارجار"، و"أمان"، و"قيان سلجوف" وهم يتحدثون ويتبادلون الكلام. ولكن لم أعرف في أي شيء كانوا يتحدثون.

ثم رأيتُ شباب "أوغوز الخارج" الذين كانوا يمرون أمام الشيوخ الذين كانوا يستغيثون بهم طالبين ماء. كان يحمل هؤلاء لقتال "تلك الجوز" قيان سلجوق " الابن الأكبر لـ"أروز قوجا". كان أروز قوجا، يتفقد بعينه هذه المجموعة وكأنه يبحث عن أحدٍ، ولم يجده.

فسأل أحدًا يقف بجواره:

- لم أر "باصات". أين هو؟

فأجابه هذا الشخص:

- نبحث عنه منذ الصباح، يا سيدي، فلم نجده. ربما ذهب مرة أخرى إلى الغابة.

فاستشاط "أروز قوجا" غضبًا وقال:

- أوجدوه وأحضرُوه وقولوا له: أبوك يبحث عنك، لو أتى معك طوعًا، يكون خيرًا، وإن لم يأت، فليذهب إلى الجحيم.

تذكرتُ شيئًا، يا سيدي الملك. لقد رأيتُني في المنام. نعم، لقد كنتُ موجودا في المنام. أنا أيضًا كنتُ موجودًا هناك. أعني مجلس الشورى تلك. لقد أرسل "أروز قوجا" أثناء مجلس الشورى رجلاً يتعقب "باصات" وقد نظر إلى "أروز قوجا" وهز رأسه، كأنه يقول: "لقد وهبنا الله ولدًا، على نحو ما ترى". ولكن قال بلسانه: "همي كبير يا قورقود، يا قورقود...أنت ترى بنفسك. لقد وهبنا الله ولدا قويا من حيث البنية، ولكن من حيث العقل فهو أبله. ماذا نفعل، أقترح أن يأتي، ربما استطعنا إقناعه. لأن قلبي ينفطر عليه، سيأتي عليه اليوم ويكون هو الآخر من نصيب "تك جوز". لدى "قيان ستجوق" عقل وقلب كبيران ولكنه ضعيف البنية. لو كان عنده قوة "باصات"، يا قورقود، لتغير الأمر.

فسألته:

- ما رأي "باصات". هل يتهرب من هذه الحرب؟

فأجاب "أروز قوجا":

- لا أعرف، عندما أحدث "باصات" في هذا الأمر يقول لي: "أنا لا أريد إراقة الدماء" فأقول له إنه عدو، فيقول لي: "عدو، ما المشكلة إنه عدو، أنا لن أريق دمًا". يا قورقود همي كبير.

كأن "باصات" ليس ابني. عندما يأتي، تحدث معه أنت، لعلك تستطيع إقناعه؟!

فقلتُ:

- ليأت، لنرى. هل يمكن أن يحدث هذا أم لا؟ إنه شاب، لا يقتنع بسهولة، سنحاول إقناعه. هل هذا كلام معقول أن يقول: لا أحب إراقة الدماء...

- نعم يقول هكذا، إقناعه، يا قورقود. ابني "قيان سلجوق" هو عيناي التي أرى بهما، لقد أرسلته بنفسي إلى الموت. فهو لا يفقه في القتال شيئا، ولا يعد شيئا مقارنة بـ "تك جوز".

لقد قال "أروز قوجا" هذا الكلام وهو في شدة الحزن والكدر مطأطئ الرأس، وعيناه تفيضان بالدمع.

لا أعرف مر كثير أم قليل، المهم، أن الحرس أحضروا "باصات" إلى أبيه بالقوة إلى الحجرة التي كنا فيها. فدخل وألقى السلام، ثم نظر إلى الأرض. فأشار "أروز قوجا" للحرس أن يخرجوا. فسأله أبوه:

- أين كنت يا ولدي؟

فأجاب "باصات":

- كنت في الغابة في مكان ما، يا والدي.

فسألتُه أنا:

- كيف ذلك المكان، يا ابني "باصات"؟

فأجاب "باصات" دون أن يرفع رأسه:

- يوجد مكان صغير في الغابة، أكون وحيدًا في هذا المكان تحيط به الأشجار. نتجول بحرية تحت هذه الأشجار أنا والذئاب والوحوش والنمور والدببة. فهي تتودد إلي وأنا أتودد إليها أيضًا. مكاني في الغابة هو هذا المكان، بجانب الأسد "قوغان". هو يحبني جدًّا. أبي يعرف هذا المكان.

نظرتُ لـ "أروز قوجا" ونظر إليَّ وصمتنا نحن الثلاثة فترة. وقد تذكرتُ يا سيدي وأنا في المنام أنه قبل عدة سنوات كان"باصات" لا يزال شابًّا. وكان ذراعه كالشجرة وعنقه كشجر الصنوبر الطويل، وكان عريض المنكبين. ذهب في تلك الفترة إلى الغابة وضاع في ذلك المكان الذي أشار إليه الآن. لم يعرف أحد مكانه. فاغتم"أروز قوجا"غمًّا شديدًا وسالت دموع عينه. فاستدعاني إليه، فقدمت إليه وسألني:

- ساعدني يا قورقود، أريد أن أجد ابني. بالله عليك، ليأت إليك الإلهام وتخبرني أين ابني؟

جاء الإلهام إلى قلبي يا سيدي الملك. وأغمضتُ عينيَّ، وطار قلبي إلى الحجر "نور"، وطاف مرة، وعاد. دون أن أعرف كيف حدث هذا، فقلت: "ابنك في الغابة يا "أروز قوجا". يوجد في الغابة مكان معين بين الأشجار، وهناك أسد، اسمه "قوغا". ابنك بجوار عرينه موجود هناك".

ذهبوا إلى المكان الذي أخبرتهم به، فلم يكن الأسد "قوغا" في عرينه، ووجدوا الفتى، وأعادوه ثانية. فقلتُ للفتى:

- أيها الفتى، أنت إنسان، مكانك بجوار أبيك وأمك، في بيتك، لك مأوى آمن هو "الأوغوز"، لا تتجول في الغابة وسط الذئاب والطيور وعرين الأسود.

لم يؤثر كلامي هذا على "باصات" مطلقًا أيها الملك. وبعد ذلك سمعتُ أنه كان يهرب ويغيب عن الأعين ويذهب بعيدًا إلى عرين ذلك الأسد في الغابة، ولكن بسبب أنهم كانوا يعرفون مكانه كانوا يجدونه بسرعة ويُعيدونه كل مرة إلى والده. وأحيانا كان يعود بنفسه.

...لقد انخرط "أروز قوجا" في البكاء وقد شاركته النساء في العويل والنواح. وبالرغم من كل هذا تسمر "باصات" مكانه دون أن يتحرك كالحجر، كنت أنظر إلى جسم "باصات"، وأتخيل حربه مع "تك جوز" أمام عيني. وكنت أسأل الحجر "تور" وفي كل مرة كنتُ أرى أن النصر سيكون لـ "باصات". نعم، سيدي الملك. "باصات" هو "باصات"، وسترى ذلك بنفسك.

صمت بعد ذلك "أروز قوجا". وألقى نظرة عليَّ ولده، ونظر عليَّ بعينه، كأنه يتوسل إليَّ ويقول:، "تحدثْ أنت، ربما تستطيع أن تعيده إلى الصواب".

فبدأت كلامي قائلا:

- ألا ترى، ماذا حدث، يا "باصات" يا ابني. أخوك الأكبر "قيان سلجوق" ذهب للقتال "تك جوز". وأصبح الأوغوز في خطر. فما رأيك؟ ستظل هكذا تأكل وتنام يا "باصات"، أم ستأخذ السلاح بيدك وتمتطي الجواد الملكي وتذهب وتخلع العين الباقية لـ "تك جوز"؟ إنه عدو يا "باصات"، عدو للأوغوز، وعدو لأبيك. ويصبح الفتيان أبطالاً وهم يقاتلون الأعداء.

بعد أن صمت لفترة طويلة سألني "باصات":

- أقول لك يا سيدي، لقد تعجبتُ من السؤال، ولم أعرف بماذا أرد، ولكني استلهمتُ الرد من "الحجر نور":

- يطلق اسم "العدو" يا "باصات" على.... مــن إذا قــدرنا عليــه، قتلناه، وإذا قدر علينا قتلنا. العدو هو ذاك، يا "باصات".

- هل يليق بالعبد سفك دم العدو، يا قورقود؟

- يليق يا "باصات". العدو يستحق سفك دمه في الأصــل. انظــر أنت، عندما تتمكن من ذئب وحشي في الغابة، ماذا ستفعل؟

- أليس الذي تطلق عليه ذئب وحشي هذا كائن حي يعيش ويتنفس وهو من خلق الله؟ ليس لي بهم شأن، وليس لهم بي شأن. حتى الآن لم يصبني الأسد "قوغا" بأذى على الإطلاق، يحبني كثيرا، ويلعقني بلسانه.

- لو هناك أحد يريد أن يقتلك، ماذا ستفعل له؟

قال "باصات":

- لا أؤذي من...يريد أن يقتلني، إنني أعتقد أنه "لا يفهم".

لم يتحمل "أروز قوجا" السماع لهذا الحوار، فقاطع الكــلام قــائلا لـــ"باصات":

- لو هناك أحد سيسفح دم أخيك "قيان ســلجوق" ويقــضي علــى حياته؟ أكنت تعفو عنه؟

أجاب "باصات" هذه المرة ردًا شديدًا :

- لا...لا يمكن أن أعفو عنه. من الذي أذاه "قيان سلجوق" حتى يسعى لقتله؟!

- لم يتحمل "قيان"، يا "باصات" يا ابني. لم يتحمل "قيان" حال الأوغوز هذا، لم يتحمل أن تسبى النساء والبنات والأطفال والشيوخ، لم يتحمل أن يظل ينتظر جرعة ماء. ذهب "قيان" للقتال. ذهب لقتال "تلك جوز". أليس كذلك يا "قورقود"؟ تكلم أنت.

أحنيتُ رأسي وقلتُ "نعم، يا سيدي، نعم، ثم رفعتُ رأسي ونظرتُ، فرأيتُ أن هذه الكلمات التي قالها أبوه قد أثرت على "باصات". وقد تجمدت نظراته، فلم يجد كلامًا يمكن أن يرد به.

- ماذا تقول، يا "باصات"، الجميع يعرف هذا، وأنا أيضًا أعرف أنك أنت الوحيد الذي يستطيع أن يقضي على "تك جوز"، وهذا لا يقدر عليه "قيان سلجوق".

كاد "أروز قوجا" أن يتوسل وهو يسأله:

- ما رأيك يا بني؟

أخيرًا رد علينا "باصات" قائلا:

- لو مُست شعرة من "قيان"، فأنا موجود و"تك جوز" موجود هو الآخر.

لقد فهمنا أنا و"أروز قوجا"، يا سيدي، أن هذا قراره الأخير.

...سرعان ما ذاع الخبر. أن "قيان سلجوق" سقط أسيرًا في يـد "تـك جوز". وشقوا بطنه ولقي حتفه في ميدان المعركة. أخبر بهذا الجيش الـذي كان معه وقد تقهقر وفر هاربًا. لقد قالوا، شُقت بطنه، وقالوا أيضا أنه لقـي حتفه في المعركة. لقد انطبقت السماء والأرض علـى رأس "أروز قوجـا". وخر على الأرض وانهمر في البكاء والعويل والصراخ وصـاحت أيـضا النساء وأخذن كذلك في العويل. أما "باصات" فقد انتحي جانبًا ينظر. وفجـأة تغيرت عيناه واحمرت احمرارًا شديدًا. وتضخمت يداه وقفز قفزة مفاجئة في المكان الذي كان يقف فيه وطار في السماء، يا سيدي، لقد ظننت أن رأسـه سيلمس السماء. لقد قفز هذه القفزة من الإيوان ونزل على ظهر الفرس"تكيل" الموجود في الخارج. فأصدر الحصان صهيلاً كأنه كان ينتظر هـذا بفـارغ الصبر. وفي لمح البصر غاب الفارس والفرس عن الأنظار. ظللتُ أنا ووالده ننظر في ذهول إلى هذا الموقف.

***

...بعد ذلك رأيتُ في المنام "بكيل". أنت قد أرسلته إلى حدود "جورجيا" يا سيدي الملك. رأيتُ "بكيل" وكان هزيلاً. حكاية "بكيل" حكاية طويلة، لا أعرف هل لها دخل بموضوعنا أم لا، فهذا ما تعرفه أنت يا سيدي الملك. لقد حزن "بكيل" حزنًا شديدًا بسبب الشجار الذي دار بينه وبين "قازان"، ومن غضبه من قازان وغضب قازان منه. أما أنا فقد رأيت في المنام أن....

انقطع فجأة حلم قورقود في هذا الموضع ولو دققنا النظر في باقي النص، فسنجد أن هذا النقص في النص ليس له أهمية في إدراك المعنى العام للأحداث. وفي اعتقادي أن العجز عن قراءة جملة أو اثنتين لن يؤثر في فهم الأحداث المتعلقة بـ "بكيل".

...رأيتُ في المنام أنني ذهبتُ إلى حدود جورجيا، إلى المنطقة التي يوجد بها "بكيل"، وذهبت إلى باب منزله. فرأيتُ عند ذلك المنزل امرأة تجلس فوق حجر تبكي. هي زوجة "بكيل". تسمى "سورمالي جه تششمه" فسألتها في المنام:

- لماذا تبكين وتنتحبين أيها الأخت "تششمه"؟

رفعت "سور مالي جه تششمه" رأسها الحزين ونظرت إليَّ لحظة بعينها الشاخصتين. في البداية كانت لا ترى بعينيها، ثم بعد ذلك عرفتني، فقالت لي:

- هل أنت "ده ده"؟ أبكي من أجل ابني "عمران".

فسألتها:

- ماذا حدث لابنك؟

- لا تسألني، يا "ده ده"، قلبي حديث عهد بالمصيبة، كأني ملدوغة من ثعبان أصفر. لقد وقعت حادثة أمام عيني. ولكنك لا تعلم عنا شيئا. هل تعلم أن جيش "قارا تكور" من جورجيا هجم علينا. و"بكيل" زوجي مريض في الفراش. خرج إلى الصيد، فكسرت قدمه. فذهب ابني عمران بدلاً من أبيه لملاقاة "قارا تكور". كم توسلت إليه ألا يذهب، ولكنه لم يصغ لكلامي. بدأت الحرب ولكن ما أصغر سنه...انظر، انظر، إنني أراه، كاد أن يقع في الأسر لقد استل العدو الكافر- أطاح الله برأسه- السيف في الهواء وكان ابني متدلي الرأس فأرادوا قطع رأس ابني بهذا السيف، الأمر هكذا يا قورقود. ألا ترى هذا؟ يا "ده ده"؟ ساعدني، العون لي، فداك رأسي الأسود، ألا تساعدني؟ الذنب ذنبي، أنا المذنبة. أنا لا حيلة لي، أنا ضعيفة...آه...

كانت زوجة "بكيل" تنخرط في البكاء على هذا النحو، يا سيدي الملك، وقد سألتُها أيضًا: "أين "بكيل""؟

- أين سيكون؟ بكيل في المنزل. طريح الفراش، لقد قلتُ لك أن قدمه قد كُسرت أثناء الصيد. الله يُخرب بيت "قازان"، يا "ده ده". الله يُتعسه. كل المصائب التي حلت علينا هذه بسببه.

فتعجبتُ:

- فما دخل "قازان" في هذا الأمر؟

- أعد لي ابني يا "ده ده"، وسأحكي لك كل شيء. وإلا...سأدينكم جميعًا. أعد إلي ابني "عمران" يا "ده ده"، وإن لم تعده لي، فالمرأة بألف عدد، سأرفع يدي وأدعو الله عليكم. يريد "بكيل" الارتحال إلى بلد الأبغاز الدموية. ويريد بهذا الارتحال والابتعاد عن هنا، عن وطنه. والسبب في هذا هو "قازان". ألم تعلم هذا يا "ده ده"؟ ألم تكن في رحلة الصيد، يا قورقود؟ لقد استدعي "قازان" "بكيل" لرحلة صيد. ليته لم يدعه لهذا. ألم تر المشاجرة التي وقعت بين قازان، و"بكيل". أنت أهل العون، يا ده ده. ادع الله، ألا يتمكن الكافر من ابني، إنه يريد القضاء عليه، انظر أنت في الأمر.

بدأت، أنا، يا سيدي في مشاهدة هذا الحدث في المنام. رأيتُ "عمران" ابن "بكيل" جاثيا على ركبتيه أمام "قارا تكور". وقد تدلى الرأس على صدره، ورأيتُ "تكور" شاهرًا سيفه في الهواء. فأشفقتُ عليه ورق قلبي له، فتوجهتُ بقلبي، وبوجهي إلى الحجر "تور" وقلت: " أيها الحجر "تور"، يا أعقل الحجارة، يا أحب الحجارة، أوقف نية هذا الكافر، يريد القضاء على الفتى، فلا تدعه يفعل ذلك، أوقف الأمر".

وبمجرد أن قلتُ هذا، توقفت الأحداث في الحال. دارت عينا "قارا تكور" في ذهول، وشلت يده وقدمه. وظل السيف مشهرا فوق رأس الفتى ثابتا لا يتحرك. فتوجهتُ بوجهي نحو "سور مالي جه تششمه":

- لقد طلبت العون، انظري، لقد مد الله لك يد العون. انظري إلى الأحداث، ألا ترين، كل شيء تجمد. لم يتخل الله عنك ولا عن ابنك. قولي لي الآن، أين "بكيل"، وما حكاية هذا العدو، وما هذه الحرب؟ ولماذا تدعين على "قازان"؟ قولي بهدوء. ابنك في خطر.

في البداية دققت "سور مالي جه" النظر، وسلطت نظرها على الحدث، واستطاعت رؤية ما رأيته، فخرت على ركبتيها وشبكت يديها وقالت:

- لقد أرسلك الله لنا يا "ده ده"، ليهلك البيت الذي لا يصدقك. أسمعني، يا "ده ده"، الذنب عندي. أن الذي أفشيت أن قدمُ "بكيل" قد كسرت. لساني، وما أدراك ما لساني، لا يكف عن الثرثرة. لقد قلت للجارية. ليتني كنت أعرف! لقد قلت لها:

- وبالطبع قامت الجارية بدورها وأفشت الأمر.

- لم أعرف يا "ده ده"، لم أعرف، لمن قالت الجارية، والذي قالت له لمن نقل الخبر، وفي النهاية عرفه "قارا تكور". وقال: "لنذهب، ولننقض على منزل "بكيل" وعشيرته، وليذيع صيتنا في عنان السماء".

فسألتها:

- "بكيل" يرقد في الفراش، أليس كذلك؟

فقالت:

- يرقد "بكيل" في الفراش، يا "ده ده". وقال "ابني عمران سيواجه العدو بدلاً مني. هيا تعال ادخل يا "ده ده"، سيفرح "بكيل" عندما يراك.

- كيف سيراني يا "تششمه"؟ هذا حلم. وهو لن يستطيع أن يدخل في منامي.

- لو أردت أنت، سيدخل، لماذا لا يدخل، ما الذي سيحدث لو دخل في منامك؟! سيحكي لك "بكيل" الشجار الذي بينه وبين "قازان". حتى تعرف الموضوع. وتوصله لـ "بايندر خان". ولتفهم، لماذا أدعو على "قازان".

لا أعرف كيف بدأت هذه الأحداث في المنام. حيث فكرتُ في سبب دعاء هذه المرأة على "قازان"، وما ذنب "قازان" في كسر قدم "بكيل" وفي مجيء "قارا تكور" بجيشه والاستيلاء على حدود الأوغوز...دخلتُ خلف "سور مالي جه تششمه" المنزل. وأوصلتني إلى حجرة نوم "بكيل". فرأيتُ بكيل طريح الفراش، منتفخ الأوداج رابطا قدمهِ بخرقة قديمة. يتأوه من الألم. فسألته قائلاً:

- ماذا حدث لك، يا بكيل، يا حبيبي؟

إنني أحب "بكيل" هذا كثيرًا، سيدي الملك، هل تتذكر، عندما حدث هرج ومرج في حدود جورجيا وخاف الجميع. وكلما طلبتَ من أحد الذهاب إلى هناك امتنع، فقال لك "بكيل". "سيدي الملك اسمح لي، أن أذهب إلى هناك وأحمي حدود الأوغوز".

فذهب، وقام بحماية الحدود، وأظهر بطولات كثيرة، وأظهر شجاعته ومنذ هذا الوقت لم تأت من الأوغوز أي أخبار سيئة من حدود جورجيا. وأنا أحب "بكيل" كثيرًا لإخلاصه لـ "بايندر خان"، ولإخلاصه للأوغوز. والآن عندما رأيته في هذه الحالة، انفطر قلبي. رأيته يتأوه من شدة الألم. فأسرعتُ بإخراج عشب من عمامتي. هذا العشب ينبت عند الحجر "تور". لو مضغته، تستطيع أن تتخلص من كل الأوجاع والآلام. . فوضعتُ قليلاً من هذا العشب في فم "بكيل" وقلت له "امضغ هذا". نظر إليَّ بنظرة شاحبة، فلا أعرف إن كان عرفني أم لا، ولكن بدأ مضغ العشب بصعوبة. وكلما مضغ أفاق واستعاد قوته، وأضاءت عيناه، فضحك "بكيل" وكأنه عرفني وسألني:

- أنت قورقود، أليس كذلك؟

قلتُ :

- نعم، يا "بكيل"، أنا.

فسألني "بكيل":

- ماذا حدث، هل أنت الذي أعطيتني هذا؟

- عشب، امضغ، يذهب بالآلام.

كانت عين "بكيل" تضحك وقال:

- لقد ذهب بالفعل، يا قورقود. .

وركز بكيل عينيه ونظر إليَّ وقال:

- ما الذي جاء بك هنا، يا قورقود.

التفت "بكيل" في فراشه يمينًا ويسارًا وقد استند عليَّ متكئًا واستدار نحو "تششمه" وقال:

- أيها المرأة، مري الجواري، لقد قدم قورقود، فليحضرن الطعام والشراب.

أحنت "سور مالي جه تششمه" رأسها ونظرت إلى الأرض وقالت:

- هذا ليس وقت أكل وشرب، أيها الرجل.

- لماذا؟ ما الذي حدث؟ ما الأمر؟ أين عمران؟

كادت "السور مالي جه تششمه" أن تجهش بالبكاء ثانية وارتعش صوتها:

- عمران...

وجهتُ وجهي لـــ "بكيل" قائلاً:

- لا تفعل شيئًا، يا "بكيل"، انتظر، لا حاجة للطعام والشراب.

سألني "بكيل":

- كانت قدمي تؤلمني ألمًا شديدًا، أين ذهب هذا الألم؟

- العشب، يا "بكيل"، العشب الذي مضغته، ذهب بآلامك.

(أوقفني "بايندر خان" في هذا الموضع لبرهة. وسألني عن هذا العشب. فتحدثت للملك عن كل ما أعرفه عن هذا العشب. وقلتُ له إنه علاج للأوجاع. وقلتُ إنه يذهب بالوعي من الرأس، فإنك تبدأ تشاهد نفسك من الخارج وروحك تترك جسدك، وتطير وتلمس عنان السماء وتطير، وتطير، ثم تعود مرة أخرى للجسد إلى مكانها. فأمرني "بايندر خان" أن أحضر له من هذا العشب، ولم يخبرني فيما يحتاجه، ولم أسأله أنا الآخر، لو كان ضروريا أن يقول، لقال من نفسه).

بدأ "بكيل" يستعيد نفسه رويدًا رويدًا. وأشرقت عيناه. فأصابته هستريا ضحك لا تتقطع، لدرجة أنه كان متعجبا من هذا الضحك الذي أصابه، وفجأة تلفت هنا وهناك وكأنه يبحث عن أحد ما:

- ما الذي حدث لـــ "عمران"، ذهب للعدو، ألم يرجع حتى الآن؟

رفعت "سور مالى جه تشمه" رأسها وأجابته:

- لم يرجع.

سألها بكيل ثانية وهو ينظر إليَّ:

- ماذا حدث؟

فقلت لـــ "بكيل" ما يدور في قلب المرأة:

- كاد ابنك يا "بكيل"، أن يقع أسيرًا في يد "قارا تكور" ولكـــن لـــم يمكن الله تعالى أن يحدث هذا. فلازال لابنك عمر. هـــل أنـــت الذي زججت بابنك ليواجه "قارا تكور"؟ لقد جانبـــك الـــصواب في هذا.

- ماذا كان علي أن أفعل؟ ألا تعرف ماذا قال لي قـــازان؟ أنـــت لا تعرف، لم تكن موجودا في رحلة الصيد تلك.

ثم استدار إلى زوجته وقال لها:

- اخرجي أنت، سأتحدث مع قورقود منفردين.

رمقتني "سور مالى جه تشمه" بنظرة مليئة بالحزن وخرجـــت. بـــدأ "بكيل" حديثه أثناء خروج المرأة:

- ألم تسمع بما حل على رأسي في رحلة الصيد؟

كرر "بكيل" الكلام وقد بدت على صوته علامات الغضب والضيق:

- ألم تسمع بما قام به " قازان" في رحلة الصيد؟ وكم قام بيـــراك بسبابي؟

- لم أسمع بهذا. فلنتحدث، تكلم وأنا أصغي إليك.

- إذًا استمع إليَّ يا قورقود. ولكن لا. أولاً ننقذ "عمـــران". يجـــب علي أن أذهب لـــ "قارا تكور"، ثم بعد ذلك أحكي لك الأمر.

حاول "بكيل" النهوض من الفراش ولكنه لم يستطع ذلك، فأوجعته قدمه وخر على المتكأ والتقط نفسه بصعوبة ونظر إليَّ قائلاً:

- لقد كسرت قدمي، يا قورقود. كيف عرف "قارا تكور" بـأمري، ساعدني، يا بُني...

- زوجتك التي أخبرت بهذا. لا تقلق. سأحل أنا هذا الأمر.

- كيف؟ كيف ستحله؟ أنت لا تعرف "قاراتكور" الذنب ذنبي، لقد زججت بابني الساذج إلى "تكور" المعروفة قواته، الذنب عندي.

اختنق صوته بالدموع، وأجهش بالبكاء.

ماذا كان عليَّ أن أعمل، سيدي الملك؟! لم أستطع عمل شيء سوى الالتجاء للحجر "تور" ثانية. فبدأت قراءة دعاء الفرج بشدةٍ في قلبي وأنا في المنام، وظللت أتماسك وأنا واقفٌ على قدمي، حتى كدتُ أخر على الأرضِ. ولكني حين فقدتُ توازني ألقيتُ بيدي على أحد أعمدة الفراش الطويلة ممسكا به، حتى استطعت النهوض على قدمي.

وكنت أقول في قلبي: "أيها الحجر "تور"، لا تتخل بجزء من نورك عني. ذنوب هذا الأب والأم عظيمة. ولكن لا ذنب لهذا الابن. اعف عنه من أجل شبابه. خذ جزءًا من نورك، وأرسله على سيف "قارا تكور" البراق المشهر في السماء، فلينزل على عين هذا الكافر، فلا ترى جيدا، وينجو الابن، العون".

قام الحجر "تور" بما قلتُه له يا سيدي الملك. أخذ قطعة من نوره وأرسلها على سيف "تكور"، فسقط السيف على عينه وبرق السيف في السماء، وهذه البرقة سقطت على عين الكافر، فجعلتها لا ترى، فتحركت بسرعة في تلك اللحظة. فوضع "تكور" يده على عينه، وسقط السيف من يده. فنهض "عمران" على قدميه بسرعة، فتناول السيف في يده الذي كان قد سقط من "تكور"، ووضع عمران السيف على عنق الكافر. وكأن قوته تضاعفت عشرة أضعاف، فخر "قارا تكور" على قدمي عمران، وأظهرت الحادث لـ "بكيل" وقلت:

- ألا ترى، يا "بكيل"؟ لقد هزم ابنك "تكور". وسيقطع رأسه الآن.

وكان "بكيل" يبكي قبل قليل، والآن يضحك بشدة، ويضرب كفا بكف قائلاً:

- تعالوا وشاهدوا، عمران انتصر، وسيعود.

دخلت "سور مالى جه تششمه" إلى الحجرة. فلم أشعر بذلك، ثم ارتمت تحت قدمي وقالت:

قورقود، قورقود ! الموت لمن لا يصدقك وأنت "ده ده"، أنت "قورقود"، لقد حدث هذا الأمر بفضلك. ربنا يكرمك. أشكرك، أصلح الله حالك. كلامك راحة لنا. كن دومًا عونًا لنا. قل أنت، قل أنت...هل يفلح من يعصي الملك أم لا؟ لقد قالت "سور مالى جه تششمه" هذا الكلام وهي تبكي لقد نزلت كلماتها هذه التي قالتها بصوت منتحب، على قلبي كالجبل. فلم يتحمل قلبي، وحدثت نفسي، أنني سوف أحل مشكلة "بكيل"، ولو لزم الأمر سوف أخبر الملك. وبعد ذلك...وسيعلم الملك ما بعد ذلك، أما "بكيل" فقد قال لي ما يلي...

طبقًا لنص سيرة "كتاب ده ده قورقود" فإن هناك أغراضا حقيقية كما سنراها الآن لغضب "بكيل" من "قازان بك" أثناء رحلة الصيد. بالطبع، قورقود لم يكن محقًا فيما قال قبل قليل. فطبقًا لفكره أنه ليس ثمة علاقة بين حديثه مع "بكيل" والموضوع الذي يتحدث عنه، فقد سبق أن قال في

المخطوط ما يلي: "...حكاية "بكيل" حكاية طويلة، لا أعرف هل له دخل بموضوعنا أم لا، هذا أنت تعرفه، يا سيدي الملك". أما في الحقيقة، فهناك أهمية خاصة لرحلة الصيد هذه في تحديد المجرم الحقيقي الذي أطلق سراح الجاسوس من السجن، وجعله يمضي من الأوغوز. بعد قليل سيتضح لكم هذا الأمر الدقيق.

...قال لي بكيل، يا سيدي الملك، إنه في يوم من الأيام قد جاءه خبر من "قازان"، يقول فيه، فليأت إلي "بكيل" بمجرد أن يأتي إلى الأوغوز، فأنا أريد أن أكرمه. وقد اعتدتُ من "قازان" الاحترام والتقدير. فقد أسعدني كثيرًا جدًّا هذا الاهتمام. كان الراعي "قونور قوجا صاري هو الذي جلب لي هذا الخبر ". فقلتُ له، انهض واذهب إلى سيدك وخذ معك عقال الأغنام التي تعجبك، واصَنع كبابًا لقازان. وسأصطاد بنفسي شيئًا من الغزلان وأحضره لقازان عندما آتي إليه. فاختار الراعي "صاري" الأغنام الملحاء. وساقها أمامه وصنع كبابًا لأوغوز الداخل. ومرت الأيام، وفي يوم من الأيام دعاني "بايندر خان" إليه. تتذكر حادثة قلعة "زمرد" يا قورقود. لقد ألقى "آرشين ديرك" القبض على "قازبليق قوجا"، وزج به في الزنزانة المظلمة. ورجع خالي الوفاض كل من يذهب لإنقاذه. لقد قلتُ لكل من كان يذهب يا سيدي، أن قلعة "زمرد" ليست بالأمر الهين. لها سور عالٍ، عليه حراس في كل شبر فيه. المهم، لم يسمع أحد لكلامي. وقد تجمع جيش قوي، ولكنه عاد خالي

الوفاض هو الآخر. لقد اختفى "قازبليق قوجا". الخلاصة، كان "بايندر خـــان" يريد أن يتشاور معي بخصوص قلعة "زمرد". وقد طلب "بينلك" ابن" قازيليق قوجا" من الملك السماح له بإنقاذ أبيه من القلعة. فسمح الملك لـــ "يينك" بهذا، وقد جاءني الخبر أنني يجب عليَّ أن أقدم لــ"بايندر خان" معلومـــات بـــشأن الأماكن والقرى والطرق المحيطة بقلعة "زمرد". كانت الرحلة جادة. وصلتُ قرابة الظهير إلى قصر الملك. لقد طفت تلك الأماكن جيدًا. وبالرغم من ذلك أرسلت جواسيس كثيرة، وتعرفتُ جيدًا على كل الأماكن والوديان هناك. ثـــم جئتُ إلى بايندر خان، وقلتُ له كل ما عرفتُه. وفي النهاية قلت للملك: "لـــن يستطيع ولو جيشًا منظمًا الاستيلاء على قلعة زمرد، يا سيدي الملك، يجـــب أن يكون الذاهب إلى هناك مشغوفًا يحب الأوغوز".

كان الملك يستمع إليَّ برغبة واهتمام. بعد ذلك استدعى الملك "يينـــك" ابن "قازيليق قوجا"، وأمره ألا ينتظر أكثر من ذلك وأن يستعدَّ للسفر ويجمع الرجال الذين سيذهبون لهذا الهجوم. ومن الطبيعي أن "قازان" قد اشترك في هذا المجلس. وقد قال لي "قازان" ونحن نخرج من حجرة الملك:

- لنذهب إلى الصيد، حقًا، لم نر غزلانك. مع أنك وعدت بإحضار غزلان معك، فإنك لم تحضرها، لكن لا يوجد مشكلة، علينـــا أن نكرمك، يا "بكيل". أنت الآن هنا ضيف. وللصيد طعم آخر قبل الذهاب للهجوم على القلعة.

أنت تعرف، يا "قورقود"، مهارتي في رمي السهام، أليس كذلك؟ أنـــا بكيل الذي يعقد قدم الغزال الأمامية بإذنها بالسهم. كثير من الغزلان فعلت بها هذا، ثم أطلقتها ولم آكلها. وعندما كان يخرج العديد من الرجال من الأوغوز للصيد ويصطادون هذا النوع من الغزلان، يرسلونه إليَّ ويقولون هذا من حق

بكيل. والآن، استمع إليَّ. لقد دعاني "قازان" للصيد، فسررتُ لهذا. لقد اشترك في رحلة الصيد رجال كثيرون. وكان شير شمس الدين موجودا أيضًا وكان "قاراجونه" أخو "قازان" موجودا هو الآخر. و"قاراتشكور"، وابنه "قيرج جونوق"، وأنت تعرف أنه يكون موجودا دائمًا في المكان الموجود فيه أبوه. و"بيرك" كان مشتركا في الرحلة أيضا. رمى "قاراتشكور" بسهم، فأثنى عليه "قازان"، وقال له "المهارة تكمن في مهارة الفتى الرامي. ورمى " قيرج جونوق " بسهم، فأثنى عليه قازان أيضًا، المهم، كل من يرمي بسهم كان يسمع الثناء من قازان. ورميتُ أنا بسهم، يا قورقود، تصور، أن السهم طار في السماء، ودخل من جانب الفريسة وخرج من الناحية الأخرى. هل تعرف ماذا قال يا قورقود؟ لما رأى قازان ذلك، فسألته:

- ماذا قال.

قال قازان:

- هذه المهارة ليست مهارة الفتى الرامي، بل هي مهارة الحصان الذي يركبه الرامي.

انظر، ماذا يعني؟ ، يعني أن الحصان هو الماهر، وليس لي أي قيمة ! فقلتُ، يا قازان، مهارتي في رمي السهام معروفة لدى الجميع في الأوغوز، وأنت تعرف ذلك أيضًا...

- ماذا قال قازان ردا على هذا؟

- ماذا سيقول؟ قال، لا، لو لم يجتهد الحصان فلا يظهر الفتى مهارة. فرسك فرس أحمر. المهارة تكمن فيه.

- ثم ماذا حدث بعد ذلك؟

- بعد ذلك اجتهد السادة، أن يختبروني مرة أخرى. وسعى بيــرك في تحقيري وقال: يقول قازان بك الصواب، بــالطبع المهــارة تكمن في الحصان.

فسألتُ قائلاً:

- إذا أليس لي أي دور في هذا؟!

فقال بيرك:

- لا.

فامتلأتُ غضبًا يا قورقود، وقلتُ:

- سألقي السهم وأنا مغمض العين، وأصطاد الفريسة.

فأغرق في الضحك وقال بيرك:

- لقد أصابك الصدأ من الجلوس على حدود جورجيا، يا بكيل.

صمت السادة للحظة، وخيم السكوت على الجميع. فقلتُ لــ "بيرك":

- يابكيل، هيا، تعال، لنرم السهام ولأريك فيمن تكمن المهــارة؟ ، في الفتى أم في الحصان...

غضب بيرك، وأتى إليَّ وقال:

- أتستهزئ بي؟

لم أرد على بيرك ووجهتُ وجهي لقازان قائلاً:

- أيها السيد، اجلس هذا مكانه، فليزم حده، وإما...

تصور يا قورقود، أن "قازان" كان معجبًا من تهكم بيرك. وبالرغم من أنه لم يقل كلمة واحدة، فإنني كنتُ أشعر أنه يعرف أن بيرك يمكن أن يتكلم

كثيرا ويتهكم عليَّ. فتوجه بيرك بجوار قازان. وغضب وازداد غضبه. وتوجه نحوي وصاح فيَّ قائلاً:

- إما ماذا؟ ماذا سيحدث، قل...

لم أرد على بيرك هذه المرة أيضًا ووجهتُ حديثي إلى قازان قائلاً:

- اجعل كلبك يجلس مكانه يا قازان، هل يقول لي أنا ما قاله؟! ليعرف حده.

كان غضب بيرك يتزايد:

- هل أعرف أنا حدي؟! يا بكيل، أنت ظللت بعيدًا عن الأوعوز وحيدًا في منأى عنهم. منذ أمدٍ بعيد وأنت لا ترى أحدًا، ولا تعمل شيئًا هناك، أنا الذي يعرف حده؟ اعرف أنت حدك. سأقضي عليك يا بكيل.

قال بيرك لي هذا، ووضع يده على سيفه. فتمالكتُ غضبي بصعوبة. ونظرتُ مرة أخرى إلى قازان:

- أقول لك لآخر مرة يا قازان بك، ليس عليَّ لوم بعد ذلك.

لم يسمح قازان للأمر أن يتطور أكثر من ذلك:

- كفوا أيها السادة عن هذا الشجار. اسكتا أنتما الاثنان، انتهيا من الكلام. لقد جئنا هنا للتسلية. أنسيتما هذا؟

لم يصمت بيرك مطلقًا:

- أنت تقول عليَّ أنا كلب؟

فقلتُ أنا أيضًا:

- هل يوجد هنا كلب آخر غيرك؟ بالطبع أعنيك أنت.

سلَّ بيرك سيفه:

- يوجد كلب آخر هو أنت، وحشرة هي أنت...تعال واجهني.

عندما وضعتُ أنا الآخر يدي على سيفي، صاح قازان بــصوت حــاد وقال بيرك.

- ألم أقل لك كف عن هذا الكلام؟! قلتُ لك، أم لم أقل؟ خذ هذا من هنا يا شير شمس الدين.

احتضن شير شمس الدين بيرك، وكان هناك نبع ماء بارد يسيل، حمله عند هذا النبع.

وجه قازان وجهه نحوي قائلاً:

- أما أنت...، أما أنت يا بكيل، اسمع جيدًا ما أقوله إليك. قد ذاعت شهرة رمي قوسي حتى وصلت إلى طرابزون، مهما تكن شجاعا وبطلا، فلن تكون مثل قازان. أفهمت؟ اعرف حجمك. وأقول لك شيئا آخر. أنت تشتهر على حساب فرسك لا تربط قدم الغزلان بأذنها. المهارة في الفرس.

فغضبتُ وسألتُ قازان:

- هل الأمر هكذا؟

فأجابني قازان:

- نعم، الأمر هكذا، واستدار لمن حوله، قولوا أنتم أيها السادة، أليس الأمر هكذا؟

صدَّق السادة على كلام قازان وحركوا رءوسهم "نعم" هكذا".

- لقد أحرجتني وسط السادة، وجعلتَ رأسي في الوحل، يا قازان، فلا أعرفك من اليوم، ولا تعرفني بعد ذلك.

لقد قلتُ هذا، وأخذتُ بلجام الفرس، وجمعتُ مساعدي، وقلتُ لهم، فلنذهب، وتوجهتُ نحو البلدة. وأخذتُ أفكر في أشياء كثيرة، وأنا في الطريق. لقد ظللتُ أفكر وأفكر، واتخذتُ قرارًا قاطعًا. وقلت، إن مهارتي واضحة وضوح النهار، ولكنهم أنكروها. وبالطبع لو أراد قازان أن يجعل "بايندرخان" يُسقطني من نظره لفعل. أهذه هي مكافأتي على كل ما قدمتُ. ماذا سيفعل بيرك، وكيف سيفعل؟ لقد وصلت إلى البلدة وأنا أفكر في هذا. استقبلني الحراس، وأخذوا الحصان وذهبوا به، وبسبب أنهم رأوني غاضبًا، لم يتكلموا معي بكلمة واحدة. على أي حال الجميع سيعلم بالأمر غدًا. ومع أن مساعدي ظلوا صامتين طيلة الطريق، إلا أنهم بالطبع كانوا متضايقين من غضبي مع بيرك وتشاجري معه. ومن ناحية أخرى خوفهم من بايندر خان يسيطر عليهم، ولو غضب مني بايندر خان بسبب كلام قازان، فماذا سيفعل هؤلاء؟ دخلت المنزل، فرأت زوجتي حالي وسألتني:

- ماذا حدث لك، يا زوجي، ذهبتَ سعيدًا وعدتَ حزينًا؟!

فقلت:

- لقد أحرجني قازان وسط السادة. ذهبنا للصيد، ورمينا السهام على الغزلان، فلم أعجبه، فقال لي إن مهارتي في الفرس.

- أفقال هذا؟ لماذا قال هذا؟ ألا يرسل لك جميع أهـــالي الأوغـــوز الغزلان المربوطة أيدها بآذنها قائلين إنها لك. فليقل قازان، مـــا يقول، إنه يُعيب نفسه.

- لا ! لقد غضبتُ من قازان، وتصديتُ لـــ "بيرك".

- ماذا فعل بيرك هذا حتى الآن؟

فقلت:

- فعل ما فعله. لقد احتملتُ كثيرًا، أيتها المرأة. لقد تهجـــم علـــيَّ، واستل سيفه عليَّ. والسادة فرقوا بيننا. أتعرفين فيمـــا فكـــرت؟! فكرتُ أن أترك قازان وبيرك ودون أن أفعل مشاكل أرحل مـــن هذه الديار، وليغفر الله ذنبي، لقـــد خرجـــتُ علـــى الأوغـــوز وأصبحت عاصيًا.

بدأت المرأة تتوسل إليَّ:

- لا تفعل يا حبيبي، لا تفعل، يا بطلي. لا يفلح أحد يعصي الملك. انهض على قدميك، ودع هذا الغضب، انظر إليَّ، اخـــرج إلـــى الصيد وانس هذه الأفكار. خذ الفتيان معك واصطد ما يحلو لك من الغزلان في هذا الجبل. وإن كان هو "قازان" فأنـــت أيـــضًا بكيل. لولاك ألا تعرف ماذا كان يحدث؟ كانت الأوغوز لن تهنأ يومًا واحدًا بالراحة، يا حبيبي. هل حماية الحدود مـــن العـــدو "قازان تكور" أمر هين؟! لماذا لم يأت أحد ليقوم بحماية الحدود؟! أنت موجود، ونفَسك موجود، لذلك يخشى العدو من الاقتـــراب. أليس كذلك؟! ألا يعترف الجواسيس بهذا؟! قم وانهض، يا بطلي،

اذهب الآن، سأقول للحراس ألا يرفعوا عــن الفــرس ســرجه، اذهب للصيد، واصطد ما تشاء من الغزلان وأحضر لي لحمهــا يا بكيل، يا بطلي، يا بكيل....

غيرت المرأة وجهتي وتفكيري، وجاء في فكري ما يلي: "قازان لــم يصبح مكان بايندر خان بعد، بالتأكيد سأذهب إلى بايندر خان، وأحكــي لــه الحكاية. وبالتأكيد، سيعاقب الملكُ "بيرك". فالعقاب الأساســي ســيكون لــ "بيرك" فالذنب كله على "بيرك" أكثر من قازان. كان بيرك يتملق قازان. لقد علمه التملق في "بابيورد"، كانت المرأة محقة فلأخرج للصيد، وانــسي مــا حدث. تفكر زوجتي تفكيرًا سليمًا، أما أنا فقد غضبتُ، والغاضب لا يكــون عنده عقل".

جمعت حولي الفتيان مرة أخــرى والحــرس والمــساعدين وركبــتُ حصاني، يوجد هناك في هذه الأماكن الجبال العالية والــصخور الــصماء. وهناك الغزلان بدون عدد ولا حساب. المرأة محقة في كلامها، لم أرم سهمًا على الغزلان، وقلتُ للرفاق، هيا خذوا أمتعتكم، يا رفاق، لنذهب ونصطد من هذه الجبال...

ما إن قال بكيل هذا، استيقظت من النوم وفتحتُ عيني، فرأيتُني بجوار الحجر نور، أيها الملك.

***

لم يكن للشاه صبر أن يتحدث مع السفراء. كان هو فقط الذي يعرف سبب هذا، وكذلك "حسين بك لالا" ولكن لا، لقد نظر الوزير للشاه وشعر بسبب تغير الشاه بعض الشيء وما الذي جعله على هذه الحالة. بالطبع، لقد أصبح الشاه في هذه الحالة بعد أن تكلم مع "لالا" كلمة أو اثنتين. وكان الشاه شارد الذهن وكأنه لا يصغي لما يقوله السفراء، وهذا، بالرغم أن الشاه كان ينتظر مجيء السفراء بفارغ الصبر من تلك البلاد البعيدة التي جاءوا منها بعد عناء طريق طويل".

اقترب الوزير من أذن الشاه وهمس فيها قائلاً:

- أيها الشاه، فداك نفسي "يسأل هذا هل عندنا نية في إرسال سفراء إلى بلادهم، أيها الشاه المعظم؟

انتبه الشاه إلى كلام الوزير وهز رأسه وقال:

- لم لا؟ ليست فكرة سيئة. إن شاء الله، لدينا نية في هذا. نحن نقول "إن شاء الله" قبل أن نبدأ أي عمل.

ترجم....

كان السفراء عبارة عن أربعة أشخاص. كان أحدهم يعرف اللغة التركية، وهو الذي كان يقوم بالترجمة.

أردف الشاه سؤالاً آخر دون أن ينتظر المترجم:

- أيها السفير، قل لي، منذ متى وأنت تأتي في الطريق.

- منذ أكثر من عام؟ يا قبلة العالم.

نهض الملك على قدميه من أجل أن يقول كلمته الأخيرة دون أن ينتظر المترجم، وكان في كلامه عدم تصديق أكثر منه استهزاء فقال:

- عام. لقد قطعتم هذه الطرق، لكل منا مكافأة.

نهض الجميع واقفين عند قيام الشاه، قال الشاه:

- لقد قطعتم طريقًا طويلاً. لقد تعبتم. أيها الوزير. اهتم أنت بنفسك بهم، وأكرموا الضيوف، وكونوا في خدمتهم. بعد يوم أو اثنين، نواصل حديثنا من جديد إن شاء الله.

سار الشاه وترك حجرة العرش دون أن ينظر لأحد آخر. أحنى الوزير والسفراء رءوسهم وهم واقفون. وبعد ذلك ظل الوزير مع السفراء جالسين لفترة قلقين، وحاولوا مواصلة الحديث. كان الوزير يهتم بحديث السفراء كلما كانوا يتحدثون عن عواصمهم والأماكن التي جاءوا منها وبلادهم وعن الشعوب والأعراق التي لم يرها الوزير ولم يسمع عنها، وكان يسجل ما يسجله في ذاكرته، ويسجل الباقي على الورق، وكان يفعل ذلك حتى إذا سأله الشاه عن أي شيء بخصوص السفراء يستطيع أن يُجيب. ولكن في الحقيقة كان تركيز الوزير مع الشاه و"لالا"، لذلك كان كثيرا ما يّقاطع كلام السفراء أو أحدهم، ويطلب منه الإعادة حتى يستوعب الأمر. أما السفراء فكانوا مسترسلين في الحديث على سجيتهم، ويعطون جوابًا وافيًا مفصلاً على أي من أسئلة الوزير. سألهم الوزير وهو شارد الذهن:

- قلتم، إنه إذا أراد أحد منا أن يذهب إلى بلادكم، فعليه أن يمر من أراضي الدولة العثمانية، أي ليس لدينا طريق آخر؟

كان رئيس السفراء من الروم شاحب الوجه، مجرد أن فهم السؤال أخذ في التفكير، وتحدث معه سفير آخر وفتح له الخريطة وأخذ يشرح له شيئًا ما. وبعد ذلك حوّل وجهه إلى الوزير ورد عليه وقد نقل المترجم رده الذي كان كالتالي:

- سيدي الوزير، إن هذا هو أقصر طريق موجود، وهو الذي يمر من أراضي الدولة العثمانية. وتوجد طرق أخرى غير هذا. ولكنها طرق طويلة، لذلك يفضلون هذا الطريق القصير لأنه موفر للوقت، وكذلك آمن. الطريق يستغرق عامًا ويحتاج عبور الحجاز ويوجد فيه قطاع طرق.... . لو يريد الشاه – فداه أنفسنا وأرواحنا – نبدأ في إنشاء طريق جديد. نخطط خط سير لطريق أولاً، ولو مر من أراضي الدولة العثمانية، لا يوجد مشكلة. لن تعلم الدولة العثمانية بهذا.

قال الوزير:

- بالتأكيد، بالتأكيد، سنناقش هذا الأمر بالتفصيل مع الشاه، إن شاء الله.... إذا، طبقًا لخريطتكم، فإن الدولة العثمانية تقع وسطنا بالضبط بيننا وبينكم.

سأل الوزير أيضا فجأة:

- هل صحيح عاصمتكم تقع وسط البحر؟

نظر السفراء بعضهم إلى بعض، وأخذوا في إثبات هذا الأمر بشتى الطرق. سجل الوزير بعض الملاحظات في دفتر وأعرب عن رغبته في دعوة الضيوف بتواضع للغداء، سار الوزير أمامهم بحفاوة بالغة قائلاً: "تفضلوا، تفضلوا، شيء رائع"، ومن خلفه السفراء، ثم بعد ذلك خرجوا من الديوان ومعهم السادة وظل الديوان فارغا.

***

أسرع الشاه من الحديقة الخلفية ودخل استراحته الخاصة السرية الموجودة في أحد أركان الحديقة. شعر "لالا" بمجيء الشاه من صوت أنفاسه، ففتح الباب، وسرعان ما أغلق الباب خلف الشاه سأل الشاه "لالا" سؤال من خلال عينيه، فهز "لالا" رأسه، فأسرع الشاه لدخول حجرة النوم. كان هناك شاب قلق يقف بجوار النافذة ما إن رأى هذا الشخص الشاه، طأطأ رأسه، وخر على الأرض. خلع الشاه الغطاء الذي عليه، وذهب ووقف بجوار الشاب. دخل "لالا" ووقف بعيدًا بعض الشيء عن الشاه ووضع يده على صدره في انتظار الأمر.

جلب الشاه هذا الفتى ناحية الضوء قائلاً:

- قف على قدميك، تعال ناحية الضوء هنا، وأخذ يدقق النظر في وجهه ويقول ما أجمل هذا لم يخلق الله رب العالمين مطلقًا أفضل من هذا.

بعد فترة نظر الشاه إليه نظرة أخيرة وجلس على الكرسي الرومي الموجود بجانب السرير، وحول وجهه نحو "لالا" قائلاً:

- من أين أتيت بهذا يا "لالا"؟

ثم لم يستطع تملك نفسه وقال لـ "لالا":

- ما أجمل ما فعلت...

بدأ "لالا" الكلام مباشرة:

- أيها الشاه المعظم مرشد الكمال، ما إن تلقيتُ أوامرك ففطنتُ على الفور أن الأمر على أعلى مستوى من الجدية. ما شاء الله، ليس لعقلك مثيل. لقد بدأتُ بنفسي الطواف على القرى قرية

قرية، ولم أستطع أن أسأل أحدًا حتى لا أفشي السر، لذلك أيها الملك المعظم طفتُ المملكة شبرًا شبرًا. لقد وجدتُ كثيرًا يشبهونك إذا كان أنفه يشبهك فذقنه لا تشبهك، وإذا كانت ذقنه يشبهك، فأذنه لا تكون ملائمة لك: المهم، أنت ترى هذا الفتى، لم أستطع أن أجد أحدًا يشبهك مثل هذا. لو أعجبك هذا...

- لقد أعجبني، أعجبني جدًّا. ما اسمه؟

أشار "لالا" بعينه إلى الفتى قائلاً:

- اسمه الخضر، يا سلطاني.

سأل الشاه:

- هل أخبرته بالأمر؟

- أخبرته، فداك نفسي، وهو رهن إشارتك.

- حسنا.... إذًا أول شيء في الأمر، أن يخرج في الصباح الباكر معك إلى صلاة الصبح وسط الناس.

- على الرأس والعين، أيها الشاه. ولكن كنت ستخرج في الصباح الباكر لتفقد المدينة؛ وكنت قد أردتَ الذهاب للسوق...

- سأخرج للمدينة مع الوزير. ولكن...ممنوع إخباره بكلمة واحدة بشأن هذا الأمر: أنت بنفسك تعرف ذلك أن هدفنا الأساسي هو إقناع الناس وأرباب القصر، والجميع من كبيرهم إلى صغيرهم بوجودي في مكانين مختلفين في آن واحد. نحن اتفقنا معك على هذا. قم بإعداد هذا، فليتعرف جيدًا على طريقة مشيي وعاداتي، ولكن.... أعتقد أنه يخرج مبكرًا بدون غطاء للوجه، ما رأيك في هذا؟

- مبكرًا، فداك نفسي، مبكرا هذا الآن. يجب عدم الاستعجال في هذا الأمر. شيئا فشيئا يستقيم الأمر. ما تأمر به صحيح. مبكرًا أن يسير بدون غطاء وجه الآن.

دقق الشاه مرة أخرى في الخضر. وكأنه يريد أن يجد فيه عيبا أو خطا في وجهه لا يلحظه الجميع، ولكنه لم يجد هذا، فاستراح ونهض على قدميه:

- حسنًا، سأذهب.

ثم ألقى نظرة حوله وقال:

- يجب أن يكون المكان الذي ينام فيه هذا بعيدًا عن الأنظار. هنا يكون جيدًا. فليضعوا له سريرا في ركن من الحجرة. نعم، يا "لالا"...حسنا إنني لم أنس، علم هذا لعب الشطرنج.

- على الرأس والعين، يا سلطاني. سأعلمه. وهو أيضًا...قطع "لالا" كلامه ولم يكمله.

- نعم هو أيضًا ماذا؟

- هو أيضًا...

التفت "لالا"، ولم يعرف هل من الصواب أن يقول هذا الأمر، أم لا، ولكن قد خرجت الكلمة بالفعل، فقال "هو أيضًا، أيها الشاه يقرض الشعر[١]".

تعجب الملك:

- أيقرض الشعر؟

---

(١) من المعروف أن الشاه إسماعيل خطائي كان من كبار الشعراء الأتراك واشتهر بذلك بجوار قدرته الحربية الكبيرة، فكان له دواوين شعرية كبيرة باللغة التركية (المترجم).

- نعم، أيها الشاه، يقرض الشعر.

لم يسأل الشاه عن شيء آخر. ألقى نظرة أخرى على الشاب وخرج مباشرة من الحجرة. أوصله "لالا" إلى الباب وعاد إلى الخضر. وجلس القرفصاء على السجادة على الأرض وأشار إلى الخضر، فجاء وألصق ركبتيه إلى ركبتيه. وصمت الاثنان، وجلسا صامتين لفترة طويلة.

***

بمرور الوقت بدأ الخضر يشبه الشاه بشكل كبير(*). وكان "لالا" يأذن له من حين لآخر أن يخرج وسط الناس بشكل أكثر وهو في لباس الشاه. كان يجلس في الديوان وعندما كان يحرك الأطراف الذهبية للغطاء الموجود على رأسه بيده طرفًا طرفًا، كانت أصابعه تظهر، ومع أن من حوله كانوا جالسين صامتين مطأطئين رءوسهم، فإنهم كانوا يرمقون حركات أصابعه. وكانوا يمدحون الشاه أي الخضر. كان وقوفه وجلوسه وإيماءة رأسه، وتحريك جسمه وكل شيء يدل على أنه هو الشاه أو على أن الشاه موجود بالفعل. وكان "لالا" قد علمه بالفعل لعبة الشطرنج. كان أحيانًا "لالا" يُخرج جميع الحرس من الحديقة ويعد مكانًا وسط الأزهار والورود ليلعب الشاه والخضر الشطرنج. وكان "لالا" يتفرج عليهما. كان الشاه يحب كثيرًا الورود الموجودة في الحديقة الخلفية، ففي أوقات فراغه يأتي ويزور هذا المكان. وكان يطلب إليه الخضر ويتحدث معه، ويستعلم عن قريته ومنزله. كان الخضر من إحدى القرى الجبلية البعيدة. كان أبوه على قيد الحياة وله أخوات. وكانت أمه ميتة. قد ذهب بها أحد السيول. كانت أخته الكبيرة "زرنسه" تقوم بجميع أعمال البيت. وكان أبوه قد كبر في السن. فلم يذهب لخدمة الشاه. ذات مرة كان الضباط يجمعون الرجال من القرى قرية قرية، فانضم إلى "القيزلباش" أثناء حملة الشاه إلى الداغستان. ولكنه عند عودته انفصل عنهم وانشغل بالزراعة والحصاد وكان يجمع محصوله ويذهب به إلى أردبيل أو إلى تبريز لبيعه في السوق، فيكفل أسرته بشكل أو بآخر. أما أخته الصغرى، فكانت تسمى "برنسه" كان الخضر يعتني بها وكانت هذه الطفلة التي تربت بدون أم....

(*) لاحظ أيها القارئ العزيز، أن الغرض من وجود الخضر هذا، وهو أن يحل محل الشاه إسماعيل الصفوي
فيما بعد على حسب رؤية الكاتب، وسيتضح السبب في هذا بعد قليل. (المترجم)

الجزء التالي المتعلق بالشاه غير مقروء، أما عن الصفحة التالية فهي غير موجودة بالمرة. ولا يُحس أن هناك علاقة بين ما قبل هذا وما بعده. فلو افترضنا أن الأحداث بشأن عائلة الخضر، فيمكن أن نقول إننا لن نحصل على معلومات مفصلة أخرى. فما قيمة تقديم معلومات عن هذه الأسرة؟! وهل سيكون في الأحداث القادمة دور لوالد الخضر يؤثر في مستقبل الخضر؟ من الصعب الجزم في هذا الأمر، أو ربما مستحيل هذا ويبقى هذا أحد الأسرار التي احتواها المخطوط المبتور.

***

- ...كيف يحدث هذا، أأنت تنظم شعرًا كل يوم؟ بالطبع لهذا سر.

سأل الشاه هذا السؤال ونظر إلى الخضر بريبة. كان الخضر يعطي كل اهتمامه بلعبة الشطرنج حتى أنه بالرغم من أنه سمع كلام الشاه فإنه لم يلق إليه بالاً. فتضايق "لالا"، وأراد أن ينبه الخضر. فلم يدعه الملك يفعل ذلك وقال:

- دعه، ليفكر، ليس لك شأن به، لقد وضعته في موضع صعب، يا "لالا". انظر لهذا...وأشار الشاه بيده إلى أحد أغصان الورود الموجودة هناك.

نظر "لالا" نحو الناحية التي أشار إليها الشاه، فرأى طائرًا صغيرًا قد تعلق بأغصان الورد ولا يستطيع أن يتخلص من بين الأغصان.

قال الشاه لـ "لالا":

- اذهب وخلصه، ليطير وليمضي إلى حال سبيله.

أما أنت واستدار إلى الخضر وقال:

- فكر كما تشاء، يجب ألا يكون لهذا الوضع أي مخرج، هو يعني لعبة الشطرنج، لقد شلت حركتك، ليس لك حل سوى الاستسلام.

ضرب الشاه يده على ركبته بيده دون أن ينتظر ردًا ونهض واقفًا. قدم "لالا" وفي يده الطائر الذي خلصه من بين الأغصان وجاء بجوار الشاه. قال له الشاه:

- بالله عليك، لا تؤذ هذا المسكين، أطلق سراحه، ليطير؛ ويمضي إلى حال سبيله.

فتح "لالا" يده نحو السماء، وأطلق سراح الطائر، فدار الطائر المسكين في السماء وطار إلى حال سبيله.

- ولكن، لم تقل لي كيف تنظم هذه الأشعار؟! لقد نظمت مقطوعة شعرية في ذلك اليوم، واليوم نظمت منظومة أخرى لا أتذكر المقطوعة التي نظمتها في تلك اليوم، ولكن أعجبتني كثيرًا

لمعت عين الخضر، وعلى وجهه ابتسامة سارة:

- أيها الشاه المعظم، إن إلهام عظمتك يدخل في قلبي.

- بارك الله في من علمك، لقد أعجبك أنت، أيضا يا "لالا" أم لا؟

- أعجبني، أعجبني أنا أيضًا كثيرًا، أيها الشاه المعظم...

ابتسم الشاه برضا ثم عاود حديثه ثانية. وقد أنهى هنا الحديث بهذه الطريقة، ونهض على قدميه، ووضع الغطاء على وجهه وهذا يعني أنه يذهب. غدًا يوم عصيب. لقد استدعى مجلس الشورى الحربي. كان تفكير الشاه في الآونة الأخيرة ينصب فقط على "شليباني" الأوزبكي منذ زمن وهو متضايق منه، وقد أمر بالإعداد لحملة عسكرية. ماذا سيحدث وكيف سيحدث لا يعلم ذلك سوى رب العالمين....

* * *

...أخذت قدم "بكيل" تتحسن تدريجيًا بعد علاجي لها. وكان هو الآخر لا يريد أن أفارقه بسرعة. ولكن الحلم هو الحلم، يا سيدي الملك. هو ليس متعلقًا بإرادتك أو عدم إرادتك. أنهيت حديثي مع "بكيل" وودعته، وخرجت، فرأيتُ "سورمالى جه تشتمه" تجلس في المكان نفسه الذى كانت تجلس فيه عند قدومي. يا ترى أكانت تنتظرني؟ فسألتها:

- ما الأمر، يا أختاه "تشتمه"؟ ماذا تطلبين مني الآن؟! لقد أُنقذ ابنك، وعاد إليك في كامل صحته الآن؟!. الشكر لله ماذا تريدين أيضًا؟

(وقدمتُ في قلبي شكرًا آخر للحجر "تور". لم أقدر أن أفعل سوى ذلك. أنت تعلم ذلك يا سيدي الملك).

قالت "سور مالي جه تشتمه" وهي تتفقدني بنظرة حزينة:

- شكرًا لك يا "قورقود". ربنا لا يحرمنا منك في الأيام الصعبة. وزاد الله المدينين لك ما بقيت الدنيا ونحن من هؤلاء. استمع إليّ يا "قورقود" فقد حدثك "بكيل" كثيرًا عن سبب ما جرى لنا. اسمع لي أنا الأخرى؛ "عندما عاد بكيل إلى المنزل وقال لي، قد ضجرت من الأوغوز. وأصبحت عاصيا لهم. وسأجمع أشيائي وممتلكاتي ولنرحل من هذه البلاد"، فقلتُ لـ "بكيل": "غضبت من الأوغوز، لا يوجد مشكلة، اغضب. وغضبتَ من "بيرك" لا توجد مشكلة، اغضب! ولكن لا تغضب من مليكنا، ملك الملوك بايندر خان. ولا تعصه. لو عصيته ستحل بك المصائب، وها هي قد حلت بالفعل". كان يقول "سأرحل وأذهب إلى جورجيا"، هل هذا كلام معقول؟. ويقول "لقد تمردتُ على الأوغوز، اعلمي

هذا، فقلت له: "هل هذا كلام معقول؟! تمردت أم لم تتمرد على الأوغوز، هذا كلام خطأ، التمرد عمل من عمل الشيطان. فماذا حدث بعد ذلك؟! ألم يستول العدو وعلى رأسه "قارا تكور" على حدود البلاد؟! ألم ترسل ابنك إلى الحرب، وكاد أن يقع أسيرًا في يد الظالم "تكور". إنني أقول لك، لا يفلح عمل من يتمرد على الملك". والآن يا قورقود، حدث ما حدث، والحمد لله أن أرسلك الله لنا. وأنقذتنا من هذا البلاء، ولكن الآن، يا قورقود، أقول لك، بالله عليك، "أعد "بكيل" إلى الطريق الصواب. اجعل الملك "بايندر خان" يعاقب بنفسه قازان، و"بيرك". وليعرف بنفسه ذلك. ماذا حدث الآن، لقد مرت السنون، ويقوم "بكيل" بحراسة حدود الأوغوز. ويحميها بكل قوته، فلا يستطيع حتى الطائر أن يخترق حدود الأوغوز في أي ساعة من ليل أو نهار،...

كانت "سورمالي جه تششمه" تنفعل تدريجيًا وأنا أسمع لها. لقد انفعلت وانفعلت، ثم في النهاية صمتت. فقلت:

- أيها الأخت "تششمه"، مع أن كل ما قلته صحيح، فأنا أستودع عندك بكيل. لا تدعيه يذهب للعدو الكافر. هو الآن في السرير. اجعليه يأكل ويشرب ويستريح. وبالطبع سأوصل كلامك إلى الملك بايندر خان. وسأتحدث مع "قازان" أيضًا. لا يوجد في الأمر شيء. وتحلون هذا الخصام كما أمر الله، وليذهب وليمض إليَّ حال سبيله. ولكن أريد أن تخبريني عن شيء. كيف عرف العدو بمرض بكيل، وأنه لن يستطيع أن يواجه الجيش؟! هل عندكم جاسوس في منطقتكم؟!

صمتت "سور مالي جه" لفترة، ثم تأوهت وقالت لي:

- أنت تسأل، يا قورقود، عن من المذنب؟ أنا المذنبة. نعم، لا تنظر إليّ هكذا. الذنب ذنبي. حكاية هذا الأمر طويلة والشجار الذي دار بين "بكيل" و"بيرك" له سبب. هل تتذكر يا قورقود، كيف خطفني(*) "بكيل" ووضعني على سرج الحصان؟! ألست تتذكر؟ ربما لا تعرف أنت هذا الأمر. كان بيرك في تلك الآونة يحوم حول منزلنا. كانت هناك مدة على زفافه. خرج بيرك قبل الزفاف إلى أوغوز الخارج. فرآني وأرادني وحينئذ جعله "آلب روستم" يصرف نظره عني. وأنت تعرف أنني لا أخفي عنك شيئًا. كنتُ أنا و"آلب روستم" يحب بعضنا بعضًا، ما إن يحل الليل ويُضيء القمر بنوره الحجرة الموجودة خلف منزلنا، كان يأتي هو أولاً ثم آتي أنا خلفه ونتبادل كلمات الحب بيننا...كان والدي أحد معاوني قازان، ذهب مع "أروز قوجا" إلى إحدى المعارك، فأسر والدي ولم يرجع. فمن مَن يطلبني "آلب اوستم" إذن؟! كنا ننتظر ونقول سيرجع اليوم، سيرجع غدًا، ولا أعرف مطلقًا من أين ظهر "بكيل". لقد أغواه لخطفي أبناء أخو "رستم". فاتفقوا سويًّا ورتبوا الأمر. وكان هدفهم يا قورقود، هو أن يتزوج "روستم" من أختهم. فخطفني الأخوة عنوة وألقوا بي أمام "بكيل". لم يكن لـ "آلب روستم" علم عن هذا الأمر. ما إن رآني

(*) ينتشر في الأدب الشعبي الأذربيجاني، موضوع "خطف البنات"، وهو أحيانًا يكون بموافقة الشاب والفتاة، بسبب عدم موافقة الأب على الزواج من هذا الشاب، فيتفق الاثنان ويهربان سويا ويتزوجان بعيدا، وبعد فترة يتم إرسال مرسال من قبل الشاب للتصالح مع أهل العروس ويدفع أحيانا لأهلها ميرا جديدا وتتم مباركة الزواج، وهناك حالة أخرى وهي خطف الفتاة رغما عنها وحملها إلى بيت الفتى الخاطف، وبعد فترة يتم أيضا التصالح بين الأسرتين وإعلان التواصل بينهما، وهذا الأمر منتشر أيضا في الروايات الحديثة (المترجم).

"بكيل"، حتى سال لعابه، وحملني على حصانه، وفي لمح البصر، رأيت نفسي في منزل "بكيل" وما إن علم "آلب روستم" بهذا حتى غضب غضبًا شديدًا من اثنين من أبناء أخيه ومزقهم كل ممزق. آه من تلك الأيام والليالي المقمرة...

كانت "سور مالى جه" تتذكر تلك الأيام كلما تحدثت وتتفطر من البكاء. وكنتُ أنا أتخيل هذه الأحداث أمام عيني.

- ظلت عينا "بيرك" علي، يا قورقود. وما أسوأ عينيه، لا إيمان فيها. يريد أن ينتقم الآن بعد كل هذه السنين من "بكيل". لا تجعله يفعل ذلك. لقد أصبح "آلب روستم" ذليلاً، وأصبح مجنونًا وسط الأوغوز. لقد قتل أخوين. هل تتصور أن يهنأ بعيش من قتل أخوين؟! أنا المذنبة. فليغفر الله لنا ذنوبنا.

والآن لقد أرسلت"بكيل"، إلى الصيد، قلت له "اذهب، ودع الهم والحزن. فانكسرت قدمه في الصيد. لقد قال لي هذا فقط. إنني الآن أضرب رأسي، وأقول لك، لقد حدث ما حدث. أنت تسألني عن جاسوس، لقد قمت بعمل الجاسوس دون أن أعلم. لقد قلت للجارية نبأ سقوط "بكيل" من على الحصان وكسر قدمه. فقد سألتني قائلة: "ماذا حدث يا سيدتي، يبدو على بكيل التعب". فقلتُ لها:

"اسكتي، أيتها الفتاة، لقد انكسرت قدم سيدك، ويرقد في السرير، لا يستطيع النهوض. فلا يعرف أحد بهذا، فلا يصل الخبر لـ "قارا تكور". مطلقًا".

ذاع الخبر من جارية لأخرى ومن خادم لآخر، حتى وصل للعدو. وعرف الجميع به. لو عرف "بكيل" بهذا فسوف يسلخ جلدي. أنت تبحث عن المذنب، المذنب هو أنا...أنا.

(كنتُ وأنا أسمع هذا الكلام، يا سيدي الملك، بدأ أمر "بكيل" يتـضح لي من كل جوانبه. لقد فكرتُ كثيرًا بشأن المشاجرة التي دارت بين "بكيل"، و"بيرك"، وبشأن سبب ذل "آلب روستم" وهيامه على وجهه في البلاد. وفي النهاية توصلتُ إلى أمرين مهمين. وحكيتُ هذين الأمرين للحجـر "تـور". وكان سماع الحجر "تور" لي في هدوء إشارة إليّ على أنه يؤيدني على ما قلته. الأمر الأول هو ممنوع قول أي شيء لجارية. فمهما تعمل الجاريـة فلن تكون كالمرأة. فمهما ألبستها أغلى الثياب فلن تكون امرأة أمـا الأمـر الثاني فهو يتمثل في...).

ينقطع المخطوط. ويبقـى حديث قورقود. عن الأمر الثاني لما بعد. ولكن إذا انتبه القـارئ الواعي، سيرى لمـاذا اسـتخدم قورقود هذه العبارة "مهما ألبست الجارية أغلى الثياب، فلن تكـون امرأة". في نص السيرة الأصلي.

***

ذهب بي النوم يا سيدي الملك هذه المرة إلى منزل "قازان". وجاء "شير شمس الدين" في منامي. ولكن مهما حاولت، لا أستطيع أن أتذكر هذا المنام. يسامحني الملك إن شاء الله. ما عرفته فقط هو أن ارتباط "شير شمس الدين" بـ"قازان" ارتباط وثيق، لدرجة أنه لو قال له مُت فسيموت، أو ابق، فسيبقى "لو قال له ألق بنفسك في البحر فسيلقي". ولم يكن هناك فرق بين رأي قازان وشير شمس الدين في القضية المتعلقة بالجاسوس، وكأنهما رجل واحد. كلماتهما واحدة، وقلوبهما أيضًا واحدة. فكان "شير شمس الدين" أثناء مجلس الشورى الذي عقد بخصوص الجاسوس ينظر إلى فم قازان فكان يقول مثلما يريد قازان أن يقول.

أشار الملك "بايندر خان" في هذا الموضوع عليَّ أن أتوقف عن الكلام. فتوقفتُ عن الكلام في الحال، وصمتُ فقال بايندر خان:

- هذا الذي تُطلق عليه شير شمس الدين، يا قورقود، هو رجل قليل الأدب. لا يدرك ما يفعله. يفعل الشيء، ثم بعد ذلك يفكر فيه. يقوم بالعمل بدون اكتراث. أتذكر ذات مرة أنه دخل على حضرتي دون إذن. لا يعرف ما يقول ولا يشعر بكلامه. هل يمكن أن يكون له علاقة بالجاسوس؟ فقلت:

- لا أظن ذلك مطلقًا، يا سيدي الملك. فهو لا يعرف أكثر من الآخرين.

غاص بايندر خان ثانية في التفكير، وتعرج حاجباه وتحدقت عيناه، وأخذ يفكر، وبعد مرور مدة وجيزة أذن لي بايندر خان بالحديث ثانية وقال:

-أكمل كلامك. ودع حديث شير شمس الدين فيما بعد، وأكمل حديثك، أو ربما أنهيتَ ما أردتَ أن تقوله؟

(في الحقيقة، ظللتُ في حيرة من أمري. وكنتُ أجد صعوبة في كل ما قلته وكل ما رأيتُه في أحلامي داخل موضوع واحد. وقد فطن بايندر خان لهذا، فلم يصر على أكثر من ذلك).

قال بايندر خان:

- حقيقة إن كل ما قلتَه يشير إلى اضطراب الأمور في الأوغوز. مجرد إشارة لذلك. أتعي ماذا أريد أن أقول يا بني؟

فقلتُ:

- نعم، أيها الملك المعظم، أفهم ذلك.

قال بايندر خان:

- هيا فلنستخرج النتائج.

فقلتُ:

- نعم، سيدي الملك، حان وقت النتائج، ثم شعرت بعرق بارد في ظهري.

نهض بايندر خان واقفًا، وبدأ السير في الحجرة. مع أن رأسي كان لأسفل إلا أنني ركزتُ، فرأيتُ أن قيلباش "يتابع كل حركة من حركات "بايندر خان"، وينتظر كلمة واحدة منه وشعر أيضًا أن الأمر قد طال وقارب على الانتهاء. رمقني بايندر خان بطرف عينه ليرى هل أكتُب أم لا، وذلك قبل أن يبدأ في حديث نفسه. التقطت القلم بيدي، وأمسكته استعدادا للكتابة مرة أخرى بدأ بايندر خان حديثه ببطء وهو يتجول في الحجرة قائلاً:

- بالطبع هناك هرج ومرج في الأوغوز. لم تكن الأوغوز هكذا. لقد نبهني موضوع الجاسوس إلى أشياء كثيرة موضوع قازان وأروز قوجا، وأروز قوجا وبكيل، وبيرك وبكيل...وشكوى أوغوز الداخل من أوغوز الخارج، وأوغوز الخارج من أوغوز الداخل بسبب هذا الجاسوس...وذهاب قاضيليق قوجا إلى الحرب. وترك رفاقه له في يد الأعداء وفرارهم. وذهاب قيان سلجوق إلى "تلك جوز" وقيامه ببطولة في ميدان القتال. وتكلم قازان بكلام غير لائق وغضب بكيل منه وذهبه إلى جورجيا. وخلو الحدود من الحراسة. بسبب هذا الجاسوس...ودخول "شير شمس الدين" إلى حضرتي بدون إذن. وعدم سماع أحد من الساسة لكلامي، وامتناعهم عن الذهاب إلى حدود جورجيا، وظل الأمل معلقًا بـ "بكيل". يجب أن يسألني أحد. "هل أنا الملك بايندر خان بن قامعان أم من؟! " لا، لو تسير الأمور على هذا النحو، إذا فمن الأفضل ترك العمل. لقد تحول الأمر في الأوغوز إلى درجة أن عدم العيش أشرف من العيش. يقول "أروز قوجا" في الذهاب والإياب وهو يفتخر ويصرخ: "لولا ابني "باصات"، لأكل "تك جوز" الأوغوز فردًا فردًا، ولقضى عليهم. أين كان قازان، وأين كان "قاراجون"، وأين كان بيرك؟ يمنون علينا بـ"باصات"، وقام بيرك بحيلة، فذاع صيته، هذا كل ما حدث. وأنا أعرف هذا جيدًا. لقد أخبرني أحد رجال "بايبورد" بهذا. لهذا السبب الجاسوس...ماذا نفعل؟! بالطبع، هناك من يُدبر هذه الأمور؛ وبالطبع الذي وراء هذه الأمور ويُدبرها يقوم بعمله من خلال الجاسوس. والذي قلب الأوغوز هكذا رأسًا على عقب، هو نفسه الذي هرّب الجاسوس. أعرف هذا جيدًا، ما رأيك في هذا؟

(قال بايندر خان كلامه وصمت، ولكني شعرتُ أنه يريد أن يقول بعض الأمور الأخرى، ولكنه لم يقلها. وأُجلت بعض الأمور فيما بعد. لم يعط الملك قرارًا بعد، وعلى الملك أن يعطي قرارًا عادلا "يُحيط بكل شيء، لذلك فلا يزال يصمت، ويُدبر الأمر في ذهنه ويقلبه، ربما يجلب آخرين للتحقيق، على كل حال العون من الله، والمهم أن يعود النفع على الأوغوز).

قال بايندر خان:

- ...قازان هو قازان.

قال بايندر خان هذه الكلمات ثم صمت ثانية، وبعد ذلك خرج من الحجرة دون أن ينتظر ردًا. وبقيتُ أنا في الحجرة، ومعي...

ينقطع المخطوط هنا، ولكن بالرغم من هذا، يمكن إضافة الجملة الأخيرة كما يلي "...ومعي قيلباش". هذا المشهد الأخير يكمل الصورة المتعلقة بالأحداث التي وقعت سابقًا. ولكن بصفة عامة لا يمكن إغفال أن هذا المشهد يشكل موضوعا "غريبا في مضمون المخطوطة. يجسد صورة جديدة للأحداث عن طريق ما رواه "ده ده قورقود" للملك "بايندر خان"

من خلال أحلامه أو ربمـــا أراد قورقود إخبار الملك بهذه الأحداث تحت مسمى الحلم. وربمـــا هـــذا يخدم تقريب الرد على الـــسؤال الأخير وهو مـــن الجاســـوس؟" نشعر بهذا في كلام "بايندر خان" وهو يقول: "الذي قلب الأوغـــوز هكذا رأسًا على عقب، هو نفـــسه الذي هرّب الجاسوس اعلم ذلـــك جيدًا..."

ربما أراد بايندر خان بهذا الشكل أن يربط أمرين بعـــضهما ببعض. هما "فكرة أن الـــشخص الذي قام بعمل الهرج والمرج في الأوغوز، هو نفسه الـــذي قـــام بتهريب الجاسوس". وربما يريـــد بهذا بشكل خفي أن يـــذكر اســـم شخص بعينه. وكـــان قورقـــود يشعر برغبة الملك هذه.

...بعد ذلك ظللتُ ثانية أنا وقيلباش وبايندر خان في حجرتـــه. عـــاود الملك بعد الاستراحة جلوسه كما كان من قبل. ونظر إلينا وابتسم "قائلاً:

- فلنبدأ؟ أقول لك نبدأ. لقد استمعتُ إليك باهتمام يا قورقود. النتيجة هي: أن الأمور في الأوغوز ليست كما نريدها. هناك صراع، وقد تفاقم أمر السادة ولربما دمروا الأوغوز من الداخل. هذا الذي أردت أن تقوله، يا قورقود، أليس كذلك؟

أحنيتُ رأسي بأدب وقلتُ بهدوء نعم، سيدي الملك، هذا الذي أردتُ أن أقوله".

نظر إلي بايندر خان وواصل كلامه:

- حسنًا، جميل جدًّا، ولكن هناك أمر آخر، فلا نتهرب من الموضوع. فلنعد إلى موضوع هذا الجاسوس، وبعد ذلك لن يكون من الصعب اتخاذ القرار. أليس هذا صوابًا، ما رأيك؟

(من الواضح أن بايندر خان قد اتخذ قراره بالفعل. وأنه إن لم يصل إلى نهاية موضوع هذا الجاسوس، فلن يستريح قلبه. فماذا بقى لنا إذًا: تنفيذ كل شيء على مراد الملك. وترك كل شيء إلى مشيئة الله وإلى القضاء والقدر والطالع الذي كتب علينا...).

صدق كل منا نحن الاثنان - أنا وقيلباش - على ما قاله بايندر خان، وبعد ذلك توجه بايندر خان بوجهه إلى قيلباش وقال:

- أريد أن أرى شير شمس الدين. استدعوه، فليأت. كنت تقول أنه هنا. كان يتحدث مع قازان، استدعوه.

أحنى قيلباش رأسه، وبدأتُ في تنظيم الدفتر والقلم.

- هل تعرف، يا قورقود، يا بني، ما علينا أن نفعله، وما علينا ألا نفعله. إن أساس عملنا هو أن نجد هذا الملعون. ومن يكون هذا

الجاسوس. هذا أمر آخر. فالموضوع الأساسي أن نجد من قــام بهرج ومرج في الأوغوز. انظر، "هل لو قلت كلمــة "حلــوة"، يعنى ذلك أن فمك يصبح حلوًا؟! لماذا تصمت، تحدث.

مكثت مدة لا أعرف بماذا أرد على بايندر خان. قد ضاعت جرأتــي. ثم رأيت أن بايندر خان ينتظر الرد بإصرار، فقلتُ:

– أيها الملك المعظم، نعم، ليس معنى أن تقول كلمــة "حلــوة"، إذا فمك حلو. ولكن...

اهتم الملك بشدة وقال:

– ولكن ماذا، تحدث.

– ...ولكن في أحيان كثيرة عندما تقول كلمة "حلوة" يصبح فمــك حلوًا، يا سيدي الملك،

وضع بايندر خان شفته بين أسنانه بعد أن قلتُ هذه الكلمات، وغــاص في التفكير. ولم يتكلم بكلمة واحدة إلى أن دخل قيلباش ومن ورائــه شــير شمس الدين إلى حجرة الملك"

(لقد فكرتُ إذا كان الملك لا يريد أن يعاقب قازان وهو يعرف أن له يدا في الموضوع أو بعد ما عرف ذلك، إذًا فكل شيء يسرع نحو الهــدف الموضوع له مسبقًا. وأروز قوجا هو الوحيد الذي محل شك وتقصير لــدى الجميع" وهو الذي يريد جلب ذلك الخطر العظيم على الأوغوز. فمن يعلــم مدى تورطه في قضية الجاسوس، لقد خطا قازان خطوة ســليمة مبكــرًا. ذكر اسم "أزرو"، وقام شير شمس الدين بنفس الأمر، وإن شاء الله الإلهام من عند الله).

دخل قيلباش حجرة الملك يسير وراءه شير شمس الدين منحنيين. ما إن دخل شير شمس الدين الحجرة حتى خر على الأرض ووجهه لأسفل ولم ينهض. نظر بايندر خان بطرف عينه إليه بدون اكتراث. وقال لـ "قيلباش":

- أوقفه، أوقفه، فليأت هنا ويجلس.

كان جليًا أن بايندر خان غير سعيد من الحديث مع "شير شمس الدين". زحف "شير شمس الدين"من المكان الذي خر فيه حتى وصل وجلس أمام بايندر خان. قال له بايندر خان:

- أنصت إلي جيدا، يا شير شمس الدين، وأصغ إلى كلامي. لديَّ سؤال واحد لك ولا حاجة لكلام آخر إن لم تصدقني القول، فلا تغضب مني. قل لي يا شير شمس الدين، من الذي هرّب الجاسوس من الأوغوز؟

بدأ شير شمس الدين الكلام:

- نعم، سيدي بايندر خان المعظم، أنت تقول الصواب، أنت محق. أدام الله عزك، يا سيدي الملك...العون منك يا الله. وأدام الله ثرواتك...

(يقول "أدام الله عزك"، ويقول "أدام الله ثرواتك"، من أين خطر بباله مثل هذه العبارات ابن الوغد. ليس لهذا دخل في موضوعنا. ولكنها عبارات جديدة).

بدأ شير شمس الدين في الحديث ببطء كحجر الطاحونة:

- ...استمع إليَّ أيها الملك. منذ فترة طويلة وهذه الكلمات تخرق قلبي، ليتني رأيتُ وجهك المبارك قبل ذلك حتى أقول لك. أتتذكر

سيدي الملك عندما جمعنا جيشاً عند منطقة "درا شام" وسرنا معك إلى "آغجا قلعا"؟ هل تتذكر عندما أخذتني معك إلى الحرب؟ أقسم بالله أنه لم يكن هناك أحد قال لي اذهب للعدو أو لا تذهب. ماذا حدث لي حتى أنني أذهب لعدو بايندر خان دون إذنه. لا. لم يحدث مثل هذا. الله رب العالمين يعرف أنني لم يكن عندي علم بهذا. ولا أعرف شيئًا عن هذا. والآن قال أحدهم لك عني بعض الأشياء التي لا أساس لها من الصحة. لا تصدقهم أيها الملك المعظم.

ظل بايندر خان على جلسته التي كان عليها دون تغير في حاله. ففطن، أنه ليس للأمر حل، مهما قال ومهما سأل، فلن يستطيع أن يصل إلى الهدف الأساسي وهو معرفة كل ما بداخل شير شمس الدين. وكان مضطرًا للسماع والتصبر. فكل شيء يأتي بالحكمة، وقد قام بايندر خان بأمر حكيم وهو أنه أتاح الفرصة لـ "شير شمس الدين" أن يُفرغ ما في قلبه. فاضطر لسماعه بدون أن يتفوه بكلمة.

أما"شير شمس الدين"فكان لا يصمت، كان قلبه مليئا بالكلام فأخذ يتحدث ويتحدث:

- ...إنني أذهب للموت في سبيلك، أيها الملك. إنني أقوم بخدمتك ما حييتُ، ولا أقول حتى ولو لمرة "أنني تعبتُ". أدعو الله العظيم لك ليل نهار ، ولا أمل من ذلك فهل أنا أذهب للعدو بدون إذنك؟ استغفر الله العظيم، حاشا لله، لا تصدق هذا الكلام أيها الملك.

في النهاية رأى بايندر خان أن "شير شمس الدين" مثل الأمعاء الرفيعة تطول معك كما تريد، بدون فائدة. فلا حل للأمر. وقد ذهب غيظ الملك، فلا سبيل معه ليتكلم، فقاطع الملك كلام شير شمس الدين:

- شير شمس الدين ! انتظر قليلاً، خذ نفَسك. تُهلك نفسك، يا عزيزي. ليس عندي استعداد الآن أن أستمع إليك للصباح. أنت قلتَ، وأنا استمعتُ، وأقسمتَ وصدّقتك. فلا تتحدث في هذا الأمر مرة أخرى وغد ابن وغد، حدث ما حدث انتهى الأمر، هل فهمتني؟

قال شير شمس الدين دون أن يرفع رأسه "فهمت، سيدي الملك، لماذا لا أفهم، فهمتُ، هل أنا لا أفهم؟"

أراد الملك أن يُطيب خاطره قليلاً فقال:

- بالطبع، نعم تفهم، أنت عاقل، كيف لا تفهم؟! هيا فلنتحدث في الموضوع الأساسي، هل تتحدث يا عزيزي؟ ما رأيك؟

- كما تأمر سيدي الملك، أفعل، لا أرى شيئًا آخر؟ ولا أستطيع هذا أبدًا.

- إذا، أكرر عليك سؤالي مرة أخرى. أنت مستعد؟ حسنًا،...قل لي يا بطلي. من...هرّب...الجاسوس...من الأوغوز؟ قل !

رأى شير شمس الدين أنه ليس هناك سبيل آخر للتهرب من السؤال.

- "أروز قوجا" يا سيدي الملك، "أروز قوجا". سواء قتلتني أو شنقتني...

أراد أن يتحقق بايندر خان من الأمر فقال:

- تقول أنه "أروز قوجا"، أليس كذلك؟ ألا تقول كيف قام "أروز قوجا" بهذا الأمر؟! ألم تقم أنت بحراسة الجاسوس أيها الوغد؟!

تعجب شير شمس الدين، ونظر إليّ من طرف خفي وكأنه يسألني بعينه "ماذا علي أن أفعل؟". فكيف أفعل، هل أستطيع أن أقول رأيي؟ وكذلك فـ"بايندر خان" يسأل سؤالا صوابًا. فأنت بالفعل الذي كنت تقوم بحراسة سطح السجن، وقد هرب الجاسوس من ذلك السطح ! فما أهمية "أروز قوجا" في هذا الأمر؟ لم يسأل بايندر خان حتى الآن السؤال الأساسي. لم يسأل عن مجلس الشورى الذي عقد بشأن الجاسوس. من الواضح أن كل من اشترك في هذه الشورى قام بهذا العمل.

الأمر تعقد. لو سار شير شمس الدين في هذا الاتجاه، سوف ينكشف كل شيء. سيظل بايندر خان يتحرى الأمر بشتى الطرق لأنه يريد أن يعرف الحقيقة، وبعد ذلك الأمر إليه. هو الذي يحدد من يكون بريئا ومن يكون مذنبا، هل يصل عقلنا إلى عقل الملك. وهل خبرتنا تصل إلى درجة خبرته؟! بل هل إحساسنا يصل إلى درجة إحساسه؟! حتى الآن يريد بايندر خان أن يعرف الحقيقة فقط.

- تحدث، كيف حدث ذلك؟! تحدث من البداية. أحضرتم الكافر ابن الكافر الجاسوس إلى السجن وأغلقتم فمه. وأنت تقابلت مع امرأة تدعى "بوغازجا فاطمة" في تلك الليلة كل ما أقوله صحيح، تقابلت معها، لماذا لا تتكلم؟.

(أول مرة يذكر بايندر خان اسم "بوغازجا فاطمة". انظر كيف أخرج شمس الدين الملك من هدوءه. إذا، هذا يعني أن بايندر خان كان لديه علم عن "بوغازج فاطمة " . وكان يتعمد ألا يقول شيئا عن هذا الأمر. إذا ما هذا التحقيق؟ أليس كل شيء معروفًا لدى بايندر خان مسبقًا؟ لم يبق إذا سوى أن نذهب بأقدامنا إلى السجن الموجود في الناحية الأخرى من حديقة القصر).

اصفر لون شير شمس الدين وأصبح مثل لـــون الـــورق الموضـــوع أمامي، الذي لم أكتب فيه بعد والذي قدم إلـــى بايـنـــدر خـــان هديـــة مـــن "طرابزون". فقلت، ستخرج روحه الآن. ولكنها لم تخرج. صمد. ولكن الوغد ابن الوغد قال كلمة، جعلتني أشتاط غضبًا وأغرق في عرقي فقال:

- سيدي الملك، العون، دع "ده ده قورقود" يتحدث هو... قورقـــود يعرف كل شيء.

خيم صمت على جميع الأرجاء. لم يتكلم بايندر خان لفتـــرة طويلـــة. وفجأة قال:

- وغد، أنا أريدك تتكلم أنت. لماذا تلقي بذنبك علـــى الآخـــرين؟ وتقول "دع قورقود يتحدث"، لقد تحدث بالفعـــل، والآن تفـضل أنت تكلم.

(عندما قال بايندر خان "لقد تحدث قورقود بالفعـــل"، انكـــسر شـــير شمس الدين بهذه العبارة. يا إلهي، انظر كيف كُبِـــت. مـــن أيـــن يعـــرف المسكين بماذا تحدثتُ. لقد نصب بايندر خان له فخًا للوصول إلـــى هدفـــه؟ وقد تعجبنا لهذا. تحدث قورقود، أليس كذلك؟ تحدث قورقود...).

كان شير شمس الدين لا يستطيع النظر إلى وجه بايندر خان ولا يزال محني الرأس وجالسًا القرفصاء. وقد استمر في هذه الجلسة وظـــل صـــامتا. ولكن زحف قيلباش على ركبتيه متحركا من المكان الذي كان يجلـــس فيـــه واقترب من شير شمس الدين من الخلف. وضربه برســـغه بـــشدة وهمـــس فيه قائلاً:

- نفذ ما يأمر به الملك، إن لم تنفذ...لا تُنفد صبر الملك.

بالفعل أوشك صبر بايندر خان على النفاد. فلم يبق شيء بعد، سوى أن يستدعي الجلاد من السجن. لقد سمعتُ كثيرًا آهات وصيحات تصل إلى عنان السماء صادرة من السجن الموجود في الناحية الأخرى من حديقة الملك، لقد ذاع صيت هذا السجن فهناك الجلادون وما أدراك ما الجلادون، والمعذبون يدخلون الأسهم المحترقة في الأفواه...

ظل شير شمس الدين صامتا. ولم يرد.

لم يصبر بايندر خان أكثر من ذلك قائلاً:

- حتى تخرج روحه من جسده !...خذوه إلى السجن، وسلموه للجلادين.

فقد شير شمس الدين وعيه وأغشي عليه وعندما جره قيلباش وأراد أن يُخرجه من الحجرة، رق قلب بايندر خان ثانية وقال لـ "قيلباش":

- انتظر الآن، يا قيلباش. أخرجني الوغد بن الوغد عن صوابي. انثر الماء على وجهه، فليفق.

(يا إلهي، لو فُكت عقد لسان شير شمس الدين، فماذا سيقول؟! نعم، بالطبع، بالطبع "شير شمس الدين" هو نقطة ضعفنا. لم يقل بايندر خان مطلقًا لـ "يكيل" أنه يرسله إلى السجن. لقد أخرجه شير شمس الدين عن صوابه).

أفاق الماءُ الذي نثر على وجه شير شمس الدين. ودون انتظار أي كلام، أغمض عينيه ماسحًا الماء على وجهه وبدأ الكلام. وما أدراك كيف بدأ الكلام. فانطلق في الكلام و"بايندر خان" يرمقني بعينه خلسة وأنا أكتب. وبدأ وجهه ينشرح وواصل الاستماع باهتمام. وكان يبتسم من حين لآخر. وهل

غير الله القادر يعرف آنذاك فيما يفكر وما يدور في قلبه. أما ما قالـــه شـــير شمس الدين، فكان كما يلي:

-أيها الملك المعظم بايندر خان. أقسم بك أنه قلما تجد عبدًا مخلصا لك مثلي في كل الأوغوز. من الممكن أن أكون قد أخطأت وقتا ما، ولكن بـــالله عليك صدقني، أيها الملك، ثق بي أيها الملك. إنني أدخل في الموضوع بشكل مباشر بدون انتظار الإذن. كانت تلك ليلة مقمرة. لا...هناك بعض الأمـــور قبل تلك الليلة المقمرة. ليست لها علاقة بي ولا بالجاسوس. أمور متعلقة بـــ "قازان" أمير أمرائنا، عماد الأوغوز، كالمعتاد كان يسمح للناس بحمل متـــاع منزله في "اليغمة". جاء أوغوز الداخل لحمل المتاع. ولـــم تـــأت الأوغـــوز الخارج هذه المرة إلى حمل المتاع، أيها الملك.

سألني قازان:

- لماذا لم يأت هؤلاء "لليغمة"؟ هل تعرف شيئًا عن سبب هذا؟

فقلتُ:

- لا. لا أعرف شيئا. ولكن سيدي، ربما أنت نسيت، أنك لم تدعهم "لليغمة". وقلت، لنستبعد هذه المرة أوغوز الخارج.

صدق قازان عينيه ونظر إليَّ:

- هل الأمر كذلك؟

فأجبتُه:

- نعم، الأمر هكذا.

اتجه قازان، بوجهه إليَّ وسألني أيضا:

– يا شير شمس الدين، هل عدم استدعاء أوغوز الخارج "لليغمة" بسبب مشكلة أم لا؟ هل يغضب خالي "أروز قوجا" مني بهذا الأمر؟ ما رأيك؟

فأجبته:

– يا قازان، أنت تعرف جيدًا، أنه ليس لك علم عن أوغوز الخارج. يكفي أن يُخيم على أوغوز الخارج رائحة اختلاف. كان يجب عليك أن تدعوهم "لليغمة". فهم على قلب رجل واحد يا سيدي.

وافق قازان على كلامي:

– أنت تقول الصواب، الخطأ من عندنا، ولكن أعط إمكانية أن...

التفت قازان هنا وهناك وتأكد أنه ليس هناك أحد يسمعه غيري، ثم واصل كلامه قائلاً:

– لم تدعني "بورلا خاتون" زوجتي، وقالت، لو دعوت خالك وسادة أوغوز الخارج، فسوف أرجع إلى منزل والدي. أي سترجع لك أيها الملك المعظم. نعم، قال قازان لي هذا، لكن، يا سيدي، اسمح لي، أن يتوقف الحديث في هذا الموضع. فهمت، فهمت...وقد رأيت في اليوم نفسه شيئًا عجبًا. لقد أتى "بيرك" إلى "قازان"، فدب الشك في روعي، كنت لا أريد أن يخلو بيرك بـ "قازان" بك. ولكن لم يحدث هذا وطلبه قازان إليه. وكنت أعرف يا سيدي الملك مسبقًا فيما يتحدثان معا. ربما تسألني من أين كنت تعرف هذا؟. ستسألني، أليس كذلك؟ سأجيب على سؤالك. يا سيدي الملك. هناك أمر يجب أن أقوله لأنني أقسمت

من قبل على قول الصدق. ذات يوم قبل أن يأمر قازان ب"اليغمة" في منزله، حدث لقاء سري بين "بيرك" و"بورلا خاتون". لم أخبر قازان بهذا. ودارت في قلبي أفكار سيئة. ولكن أعتقد أن هذا اللقاء سيكون له أهمية فيما بعد.

التقت بورلا خانم مع بيرك ليلاً عند عين الماء الموجودة في حديقة منزل قازان. لا أعرف ما دار بينهما. ولا أريد أيضًا أن أعرف، ليس لي شأن بهذا الأمر. ولكن كنت قد اختبأت خلف شجرة التوت. وكنت لا أرى شيئًا. كانت الليلة حالكة السواد ولكن سمعتُ بعض الكلمات. لقد خفضا صوتهما، واستطعت فقط أن أسمع ما يلي من بورلا خاتون:

- اذهب غدا إلى قازان. وقل له يوجد جاسوس في الأوغوز. ولكن حان وقت هذا الأمر.

- إذا سألني قازان، لماذا تسكت إلى الآن، ماذا أقول له؟

- قل له، لقد فكرتُ كثيرًا ورأيتُ أن أوغوز الخارج لم يأتوا إلى "اليغمة"...وليس هذا صدفة.

سأل بيرك بورلا خانم بفرح:

- هل أوغوز الخارج لن يأتوا إلى "اليغمة" غدا؟

قالت بورلا خاتون:

- هل يمكن أن يأتوا بعد ذلك؟ لقد دبرتُ الأمر، بشكل محكم لدرجة أن أروز قوجا وابنه باصات لو عاشا ألف سنة، فلن يستطيعا النجاة من هذا الفخ.

- وبالطبع لم يمكن يا"خاتون"النجاة من الفخ الذي نصبته، فهو أمر معقد، وحينئذ...

أمرت بورلا خانم بيرك قائلة:

- انهض الآن، وأخبر قازان أن الجاسوس هو "باصات" ابن أروز قوجا.

- لا يا سيدتي "خاتون"، لا يمكن هذا. لن يصدقني قازان ! هل باصات هو الجاسوس؟ سيسألني قازان، ما الذي جعلك تنتظر إلى الآن؟ تأتي وتخبر بوجود جاسوس وفي الوقت نفسه تخبر من هو الجاسوس". يجب يا بورلا التصرف بشيء من الحكمة.

- إذا ماذا نفعل؟

- لا يوجد مشكلة، أرى أن يخبر أحد آخر قازان من يكون الجاسوس.

قالت بورلا خانم:

- حسنا، يا بيرك الحبيب...لا، لم تقل هذا. يا سيدي الملك، بورلا خانم قالت: حسنا، أيها البطل بيرك، مع السلامة، لا تنتظر اذهب إلى حال سبيلك.

فرد عليها بيرك قائلاً:

- إلى اللقاء، يا سيدتي بورلا خاتون.

ثم عبر بعد ذلك من السور، وعاد سرًا من حيث أتى يا سيدي الملك.

...والآن كنت أعرف أن بيرك سيخبر قازان بأمر الجاسوس. لم يمض سوى القليل على ذهاب بيرك لقازان، حتى استدعاني قازان عنده.

قال قازان:

- هل تعرف يا شير شمس الدين، بماذا أخبرني بيرك؟

- لا أعرف، يا سيدي، لم يقل لي. ولكن يا سيدي الملك، كنت أعرف ما أخبرتك به.

قال قازان:

- يوجد جاسوس في الأوغوز، يا شير شمس الدين، فماذا سنفعل إذا؟

بعد ذلك اتهمني قازان وأخذ يُعيرني. وقال إن بيرك أخبره بأمر الجاسوس بدلا مني وقال له بيرك "لماذا لا تعرف بأمر الجاسوس؟". وواصل قازان حديثه معي قائلاً: "أنت تخونني، أهذه هي خدمتك لي؟ الجميع في الأوغوز يعرف أمر الجاسوس، أنت وأنا فقط اللذين ليس لنا علم بهذا.

فسألته؟

- ربما هذه إشاعة من أجل الإفساد يا سيدي، أليس كذلك؟ ربما نشر خبر الجاسوس حيلة من العدو من أجل الإفساد. يريدون إسقاط الأوغوز في هذا الفخ.

غضب مني قازان قائلاً:

- لا تقل كلاما فارغاً. يقول بيرك أن بايبورد عندما وقع في الأسر كانت لديه بنت من حلال، ومعها...

حدق قازان بعينيه في بيرك وقال له:

- نعم، يا بيرك، ماذا حدث، هل شعرتَ بالخجل؟

ثم نظر إلى قازان ثانية قائلاً:

- المهم، لماذا تنظر هكذا؟ مـــا علاقـــة هـــذه الفتـــاة بموضـــوع الجاسوس. إنني أفكر أيضًا أن...

فسألته:

- فيم تفكر؟

فأجاب قازان:

- فيم سأفكر؟! أفكر عندما خرجتُ للصيد، وأقمتُ معسكرًا كبيرًا، هل تتذكر هذا؟ قام الجاسوس بعمله وأخبر العدو، فجاء جـــيش العدو وأنا غير موجود وهجم على الأوغوز وقام بأسر الأهـــل والأحباب، أليس كذلك؟وسألتك عن هذا، أليس كذلك؟

فقلتُ :

- نعم، بالفعل حدث، هذا يا سيدي، كما قلتَ.

- وكذلك، قام الجاسوس بعمله قبل زفاف بيرك، ووصل الخبر إلى العدو بابورد، فجاءوا وخطفوا بيرك وذهبوا به، ألـــيس كـــذلك؟ حدث ذلك قبل الزفاف؟! لقد حدثت مـــصيبة كبيـــرة لا يمكـــن وصفها، حدث أم لم يحدث؟!

طأطأ بيرك رأسه وصمت، فقلتُ:

- حدث هذا بالفعل يا سيدي. لقد وقعت أمور سيئة جدًا. لقد ظـــل بيرك ستة عشر عاما في الأسر عند "بايبورد"، هذا خزي عظيم يا سيدي...

- وظهر أيضًا أمر جديد. لقد خرج بكيل إلى الصيد، وتعثرت قدمه، فانكسرت، فأخبر الجاسوس أيضًا (قارا تكور)، وهجم جيش قارا تكور" على حدود الأوغوز. الجاسوس دائمًا، هل تسمع ما أقوله، يا شير شمس الدين؟

فقلتُ:

- أسمع يا سيدي، أسمع، لما لا أسمع؟!

تدخل بيرك في الحديث قائلا:

- سيدي قازان، يجب ألا يعرف بايندر خان أمر هذا الجاسوس الكافر، لو عرف، سوف يغضب غضبًا شديدًا.

قلق قازان وقال:

- مِن مَن؟

قال بيرك:

- من الجاسوس الكافر يا سيدي، خمن من سيغضب، بالطبع من الجاسوس الكافر يا سيدي.

رأيتُ يا سيدي الملك، أن بيرك هذا شديد المكر. يريد أن يملأ قلب قازان بالشكوك والمخاوف، ففطنت لذلك وقلقت أنا الآخر:

- سيدي، لو غضب بايندر خان، فسيغضب منا نحن. وسيسأل: "لوكان هناك جاسوس، فلماذا لم نعاقبه حتى الآن.

نظر إلى قازان قائلاً:

- ما تقوله صحيح، لو غضب الملك، فسيغضب منا. فلماذا إذًا لم نلق القبض على هذا الكافر ابن الكافر، أعني الجاسوس، حتى

الآن، ولم نضعه في السجن المظلم، ولم نذقه ألــوان العــذاب؟ أجب، يا شير شمس الدين.

سكتُ أنا وكذلك بيرك. فماذا يمكننا أن نقول؟! سأل قازان هذا السؤال وأجاب عليه بنفسه كالتالي:

- نحن لا نعلم من يكون هذا الجاسوس. هل تعلم أنت يــا شــير شمس الدين، من يكون هذا الجاسوس؟

- لا، يا سيدي، لا أعرف.

- وأنت يا بيرك؟

- أنا أيضًا لا أعرف.

- لم تقل شيئا عن الفتاة الكافرة بنت بايبورد، أليس لهــا علاقــة بأي شيء؟!

- لا، لم أقل شيئًا عنهــا. مــا قلتُــه فقــط أن عنــدنا جاسوســا في الأوغوز.

- أخذ قازان يفكر ثم قال:

- هكذا...ماذا يجب أن نعمل أيها السادة؟ كيف نعرف هوية هــذا الجاسوس؟

ألقى بيرك كلمة بحيطة وسط الحديث:

- أفلا يكون هذا الجاسوس من أوغوز الخارج، سيدي؟

- لماذا تذكر أوغوز الخارج؟ من تعني؟ هل تقصدون مرة أخرى أروز قوجا؟ لا يا حبيبــي، هــل أروز قوجــا جاســوس؟ لا ، ليس هو.

أخذ بيرك يتحدث ببطء:

- فإذا...

أوشك صبر قازان على النفاد فقال:

- فإذا ماذا؟ بالله عليك، أسرع، لقد انتصف النهار. بدأ السادة في "اليغمة". سيقولون بعد ذلك، قازان لم يشترك معنا في "اليغمة"، ولم يبين لنا أفضل ما عنده من ممتلكات. يا شير شمس الدين، هل خرجت بورلا خاتون من المنزل؟

- خرجت يا سيدي، توجهت إلى الغابة ومعها الجواري.

- كلما ابتعدت، كان أفضل. ما أردت أنت تقول أنت يا بيرك؟

- لا شيء يا سيدي، ربما أعني...

فرح قازان وقال:

- وجدتُها، علينا أن نستدعي "ده ده قورقود"، كان يقول دائمًا، "إن الله تعالى يُلهم قلبي، وأستطيع أن أخبر بعض الأخبار الغيبية". ونحن لم نجربه مطلقًا. الغيب غيب، ليس لنا شأن به، وليس له أهمية بالنسبة لنا، نريد فقط أن يخبرنا عن خبر من الماضي. من يكون الجاسوس؟ هل ما أقوله صواب أيها السادة؟

(انظر إلى هذا الوغد، يريد أن يشككهم في. ما المشكلة، سننظر ماذا يحدث).

أجاب كل منا، بيرك وأنا

- ما قلته عين الصواب، سيدي قازان.

- إذا، يا شير شمس الدين، أوجد قورقود بسرعة، وأحضره.

فقلتُ:

- سيدي قازان، العثور على قورقود ليس بالأمر الهين، لا ينفع الاستعجال، يلزم بعض الوقت.

- ليس لدينا وقت. ماذا نفعل إذا؟...آه، ممكن أن تذهب أنت، وأعلن عن "اليغمة"، واجعل السادة يذهبون بدوني، وقل لهم على لساني، كل من يريد شيئًا يحمله ويأخذه، كل ما لدي من ثروة حلال لهم.

نظر إلينا (قازان) نحن أيضًا، وقال:

- اذهبوا أنتم أيضًا، لماذا تقفون؟ "اليغمة" ستبدأ، اختاروا لأنفسكم أفضل المتاع.

تعجب بيرك وقال:

- وأنا أيضًا، هل تقصدني أنا أيضا يا سيدي؟ ليس لي حاجة في أملاك قازان. لا أريد قشة منها. لا يلزم لي شيء،

لقد تعجبت سيدي الملك، فيظهر إذن، أنني فقط الذي عيني على أمتعة وثروة قازان، فأسرعتُ قائلاً:

- يا سيدي قازان، فلتعلم أنه ليس لي حاجة في أي متاع من متاع بيتك، رضاك فقط يكفيني.

- حسنًا، حسنًا، هل أنا لا أعرفكم جيدًا؟ هل تعرفوني بأنفسكم؟!

لم أتبين هل قال قازان هذه الكلمة مستهزئًا أم من قلبه؟ لم أتحدث أنا ولا بيرك بكلمة واحدة. وتفقدنا قازان من أسفل لأعلى وقال لي:

- إذن، أخرج يا شير شمس الدين، وقل للسادة ما قلته لـــك، ثـــم اذهب إلى حجرة نومي، وبجوار الشمعدان أحضر "علبة الشعر" وتعال إلي.

خرجتُ، وذهبتُ عند بيت قازان وتوجهت نحو السادة المجتمعين أمام الباب، وقلت لهم كلام قازان:

- أيها السادة. يبلغكم قازان ما يلي "كل ما لدي ملك لكم اليوم، ملك للأوغوز"، أبدأوا "اليغمة".

ظهر أحد السادة وهو "ترسو زاميش" وقال:

- لا نستطيع أن نبدأ.

فسألته:

- كيف لا تستطيع البدء في "اليغمة"؟ يا "ترسو زاميش"؟

أجاب "ترسوزاميش":

- لم يصل أوغوز الخارج حتى الآن، كيف نبدأ من دونهم؟

كنت أعرف هذا الأمـــر، ففـــاتحتهم فـــي الموضـــوع دون الرجـــوع إلى قازان:

- أيها السادة، لن يشترك أوغوز الخارج هذه المـــرة فقـــط فـــي "اليغمة" مع أوغوز الداخل. تفضلوا، تفضلوا إلى الداخل، وأنت أيضًا ادخل يا "ترسوزاميش"

في البداية نظر السادة بعضهم إلى بعض، لم يعرفوا ماذا يفعلون، وبعد ذلك بدءوا التحرك ودخول المنزل واحدا تلو الآخر لم يمض كثير، وبـــدءوا

"اليغمة". وما أدراك كيف بدءوا؟!؛ استولوا على ما طالته أيديهم بالأيـدي، وما طالته أسنانهم بالأسنان، و ما طالته أعينهم بالأعين. نعم، يـا سـيدي، حملوا الأشياء أيضا بالعين! فأسرعت أنا إلى حجرة نوم قازان. ألف شـكر لله، أنه لم يصل إلى الحجرة أحد، وإلى الشمعدان، كان شمعدان من ذهـب، تذكار من سيل طرابزون، تمنيتُ أن أخبئه بعيدًا عن "اليغمة" حتى لا يصل إليه أحد، ولكن خفتُ من غضب قازان، كانت عيني على هذا الشمعدان...قد كان تحفة، كان من الذهب الخالص...نعود إلى موضوعنا، المهم أخذتُ علبة الشعر من جانب الشمعدان وخرجتُ، وأتيت قازان. كـان قـازان وبيـرك يتحدثان سويًا، كان بيرك يتحدث وقازان يستمع له باهتمام، عنـدما رآنـي بيرك، صمت. فتغير وجه قازان، ولكن عندما رأى علبة الشعر فـي يـدي، تذكر أنه هو الذي كلفني بهذا العمل. أخذ مني "علبة الشعر" وفتحهـا، كـان بداخلها "شعرة" طويلة فأخرجها من العلبة فسأله بيرك:

- مِن مَن "علبة الشعر" هذه، سيدي قازان؟

- أعطاني "علبة الشعر" هذه قورقود بعد وقـوع "شـوكلو مالـك" في الأسر، قال لي قورقود، خذ هذه، يا قازان، بداخلها شـعرة واحدة لي. شعرة مسحورة عندما تقع في مأزق، أوقدها وستراني بجوارك.

تعجب بيرك قائلاً:

- هل هي مسحورة؟

- نعم، مسحورة، بالطبع. الآن سنرى ما إذا كانت هـذه الـشعرة مسحورة أم لا. سيتضح الأمر الآن.

استدار قازان بوجهه نحوي قائلاً:

- ناولني هذه الشعلة. أحضرتُ الشعلة الموقـدة علـى الحـائط، وأعطيتها قازان. قرب قازان الشعلة، وأحرق الشعرة.

(نعم، كل ما قاله صحيح الوغد بن الوغـد. عنـدما أوقـد قـازان شعرتي، خرج من رأسي نار. وبالفعل في اللحظة التي أوقد فيهـا قـازان شعرتي، ظهرتُ بجواره).

ما إن أغمضتُ عيني وفتحتها، وجدتُ "قورقود" معنا في الحجرة مـن أين جاء، كيف جاء، لا أعرف يا سيدي الملك. إذا أردت اسأله هو، هو يمكن أن يجيب عليك، لا علم لي بهذا. وكذلك لا يعرف هذا بيرك ولا قازان. لقـد تعجبنا جميعًا...

(حتى لو لم تتعجب أيها الوغد، فماذا كنت أنت فاعلاً؟!).

لا، يا سيدي الملك، لقد أخطأت. قبل أن يأتي قورقود، وحتى قبل مـا يوقد قازان الشعرة، سألني قازان عن "اليغمة". أولاً بدأت "اليغمة"، وبعد أن أنهى السادة "اليغمة" أوقد قازان شعرة قورقود. نعم، بالفعل كانت "اليغمة" قد انتهت. كل من أعجبه شيء من السادة، أخذه وذهب به إلى منزله. والجميـع كان راضيا. سألني قازان:

- هل ذهب السادة؟

قلتُ:

- نعم، ذهبوا، يا سيدي.

سأل قازان:

- ذهبوا راضين؟

قلتُ:

- ذهبوا راضين يا سيدي، في غاية الرضا. فلم لا يرضون؟! كل ما طالته أيديهم أخذوه. فليرض عنك الله الأحد. وليكن في علمك سيدي، أنني لم آخذ شيئًا مطلقًا..نظر إلي قازان وأمعن النظر، ولم يقل شيئًا.

فقلتُ ثانية:

- لم يذهب بيرك، إنه لا يزال هنا، ما رأيك؟ هل أقول له: لتـأت، أم أقول له يذهب إلى منزله؟

- لا، استدع بيرك هنا، وتعال أنت الآخـر. لنحـل مـسألة هـذا الجاسوس.

سيدي الملك، لقد خرجت، واستدعيتُ بيرك. وجئنا نحن الاثنين إلـى قازان. آنذاك أوقد قازان شعرة "ده ده قورقود"، أتـذكر الآن، عنـدما جـاء قورقود، كان السادة قد انتهوا بالفعل من "اليغمة"، المهم أن قازان أوقد شعرة قورقود وتعجبنا جميعًا، لأننا عندما أغمضنا أعيننا وفتحناها رأينا قورقـود جالسا القرفصاء أمامنا. تلجلج قازان في الكلام في بداية الأمر وقال:

- قورقود، أأنت أنت؟ يعني أنت بالفعل حضرت؟

أجاب ده ده قورقود:

- هل استدعيتني أم كنت لا تصدق إمكانية حضوري بهذا الشكل؟

قال قازان:

- أأأناااا...أنا رأيتُ معجزات كثيرة، ولكن لم أر مثل هذا.

تلجلجتُ أنا الآخر في الكلام، يا سيدي الملك. لم أستطع النطق إلا بـ"أنا...أنا...أنا". أما بيرك، فقد كاد أن يفقد الوعي. قلبه قلب طائر، قلبه رقيق. الجميع يعلم هذا...

عاد قازان إلى وعيه وألقى السلام بأدب على قورقود:

– مرحبًا بك، يا قورقود، لا حرمنا الله من وجودك معنا.

ثم جلس هو الآخر القرفصاء أمام قورقود.

– هل تعرف يا قورقود أننا نحتاجك، وإلا لم نكن لنستدعيك ونتعبك...

قال قورقود لقازان:

– قل، يا قازان، ماذا حدث، قل.

ثم نظر إلينا أنا وبيرك وسأل: "من هؤلاء؟" ربما لم يتعرف علينا قورقود في بادئ الأمر، لأن الضوء لم يكن مُسلطا على وجوهنا.

قلتُ لقازان:

– سيدي، اسمح لي بالخروج، وسآتي فيما بعد.

قال بيرك أيضًا:

– سيدي، هل يمكن أن ننتظر في الخارج؟

نظر قازان إلى قورقود وكأنه يسأله "ما رأيك، يبقون في الحجرة، أم يخرجون؟"

قال قورقود:

- لا، دعهم يبقون، كانوا يقفون في الظلام، فلم أتعرف عليهم في بادئ الأمر، أنت شير شمس الدين؟ وأنت بيرك؟ تفضلوا تعالوا، تفضل يا قازان.

جئنا وجلسنا في ركن. وبدأ قازان كلامه:

- ألا تعرف لماذا استدعيتُك يا قورقود؟

- أعرف، يا قازان، أعرف، يوجد جاسوس في الأوغوز، من أجل هذا...

تعجب قازان، واستدار ونظر إليَّ نظرة حادة، وقال لي مُشتكيًا:

- الجميع كان يعرف هذا، إلا أنا. هل هذا صحيح؟ولكن دع هذا، سترى يا شير شمس الدين، شغلي معك...دع هذا، ما رأيك أنت يا قورقود؟ خبر صعب ذلك الذي قلتُه:

قال قورقود:

- نعم، يا سيدي، خبر صعب للغاية.

- ماذا نفعل الآن يا قورقود؟ فيمن نشتبه؟ على من نقبض ونعلقه في السجن؟ لا يمكن عدم القبض على الجاسوس. سيغضب بايندر خان منا جميعًا غضبًا شديدًا.

- أعلم أنه سيغضب.

- قل أنت، يا قورقود، الله تعالى يلقي في روعك الإلهام، فتنبأ عن بعض الأمور الغيبية. قل أنت، من الجاسوس؟

- لا تسأل يا قازان، لا تسأل.

- لماذا لا أسأل؟ هل يحرم السؤال؟

- قلتُ لك لا تسأل، فتندم بعد ذلك...

- لن أندم ! لن أندم. قل لي أنت فقط على اسمه الآن، سوف أُذيق هذا الكافر ابن الكافر ألوانا من العذاب، سآمر عبيدي السود أن يجلدوا بدنه حتى تصعد روحه...سيكون سجن بايندر خان له بمثابة نزهة.

هكذا قال قازان يا سيدي، لقد نقلتُ لك كل ما قاله قازان بالتفصيل. قلتُ لك ما سمعته. ولا يوجد كلمة ذهبت هنا أو هناك. استدار شير شمس الدين نحوي وقال لي: "أليس ذلك يا قورقود؟"

(تعلق طائر صغير في غصن شجرة الورد الأحمر في حديقة الملك، في هذه اللحظة كان هذا الطائر أفضل حظًا مني، ليتني كنتُ مكانه. لا أعرف، كيف سأنظر إلى وجه الملك بعد ذلك).

صمتُ. وواصل شير شمس الدين حديثه:

- أقول لك مرة أخرى، لا تسألني من يكون الجاسوس. كان قورقود يريد أن يتهرب من أن يخبر قازان عن أي شيء يتعلق بالجاسوس.

تضايق قازان. كم كان عليه أن يتوسل إلى قورقود؟! لقد تفاقم الأمر.

في الحقيقة عندما قال شير شمس الدين عبارة "لقد تفاقم الأمر"، يبدو أن قورقود كان يعلم مسبقًا من هو الجاسوس، وأنه كاد

أن يقول لـــ "قازان" من هو. ومن ناحية أخرى، إذا كـــان قورقـــود يعرف بشكل مؤكـــد مـــن هـــو الجاســـوس، فهـــل لا يمكـــن إذا معرفة من قام بتهريب الجاسوس. المنطق العادي يقول هذا. ولـــو كان الأمر كذلك، فلما إذن كل هذا التحقيق؟ ألم يكن كافيًا أن يـــسأل بايـــندر خـــان قورقـــود عـــن الجاسوس، وحينئذ شاء أم آبـــى سيضطر القول للملك. لو دققنـــا النظر نرى أن هذا ليس كافيًـــا. فإن هدف بايندر خان الأصـــلي والخفي شيء آخر. وسوف نشاهد بأنفسنا بعد ذلك كيف يحقق بايندر خان هذا الهدف.

في النهاية، يا سيدي، بعد مداولات ومحـــايلات وتوســـلات أخبرنـــا قورقود من يكون الجاسوس.

- أنت تعرف "بوغازجا فاطمة". الجاسوس هو ابنها الوحيد. أعلـــم ذلك، ولكن لا تندموا أيها السادة...

طار قازان فرحًا من مكانه ونهض على قدميه. وتنفسنا نحن الصعداء. ولكن اسود لون بيرك. كان لا يتوقع هذا الرد من قورقود. لقد قدمت للملـــك كل ما أعرف، وأرى أن هناك علاقة بين بيرك والجاسوس...

***

مما لا شك فيه كان "لالا" يخبئ الخضر في مكان سري بعيد عن الأنظار. كان هذا المكان السري يقع في حديقة صغيرة في الناحية الخلفية من قاعة العرش، وكان يوجد في ركن من أركان تلك الحديقة حجرة استراحة يدخل فيها الشاه فقط. كان يدخل هذه الحجرة ثلاثة أشخاص؛ الشاه نفسه، و"لالا"، وكذلك الخضر. كان لا يرى هذه الحجرة أي إنسان أو عبد آخر. من حين لآخر كانت الحديقة عندما تخلو من الأقدام مساء، يسمح "لالا" له بالخروج من الحجرة إلى الحديقة. كان يطوف في جميع أرجاء الحديقة وحيدا ويتسامر مع الورود والأزهار التي غطى عطرها جميع الأرجاء. وقد اختار لنفسه لقب "خطائي"(*). كان يُكنى بهذا الاسم في نهاية الشعر الذي كان ينظمه. كان الشاه نفسه عندما يستمع إلى هذه الأشعار يستريح ولا يمل. كان ما يُريح "لالا" هو إعجاب الشاه بالخضر. كانا من حين لآخر يلعبان الشطرنج سويًا. كان الشاه حفظه الله يُجيد لعبة الشطرنج. كان لا يُهزم مطلقًا. وكان الخضر حديث التعلم بهذه اللعبة. بالطبع لم يكن معهما سوى "لالا" أثناء اللعب، لذلك كان "لالا" يقوم بنفسه بخدمتهما. مع أن هذين الشخصين متقاربان ظاهريًا شكلا، إلا أنهما مختلفان تمامًا في الطباع. كان "لالا" يتابع هذا باهتمام. ففي حين كان الشاه شخصية شديدة الحدة والجسارة ومتعاليا لا يعفو عن أحد، كانت شخصية الخضر تتمتع بالحلم وحب السلام والطاعة ورقة القلب ولين الجانب. كان "لالا" من حين لآخر ينظر إليه ويقول "كم أنت سيئ الحظ". كان الملاذ الوحيد للخضر المسكين – منذ أن قدم القصر، هو تحسين عيش أبيه وأخواته البنات ورعاية "لالا" لهم. في الحقيقة لم يقل "لالا" لهم أي شيء بخصوص الخضر. فهذا الأمر سر على

(*) ذكرنا قبل ذلك أنه يقصد الشاه إسماعيل خطائي، وهو مؤسس الدولة الصفوية، وبجانب أنه كان ملكا، إلا أنه كان شاعرا أيضا من كبار الشعراء الأذربيجانيين الذين لهم دواوين شعرية كبيرة وكان يُكنى في شعره باسم "خطائي" (المترجم).

مستوى عال في الدولة. ولكن كان يرسل نقودا إلى أسـرة الخـضر باسـم الخضر نفسه. ويتابع أي مشكلات تواجههم ويقوم بحلها. لذلك كان الخـضر لا يُكن حبًا واحترامًا لأحد كما يُكن لــ "لالا".

كانت حياة القصر بالنسبة للخضر حياة مناسبة حتى وقعت حـرب "تشالديران"(*). فجأة تغيرت حياته بشكل كامل بعد هذه الحـرب الـضروس التي لا يرضى عنها الله.

دارت المعركة عند قرية تسمى"تشالديران" بين السلطان سليم العثماني والشاه إسماعيل. قاد الشاه إسماعيل المعركة بنفسه. وقسم القادة إلى سـرايا، وكان يعطي أوامر الهجوم أو التقهقر. نصب مركز قيادته فوق تل. كـان لا يمكن أن يدخل عليه أحد وهو في مركز قيادته يصدر أوامره. كان الفرسان يتلقون الأوامر من الشاه ويوصلونها حيث أمر. كان الخـضر فـي مركـز القيادة، يرتدي ملابس كملابس الشاه تماما، ولكن كان عليه أيضًا مـا يـشبه العباءة. كان يتابع حركات الشاه، ويفكر باهتمام في كلامه وأوامره، وكـان من حين لآخر يتابع سير المعركة من ثقب خاص في خيمة مركز القيـادة. وقد حدث أمر مفاجئ، وهو غياب "لالا" عـن الأنظـار والحـرب حاميـة الوطيس، فقد سقط من فوق حصانه، فانقض عليه العدو فانفطر قلب الخضر، ولم يستطع النظر، واستدار للشاه وقال:

- سيدي، إئذن لي، فلأقاتل في سبيلك، دعني أذهـب، ألـم يبـق لي سوى النظر من ثقب الخيمـة؟.. لا أسـتطيع البقـاء هنـا، والله قلبي سينفجر.

(*) وقعت "حرب تشالديران" في ٢٣ أغـسطس ١٥١٤م بـين العثمـانيين بقيـادة الـسلطان سـليم الأول (١٤٧٠م – ١٥٢٠م)، والدولة الصفوية بقيادة الشاه إسماعيل الصفوي، وقد انتهت هذه الحرب بهزيمة الصفويين. (المترجم).

كان الشاه يفكر، ولا يُعرف هل كان ينصت له، أم لا، ولكنه كان صامتا، كان في عالمه الخاص.

اقترب رئيس الحراس من الخيمة مضطربًا. فأسرع الشاه هذه المرة نحوه.

- سيدي الشاه، فداك نفسي...لقد أخفق الجناح الأيسر يا سيدي الشاه...

- أخبر خليل سلطان ذو القدر، يذهب لمساعدة الجناح الأيسر.

- انكفأ رئيس الحراس على وجهه قائلا:

- سيدي...فداك نفسي...مرشد العالم...

- ما الأمر، قل لي بسرعة، ماذا حدث.

- لقد خانك ذو القدر، لقد فر من المعركة، يا سيدي.

اهتز الشاه:

- فر؟ الملعون. خائن بن خائن، أين أين "اوسطاجلو عبد الله خان". ابحث عنه، وأوجده، وأرسله إلى الجناح الأيسر، بسرعة، لا تتأخر.

في هذه اللحظة قدم أحد الحراس مسرعًا إلى الخيمة. ونزل من فوق الفرس، وارتمى عند أقدام الشاه وقد جلب معه خبرا سيئًا:

- سيدي الشاه، لقد انكسر الجناح الأيمن.

سكت الشاه، ويئس قائلاً:

- حسنا، اذهبوا، اذهبوا جميعًا. يبقى الحراس فقط، ولكن فليأتوا أمام الخيمة. اذهبوا، لا، انتظروا، انتظروا لحظة، سآتي.

قال الشاه ذلك ودخل إلى الخيمـــة. كـــان الخـــضر رهـــن الإشـــارة أمر الشاه الخضر:

- أين نقابك؟ غط نفسك.

أطاع الخضر الشاه ووضع النقاب على رأسه. فالشكر لله على توفيقه، فبسبب ما بينهما من تطابق، كأنما وضعت مرآة كبيرة، وشخص ينظر على نفسه في تلك المرآة وبدأ يتحدث مع نفسه.

قال الشاه:

- اسمعني جيدًا. لم يبق إلا قليل من الوقت. لا تقطع كلامي، أيهـــا الفتى. اسمعني، اسمعني جيدًا. قبل قليل عنـــدما خرجـــتُ مـــن الخيمة ألقيتُ بنفسي وسط الأعداء. وكدتُ أقـــع أســـيرًا. تعثـــر الفرس، فألقى بي علـــى الأرض، وأصـــبحت تحـــت الفـــرس. وتحطمت قدمي. وقد أحاط بي العدو من كل مكـــان. فأســـرع سلطانعلي ميرزا أفشار - أنت تعرفه، اجعله في ذاكرتـــك لقـــد اخترق صفوف العدو وهو يصيح "سيدي الشاه، ســـيدي الـــشاه" خلصني من يد العدو. اسمعني جيدًا، امنح "ســـلطانعلى" عطـــاء كثيرًا لأنه خلصني من يد الأعداء. وعاقب "ذو القدر" بما يـــستحق، فقد سمعت بنفسك ماذا قام به من خيانة.

لقد تعجب الخضر(*). فكان لا يستوعب ما كان يقوله الشاه. فـــارتمى الخضر تحت قدم الشاه.

(*) لاحظ أيها القارئ العزيز أنه سبق أن نوهنا في مقدمة الترجمة أنه ثبت تاريخيا أن هزيمة الشاه إسماعيل الصفوي في موقعة "تشالديران" تركت في نفسه أثرا قاسيا، ولم يكن قد لحقت به هزيمة قط، فانصرف إلى العزلة، وغلب عليه اليأس، وارتدى لباسا أسودا، فقد كانت هذه المعركة بمثابة نقطة

– سيدي الشاه، فداك نفسي، ماذا كنت تقول؟! ما معنى قولك "لقد أنقذني "سلطانعلى"، وقولك وتعاقب "ذو القدر" بما يستحق؟

أمسك الشاه بالخضر من كتفه بقوة وأقامه:

انهض أيها الفتى على قدميك، ثم ألان صوته فجأة وقال:

– انهض على قدميك، أيها الشاه، انتهت المعركة بالفعل. وأنا سأذهب، أما أنت فستبقى. ارفع نقابك...

أسرع الخضر في رفع نقابه. نظر إليه الشاه في انبهار:

– تبارك الله الخلاق، ضع، ضع هذا مكانه، فلا ير أحد جمالك.

تعالت الأصوات من خارج الخيمة:

– سيدي الشاه، يا مرشد الكمال، السرايا...لقد قضي على السرايا. أسرع، فداك نفسي، العدو اقترب...حان وقت الرحيل...

استدار نحو الخارج:

– أنت تسمع، إنهم ينادون علينا. صاح نحو اتجاه خارج الخيمة. قائلاً:

– نعم، إني قادم، قادم.

تحول في حياة الشاه إسماعيل الصفوي، ونجد أيضا المفارقة الشديدة لحياة الشاه إسماعيل الصفوي قبل وبعد المعركة. لذلك أراد الكاتب عن طريق روايته أن يثبت أن الذي عاش بعد هذه الموقعة هو ليس الشاه إسماعيل الصفوي نفسه، بل هو شبيه له تم إعداده من قبل، والسبب في هذا –طبقا للكاتب– أن حياة الشاه إسماعيل الصفوي البطل لا تتناسب مع هذه العزلة التي عاشها بعد الهزيمة، إذا فالشاه إسماعيل الصفوي مات في المعركة بطلا، والذي عاش بعد المعركة نحو عشر سنوات كما هو ثابت تاريخيا ليس الشاه إسماعيل الصفوي. وهذه رؤية فنية أرد بها الكاتب أن يعالج بها موضوع المفارقة الموجودة في حياة الشاه إسماعيل الصفوي بما له من مكانة كبيرة لدى الأذربيجانين، وذلك عن طريق موضوع الشبه. (المترجم)

ثم أدار الشاه وجهه ثانية نحو الخضر، وغير صوته وألانه ثانية:

- أأنت مستعد؟ ستظهر من الآن بدوني وبدون "لالا"، ستظهر بنفسك وحولك فقط. لن أكون موجودا لا أنا ولا " لالا". ولا أحد يعرف مطلقًا شيئًا عن الخضر. افهم هذا، الشاه لا يموت. لا يموت أبدًا. أما أنا فيجب أن أموت. سألقي بنفسي في خضم المعركة. إما ينصرنا الله وإما ينصر سليم الأول هل تسمعني، أنت الآن ستخرج الآن أمام الخيمة. الحراس ينتظرونك. وأنا سأخرج من هنا وأشار إلى مكان خلفي للخيمة. انظر من هنا، هذا مركز قيادة سليم الأول...، هل تراه؛ مكاني سيكون هناك.

- سيدي الشاه، أنا...أنا لا أستطيع هذا، يا سيدي الشاه.

- ستستطيع، ستستطيع...هذه المعركة أمر عارض، بعد قليل ستشرق الشمس ثانية، ويبدأ غد جديد، وسيكون لك دولة. لا تتعجب، أتترك دولة مترامية الأطراف كهذه، سأرحل. وهذا سر عن الجميع، لن يعرف أحد بهذا. أنت ستصبح أنا الآن. بعد ذلك أنت ستكون الشاه في الظاهر...هل أنت مستعد؟

أحنى الخضر رأسه لأسفل وسأل بصوت منخفض:

- سيدي الشاه، من نخدع؟

استدار له الشاه قائلاً:

- انظر إلى عيني، أيها الشاه، لا نخدع أحدًا مطلقًا. ماذا حدث لك؟ لماذا تمتلئ عيناك بالدموع؟ تمالك نفسك. هذا أمر مثل لعبة الشطرنج. أما تخاف؟

- أخاف، يا سيدي الشاه، أقول، ربما "لالا"...

- لا، لا تخف. "لالا" انتهى، ألقى بحياته إلى الموت، ربنا يجعل مثواه الجنة.

سقطت قذيفة مدفع بجوار الخيمة، فانفجرت، وأصدرت الخيول صهيلا وضجيجا وتعالت الأصوات إلى عنان السماء:

- أنت حر، أيها الشاعر. هل تخيلت حدوث هذا قبل ذلك؟ اذهب، الحراس ينتظرونك. حان وقت الخروج. لقد قضي على الجيش...أما أنا...

- سيدي الشاه، يا مرشد الكمال...

- توقف عن الكلام. لا أستطيع أن أنقذ دولة في هذا الحجم من الخطر، ولكن يلزم أن أقوم بهذا الأمر. وهو أن أذهب. هل تعرف أيها الشاه، ورد إلى أذني في الصباح الباكر صوت نداء من السماء لقد سمعت هذا الصوت من قبل، كان هذا الصوت يقول: "ما شأنك هنا أيها الفتى؟ أنت قمت بعملك وانتهى الأمر. تعال إلى هنا، كل الذي يحبونك ينتظرونك هنا". لا أريد أن أعطلك أكثر من ذلك، اخرج من الخيمة، ولا تسألني شيئًا آخر. لن يعثر أحد على جسدي. عاش، عاش الشاه إسماعيل.

قال الشاه هذه الكلمات بصوت منخفض يشبه الهمس، وتوجه نحو الجزء الخلفي من الخيمة وأحنى رأسه ليخرج من فتحة هناك، وعند الخروج استدار بنظر إلى الخضر، وقال له في المرة الأخيرة ما يلي:

- أريد أيضًا أن تعرف شيئًا، هو أن اسمي فقط هو الشاه إسماعيل. أما في الحقيقة فلست الشاه إسماعيل. ثم في لمح البصر غاب الشاه عن الأنظار وهو يقول "الله، الله".

ظل الخضر وسط الخيمة في حيرة واستغراب. وازداد ضجيج الأصوات في الخارج. ولكن لم يجرؤ أحد على الدخول إلى الخيمة، وفي نهاية الأمر، شعر الخضر بجرأة داخلية حلت به، فعدل من حاله وهندامه. وسار بخطوات صارمة مثل الشاه وأتى إلى باب الخيمة. وعند باب الخيمة توقف برهة مكانه. واستدار إلى الخلف وألقى نظرة على الفتحة التي خرج منها الشاه، فوجدها مغلقة كما كانت. بالطبع لا مجال للرجوع. وابتهل إلى الله في قلبه طالبًا منه العون، ثم خرج من الخيمة. وظلت الخيمة خالية.

***

.... استدار قازان نحوي قائلاً:

...- هل سمعتم؟ يا شير شمس الدين ! لماذا تجلسون؟ انهضوا ! اذهبوا بأقصى سرعة (وأحضروا إليَّ هذا الجاسوس الملعون؟ قيدوه، وأحضروه إليَّ.

في لمح البصر خرجتُ أنا وبيرك من الحجرة وأسرعنا وغبْنا عن الأنظار. وبعد ذلك نظرتُ، فلم أجد بيرك بجواري. لقد طرتُ يا سيدي، كأني مُنحتُ جناحين وطرتُ، كان منزل "فاطمة بوغازجا" أعلى الوادي – أنا أعرفه – طرتُ حتى وصلت إلى هذا المنزل، وعندما وصلت سقطتُ من السماء إلى الأرض كالحجر، وطرقتُ الباب بكل قوتي. لم يرد أحد من الداخل. ثم تناولتُ حجرًا من الأرض وأخذت أطرق هذا الباب باستمرار. ولم يأت رد أيضًا. ولكن أتت أصوات مختلفة من الداخل لم أفهمها. كانت "بوغازجا" تتحدث عن أحد، يا سيدي مر كثير أو قليل، لا أعرف بالضبط، المهم أن الباب لم يفتح. انتظرتُ هناك كثيرًا. وبعد ذلك استدرتُ للذين جاءوا خلفي مسرعين وقلتُ لهم:

- اهجموا على الأوغوز، وأوجدوا ابن "بوغازجا" أينما كان، وأحضروه لي. اذهبوا بسرعة.

ذهبوا، ووجدوه، وأحضروه لي. فربطتُ رقبته بحبل سميك، وبعد أن كنت أطير منذ قليل، ذهبتُ إلى قازان، بخطى بطيئة رويدًا رويدًا. لقد استقبلنا قازان عند البوابة فنظرتُ، فرأيتُ أن بيرك هناك. ولكن قورقود لم يكن موجودا. فسحبتُ الجاسوس وطرحتُه أرضا تحت أقدام قازان وقلتُ:

- ها هو الملعون. وأضفتُ قائلاً:

- هذا هو الجاسوس، يا قازان، تحت أقدامك.

ضرب قازان كفًا بكف، وانتابته نوبة ضحك. وضع يده على خصره وبدأ يعبر فوق هذا التعيس من طرف لآخر، وصرخ فيه قازان وركله قائلاً:

- كم عمر هذا. هذا فتى ساذج. ولكن انظر إلى ما قام به من أعمال. قل أيها الملعون، متى بدأت بالتجسس. مع من أتحدثَ عندما كنتُ في رحلة الصيد، كيف جَرأتَ العدو على الأوغوز؟ من الذي يعاونك؟ قل.

ظل الجاسوس في مكانه يتأوه، وصمت، ولم يتكلم بكلمة. فأمر قازان:

- خذوه، وعلقوه في البئر. هناك سيعود له عقله، ويقول الحقيقة، خذوه.

كان البئر هو سجن قازان. حُفر على شكل عدة طوابق، كان كل طابق يسع أسيرًا. الله لا يُري عبدًا ذلك البئر. عندما يسقط الأسير، تتالى الصرخات. كانت طوابقه كثيرة. لا تتحمل الأنف رائحة العفن وكنا نضع على الأفواه حجر الرحل، ونرفع الحجر ونلقي عليها الماء والطعام، كل من طابقه. كانت الفئران ترتع في قاع البئر. كان من حين لآخر تهجم على الأسرى وكان صوت الآهات والصراخ تخرق الآذان. الخلاصة أننا وضعنا هذا الملعون في البئر. فلم يصدر عنه صوت أيضًا، فرفع الخدم عنه حجر الطاحونة، ودفعوا به خارج البئر. جئتُ أنا الأخر إلى قازان. كان بيرك يتحدث مع قازان في موضوع ما، يا سيدي، لم أعرف فيما كانا يتحدثان. بمجرد أن رأياني، صمتا عن الكلام. وسألني قازان:

- هل علقتم الملعون في البئر؟

قمتُ بالرد على قازان قائلاً:

– علقناه يا سيدي. كان هناك مكان فارغ في الطابق الخامس. علقناه هناك. لو تحرك حركة بسيطة فسيسقط مباشرة إلى قاع البئر بين القمامة والحشرات. لن يستطيع أن يأخذ نفسه، لا توجد مشكلة. سيعود عقله إلى رأسه.

قال قازان أيضًا:

– حاولوا أيها السادة، ألا يموت هذا الكافر ابن الكافر. ربما نتعرف منه على بعض المعلومات. ليُعرفنا إياها. فليظل يومين، يكفي له ذلك، وأخرجوه، ولكن قبل أن تحضره إليَّ يا شير شمس الدين، صب عليه الماء، فعلى الأقل لتخف رائحة العفن منه، وقم بتنظيفه.

رد بأدب.

– على الرأس، يا قازان.

دعا قازان بيرك للداخل. فدخل الاثنان إلى مجلس الشورى الخاص بقازان. ولم يدعواني، ولم أذهب معهما، لا أعرف يا سيدي، فيما تحدثا. الشيء الوحيد الذي عرفته هو أن بيرك ترك قازان بعد منتصف الليل بكثير، عندما غير القمر مكانه في السماء وسار وسط النجوم.

طلع النهار وقبل أن يستيقظ قازان من نومه، استدعتني "بورلا خاتون" إليها، فأتيت إليها. فسألتني:

– شير شمس الدين، قدم قورقود أمس، هل تسمح أن تقول لي ما سبب مجيئه؟

قلتُ :

- لقد دعا قازان "قورقود"، يا خاتون، فجاء، كان يريد أن يسأله سؤالاً، فسأله وأخذ منه الرد...

- ماذا سأله قازان، يا شير شمس الدين؟

- اسأليه هو، ويقول لك، يا خاتون.

- أنا أسألك أنت، ألا تقول لي؟

- أقول لك، ولكن هذا سر. يا خاتون. لا أستطيع أن أتحدث دون سؤال قازان

أصرت "بورلا خاتون" قائلة:

- شير شمس الدين، أيها البطل، هل يوجد لقازان سر عني؟

فكرتُ فيما يلي: "تعرّف الواصلون على الدنيا بالعقل، ما السر في هذا الأمر؟! بعد قليل سيعرف جميع الأوغوز بموضوع الجاسوس. وأننا أمس ألقينا القبض عليه وقمنا بضجة، وعلقناه في البئر. وقد رآه الجواري والخدم والطباخون والجميع. لماذا أمتنع إذا عن قول ما أعرفه لـ "خاتون"؟ سوف تؤذيني علاقة "خاتون" بـ "بيرك" إذا، لا أعرف..." في النهاية قررتُ أن أقول فقلتُ:

- خاتون، سأقول لك، سأقول لك أنت فقط. في البداية جاء بيرك. . ربما سمعت بهذا. . أليس كذلك، المهم. . جلب بيرك خبر الجاسوس. غضب قازان غضبًا شديدا. وطلب قورقود، فجاء "قورقود"، وسأله قازان من يكون الجاسوس، فرد عليه أيضًا، قالت "بولا خاتون":

- من كان الجاسوس؟

- سألت "بورلا" هذا السؤال وكأن ليس لديها علم عن الموضــوع، لقد لعبت علي، لا أعرف، يا سيدي، ربما لم يكن لديها علم حقا.

وسألت أيضًا قائلة:

- هل ألقيتم القبض عليه وأحضرتموه لقازان؟ ومن كان هذا الوغد ابن الوغد؟

فأجبتها:

- الجاسوس هو ابن "بوغازجا فاطمة" الوحيد، يا خاتون.

- قل هذا...ابن "بوغازجا"...لقد أخبر العدو بخبر خروج قــازان للصيد، وبزفاف بيرك، وبنبأ كــسر قــدم بكيــل فــي رحلــة الصيد،...ابن "بوغازجا"...الملعون، الخائن، الوغد...

فقلتُ لــ "خاتون":

- نعم، يا خاتون، هذا ما حدث. وقد قام بهذه الأعمــال. وضــعته في السجن. ربما يعود له عقله هناك، كما قال قازان.

- هل الأمر على هذا الحال؟ سيعود، سيعود له عقله إن شــاء الله، ولكن يا شير شمس الدين...

- نعم، يا خاتون.

- يا شير شمس الدين، أنا أشك أن يكــون الجاســوس هــو ابــن "بوغازجا". ماذا تقول في ذلك؟

- أنا، أنا ماذا أقول؟ أنا أقول ما قاله قازان. وهو ما قاله قورقود أيضًا، يا خاتون.

- و"بيرك"؟ ألم يقل بيرك من يكون الجاسوس؟

- لم يقل يا خاتون، لم يقل هذا.

- يعني، لم يقل...نعم، أذهب، حان الآن وقت استيقاظ سيدك من النوم. إن شاء الله يكون مزاجه على ما يرام، العون يا الله.

فقلتُ لها:

- سننظر يا خاتون

ثم انصرفتُ من عند "بورلا خاتون"، وخرجتُ إلى الحديقة، مررتُ على البئر. حيث يسمع صوت أنين ضعيف تحت الحجر. فحدثت نفسي: "إن شاء الله، يظل حيًا هذين اليومين، ربنا يستر فلا تخرج روحه. قال قازان يظل في البئر يومين، صحيح، فلا يمكن تحمل هذا العذاب أكثر من يومين، يا رب عونك أن يظل حيًا.."

بعد ذلك ذهبتُ إلى قازان. كان قازان قد دخل حجرة مجلس الشورى وجلس مكانه. فدخلتُ، وألقيت عليه السلام بأدب، ورد علي السلام. وبدأ قازان يحدث نفسه دون النظر إليَّ، فقال لنفسه:

"...ميدان المعركة كبير، وأنا وحدي، ويد واحدة لا تصفق"، ثم استدار قازان نحوي. قائلا:

- أسألك يا شير شمس الدين، ألم تسمع هذا المثل؟ "يد وحدها لا تصفق؟!

ماذا كان يمكن علي أن أرد به، فقد أجبتُ بما خطر على بالي:

- تصفق، يا سيدي قازان، لماذا لا تصفق اليد الواحدة...

حدق قازان عينيه وقال:

- ما هذا الصوت الذي يصدر عن اليد الواحدة؟

- من اليد الواحدة... يا سيدي، يصدر صوت الصمت من اليد الواحدة، يا سيدي.

("يصدر صوت الصمت من اليد الواحدة". ما هذا يا شير شمس الدين...دققت أنا الآخر النظر، فرأيتُ أن الملك أيضا يَصغي باهتمام بالغ لهذا الوغد. ربما تعجب قازان من هذا الرد. وربما من الصعب أن يكون قد فهم شيئًا).

سأل قازان:

- ما الأخبار عن مَن في البئر؟

فأجبته:

- لم يتكلم بكلمة. لم أسمع شيئًا سوى التأوه والأنين.

قال قازان:

- فلننتظر.

قلتُ :

- فلننتظر، يا سيدي.

ثم جاء رجلان من أوغوز الداخل. هذان الــرجلان همــا "صــارى قولماش" ابن "إلين قوجا"، و"دونابيلماز دولاك اوران" ابــن "ايليــك قوجــا". لقد تشاجرا أثناء "اليغمة". وقد قدما لــ "قازان" للإصـــلاح بينهمـــا. تنـــاول ابن قوجا السوط الفضي الذي ألقاه ابن إيليك من يده متقدمًا للأمام. فكر قازان كثير وسألهما:

– السوط لمن؟

فأجاب ابن ايليك فوجا:

– لي، يا سيدي. كانت يده مليئة بالأشياء التي أخذها أثناء "اليغمة"، لذلك كان يسير والأشياء تتساقط منه، فأخذتُ أنا شيئًا مما ســقط منه على الأرض، أأخطأتُ إذا؟

– اجعله معك فهو لك، أما لابن أبيك قوجا...فلديك سوط يا شــير شمس الدين، فضي، أين هو؟

فقلت غاضبًا:

– في إسطبل الخيل، يا سيدي.

– تعطيه لــ"دملوك اورن ابن ايليك قوجا.

فقلتُ:

– على الرأس والعين، يا سيدي، هيا لنذهب. وخرجتُ من حجــرة الشورى وأنا أسب وألعن هذين الــرجلين، وأوصــلتهما حتــى الناحية الأخرى من حديقة القصر عند البواب الكبيــرة. وقلــت لــ "دولوك":

- اليوم لا، لقد انتهى، غدا أو ربما بعد غد، تأتي إلي وتأخذ مني السوط.

ذهب الرجلان وهما يدعوان لي قائلين:

- شكرا يا شير شمس الدين، أحسن الله إليك. وعندما أردتُ الرجوع إلى قازان، رأيتُ خيالاً يبدو وجهه وجه امرأة، كانت جارية. في البداية لم أسمع شيئًا، فاقترب مني هذا الخيال وسألني:

- شير شمس الدين، سيدي، ألنت أنت؟ الصوت صوت امرأة، ولكن لم أر وجهها بعد، وكنت لا أعرف من هذه المرأة.

فسألتها:

- أنا... ومن أنت؟

- لم تعرفني، يا وغد. لدي كلام معك، اسمعني يا سيدي. لقد جئتُ إليك خلسة. فلا تردني من عندك خائبة.

كان الصوت يبدو حزينًا لدرجة أنني تأثرتُ به يا سيدي. فقلتُ، تعالى، تعالى، ماذا تريدين، طعامًا أم شرابًا، أم ملبسًا، من أنت؟ بنت من في الأوغوز، لم أتعرف عليك، قولي ما الأمر.

فبدأت في البكاء والنحيب، يا سيدي. وفجأة صمتت. وانتظرتُ حتى تهدأ وكانت وهي تبكي لو تقول لها "لا تبك"، لا تكف عن البكاء. فانتظرتُ صامتًا دون أن أتحدث.

سألتني المرأة ثانية:

- أحقًا يا شير شمس الدين، لم تعرفني؟

- لو كنت أعرفك، لما سألتك؟! من أنت؟

كان صبري على وشك النفاد. بالإضافة إلى أن قازان يبحث عني الآن.

رفعت المرأة النقاب عن وجهها، فلو أصابتني صاعقة، كان أفضل مما شعرتُ به وقالت:

- أنا يا سيدي.

فسألتُها: ألنت أنت؟ ثم قلتُ لها:

- كيف جرؤتِ وجئت إلى هنا؟ اذهبي من حيث قدمت، ليس لك حاجة هنا. عندما يطلبك سيدي سأخبرك، ولكن لن يطلبك. أما إن كنت تريدين أن تقابليه من أجل ابنك الجاسوس، فليس لي شأن بهذا الأمر، اذهبي إلى قازان، ولا أعرف هل سيقابلك أم لا.

نعم، يا سيدي، كانت هذه المرأة هي "بوغازجا فاطمة". الله أعلم، كيف أصبح حالها. وعندما أردتُ أن أتركها في الحديقة وأنصرف، جثت على قدمي واحتضنتهما قائلة:

- انتظر، لا تذهب، لديَّ كلمتان أريد أن أقولهما لك، ثم أذهب بعد ذلك.

- تماسكي يا فاطمة، وتمالكي نفسك، اهدئي، وانصرفي من هنا.

قلت هذا وأردتُ الانصراف ثانية. فهمّت أن تبكي ثانية وهي تقول لي:

- أنت لا تعرف أي أخبار عني وما حدث لي، اسمعني، ليت قدمي قد كسرت، وليتني استطعتُ الفرار منها حتى ولو بقدم مكسورة، ولم أستمع إليها. ولكن استمعتُ إليها يا سيدي، وسأقص عليك ما قالته إلى بالضبط.

قالت لي "بوغازجا" ما نصه:

- شير شمس الدين، سيدي. ألا تتذكرني؟ ألم يكن لديك علم بما حدث؟ سأذكرك. هل تتذكر يا سيدي منذ عدة سنوات، هل تعرف ما حدث؟ ألا تتذكر اشتراكك في هذا الأمر؟ بدأتُ يا سيدي، أسترجع أمام عيني ما تقوله وتحكيه وأخذت الأحداث تتوالى بعضها وراء بعض أمام عيني وهي تحكي وواصلت كلامها قائلة:

- ...ألا تتذكر؟ دقق النظر. أنا وأنت وحادثة "بارججوق". هل تتذكر هذا اليوم؟ قل، قل لي ولا تخجل، يا سيدي، يا أسدي...

ما إن قالت لي "يا أسدي"، كأن أحدًا طعنني بخنجر في بدني، يا سيدي... كانت هي الوحيدة التي تقول لي "يا أسدي". فتذكرتُ كل شيء على الفور. هل يمكن نسيان هذا؟! حتى لو أردت النسيان، لا أستطيع مطلقًا. ولكن لم أترك نفسي لهذا، وتمالكت نفسي، واسترجعت الأمر وكانت "بوغازجا" تقول:

- ...تتذكر عندما كنت بطل الأبطال، ولديك عنق طويلة، وكنت مفتول العضلات. كانت عيناك حالكة السواد كالليالي الخالية من النجوم. وكانت أصابعك تشبه المرمر الأبيض. ولديك قدّ

ممشوق. كنت شابًا في ريعان الشباب، يا أسدي، أتتذكر تلك الليلة المقمرة؟...

سيدي، رأيتُ الكلام يخرج مني كلمة كلمة دون أن أشعر، فقلتُ لها:

- ...كان عندك كلب يسمى "بارججوق"، أليس كذلك؟ وكان هناك تل صغير خلف منزلكم، أليس كذلك؟

كانت تهز رأسها وأنا أقول هذا الكلام، وتصدق على كلامي فتقول: نعم كلبنا كان يسمى "بارججوق"...وكان هناك تل صغير خلف منزلنا...

- عندما عبرتُ ذلك التل الصغير الموجود خلف منزلكم في تلك الليلة المقمرة وأردتُ أن أفتح الباب الموجود في حديقتكم، بدأ هذا الكلب في النباح.... انظري، كم كنتِ فتاة جميلة...

- لقد نبح كثيرًا، ولكن "بارججوق" لم ينبح على أحد آخر سواك. مضت تلك الأيام، يا سيدي، مضت إلى حال سبيلها. ولكن ماذا سأقول لك؟! العون منك يا سيدي، العون منك أنت فقط يا سيدي، لأنه...

لملمتُ نفسي وقلتُ لها:

- أي عون تريدين أيتها المرأة؟! ماذا تقصدين؟! أي علاقة ممكن تكون بيني وبين أم الجاسوس؟!

- لأنه بقي أثر، يا أسدي، من تلك الأيام التي لن تعود. ألا تعرف ماذا حدث في تلك الليلة ! قد حملتُ في تلك الليلة. لقد وضعت أمانتك عندي. لم أفش هذا السر لأحد مطلقًا، والآن أفشيته لك، فلتعلم هذا.

تعجبتُ، ولم أفهم في البداية ماذا تعني "بوغازجا" بهذا الـسر، وعمـا تتحدث.

فسألتها.

- أي سر تتحدثين عنه أيتها المرأة؟ هل أصابك الجنون؟

أجابت بوغازجا قائلة:

- لا. لم أجن؛ يا سيدي. السر الذي أتحدث عنه هو أن من تحبسه في البئر وتقيده ويعاني الظلمة هو ابني...

- ابني...لا...بل ابنك...

- نعم، يا أسدي، نعم، يا سيدي. اللسان يخطئ ويقول الـصواب. هو ابنك يا سيدي بالفعل ابنك...هو ابنك. يا شير شمس الـدين. السر الذي أردت أن أقوله لك هو ذاك. الشكر لله أن سمح لي أن أقول لك هذا السر. والآن أنت تعرفني، هذا الولد هـو تـذكار وأمانة تلك الليلة المقمرة. ساعدني، ولا تقـض علـى ولـدك، يا أسدي.

قالت "بوغازجا" كل هذا دفعة واحدة وبدأت ثانية في البكاء والعويل:

- ابني الحبيب، اليتيم الذي لم ير أبـاه. مـاذا أعمـل، مـسكينة لا حيلة لي.

لم يكن لدي رغبة في الكلام. وظللتُ واقفًا متعجبًا. لملمتُ شتات نفسي بصعوبة واستطعت أن أقول للمرأة بعض الكلمات، ولا أعرف من أين جاءت هذه الكلمات وكيف قلتها لها، يا سيدي، فقد قلتُ لها:

- كيف حدث هذا؟ كيف حدث هذا؟ لقد ضيقت علي الدنيا. ابني هو هذا الجاسوس؟! لقد فضحتني في هذه الدنيا. أابني هو هذا الجاسوس؟ كنتُ أقول للجاسوس سوف أهدر دمك بيدي. والآن أصبح ابني؟! كنتُ أقول له سوف أنزع قلبك من صدرك، والآن أصبح ابني؟! كان عليك ألا تخبريني بهذا النبأ. كان عليك ألا تضربي قلبي في الجبال السوداء. إلهي، أرشدني إلى الطريق الصواب، العون منك. انهضي يا فاطمة، انهضي يا فاطمة، انهضي على قدميك، لا تبقي هنا. لقد قلت ما تريدين، اذهبي، وارحميني، كيف أفكر، إلهي، لمن أشكو همي؟! أرشدني يا رب...أرشد عبدك. ما أفعل، ولمن أذهب...

- اذهب إلى قورقود، سيرشدك إلى الطريق القويم، أيها الفتى. لا تقض على ابنك. لا يغفر الله هذا الذنب.

قالت "بوغازجا" هذه الكلمات الأخيرة وانصرفت بهدوء.

(ظل الجميع في حجرة الملك وعلى رأسهم الملك ذاته مسلطين نظرهم إلى شير شمس الدين في قمة الدهشة. وقد نسيتُ أنا الآخر الكتابة. وقد بدا على حال الملك الغم والحزن. كان شير شمس الدين شاعرا - لا أعرف يا ربي كيف أعطيته هذا الإلهام، ولا أعرف أيضا لماذا منحته هذا. لقد دققت فيه النظر مرارًا وتكرارًا، فرأيتُ أنه لا يحفظ ما يقول، وربما كان يقول ما يخطر بباله).

***

...نظرتُ أيضًا، فرأيتُ "بوغازجا" تخرج من عند قازان. في البداية التفتت يمينًا ويسارًا، ثم وضعت النقاب على وجهها، وانصرفت وخرجت من البوابة. بعد ذلك لم أر "قازان" حتى الصباح. لقد انصرف إلى حجرته ولم يخرج.

سيدي، أقول لك ما حدث بعد ذلك بالتفصيل. لتكون على علم به. بعد ذلك، يا سيدي، جمع قازان في اليوم التالي فجأة مجلس الشورى وقدم بكيل. وكذلك "أروز قوجا" و"بيرك" وكذلك أنا الآخر جئتُ. بدأ قازان المجلس. لم يكن في حالته المعتادة. فأرجعتُ ذلك إلى موضوع "اليغمة". والآن لو نهض "أروز قوجا" وألقى عليه التهمة، بماذا سيرد؟! ولكن لم يقل "أروز قوجا" شيئًا، وقد بدا عليه الغضب وجلس في المؤخرة. قال "قازان":

– أيها السادة، الأمر كالتالي لقد تم العثور على جاسوس في الأوغوز. أنتم تعرفون "بوغازجا فاطمة"، الجاسوس ابنها. ولكن...إنه فتى ساذج، ماذا علينا أن نفعل، عليكم أن تقولوا.

تحدث في البداية "أروز قوجا" نفسه، وسأله دون أن يوجه وجهه لأحد:

– من جلب نبأ ما يقوم به هذا الجاسوس من أعمال، لنعرفه. في البداية لم يرد قازان أن يقول إن الذي أخبر بهذا الأمر هو بيرك.

– ما أهمية ذلك؟! معروف من هو الجاسوس، وقد أخبر قورقود من هو الجاسوس. فما أهمية أي كلام آخر.

تقدم "أروز قوجا" قليلاً قائلاً:

– لا، يوجد لذلك أهمية. الذي أخبر بهذا هو بيرك، أليس كذلك؟ لم يستطع أن يتحمل بيرك وتهجم على أروز قوجا في الكلام وقال:

– نعم، أنا الذي جلبتُ هذا الخبر، فماذا تريد؟!

صاح "أروز قوجا":

- أتتهجم علي في الكلام؟!

فقال قازان وسأل ثانية:

- أيها السادة، أيها السادة، اهدءوا. أنتم تخرجون بنا إلى أمر آخر، هذا ليس مكان شجار. ماذا نفعل مع هذا الشاب؟ لقد دعوتكم هنا لهذا السبب. ماذا نفعل لهذا الشاب؟ هل نقتله؟ أم نطلق سراحه؟ شاب مسكين، ساذج...ماذا نفعل؟

رأيتُ أن قازان بنفسه يوصل للسادة كل ما يدور في خاطري رويدًا رويدًا. والآن القرار النهائي لدى السادة. سيصدرون القرار النهائي. فلنر ماذا سيقولون. وسأقول رأيي في النهاية.

وفي الحقيقة، سكت"أروز قوجا"على غير المتوقع. وكذلك صمت بيرك هو الآخر.

في البداية تكلم بكيل:

- نحن لا نستطيع أن نقوم بأي خطوة دون أن نفكر، حتى لا نهيج الأوغوز.

دعم "أروز قوجا" كلامه:

- بكيل يتحدث صوابا. يجب علينا أن نحسن التصرف. حتى لا يُصيبنا أذى بعد ذلك.

انتهزتُ أنا الآخر الفرصة، وقلتُ:

- أيها السادة، لم يتحدث هذا الجاسوس بشيء. ولم يقترف ذنبًا. والله أعلم هل هو مذنب أم لا؟ أرى أنه لا يثبت على هذا الغلام ذنب.

استدار "أروز قوجا" نحوي قائلاً:

- نعم، ليس له ذنب في شيء.

واستدار أيضًا "بكيل" نحوي قائلاً:

- نعم، ليس له ذنب بالفعل.

استمع قازان لهذا، ونظر إلى بيرك قبل أن يقول كلمته النهائية وسأله:

- ما رأيك؟

فأجاب بيرك

- الرأي رأيك، وأنا أوافقك الرأي.

بعد ذلك أخذ قازان نفسًا عميقًا مستريحًا وأكمل كلامه:

- مادمتم تقولون هكذا، وأنه ليس له ذنب، فإذن ليس له ذنب. فرأيي مع رأيكم. اذهب يا شير شمس الدين، وأخرج هذا المسكين من البئر، واجعله يستحم، ونظفه، ثم سلمه إلى أمه، فليذهب وليمض إلى حال سبيله.

وافق السادة على هذا ونهضوا. وقال بيرك آنذاك:

- ولكن، يا سيدي، فليرحل الاثنان من هنا وليبتعدا عن الأنظار حتى لا يُقال بعد ذلك أن سادة الأوغوز رقيقو القلوب.

نظر السادة بعضهم لبعض بعد أن قال بيرك هذا الكلام. دون أن يتحدث منهم أحد.

وهكذا انتهى مجلس الشورى. وخرجنا جميعًا إلى الحديقة. وفككتُ وثاق الجاسوس بيدي وأخرجته من البئر. وجاء السادة ووقفوا بجواري. لم يكن للمسكين أي طاقة ولا قوة. كان لا يستطيع أن يقف على قدميه بعد أن خرج من البئر. فهوى على الأرض. وغطت رائحة العفونة المكان. أمر قازان الجواري أن يحضرن ماء وينظفنه بجوار البئر، فنظفنه بالفعل. وبعد ذلك أمرهن أيضًا، أن يذهبن ويحضرن من القصر ملابس جديدة، ويُلبسنه إياها، ويجلسنه في مكان ويقدمن له الطعام. أكل الغلام صامتًا وهو مطأطأ الرأس. وشرب وملأ بطنه. ولم يتكلم بكلمة. ولكن، يا سيدي، كان كلما نظر إليَّ خلسة، كان قلبي ينفطر. كانت عيناه تشبه عيني أبي "غفلت قوجا". وكنتُ كلما دققتُ النظر في وجهه، اكتشفت علامات شبه أخرى كثيرة. ونظرت، فرأيتُ أن السادة جميعًا بما فيهم قازان، يمعنون النظر في الغلام، فلم أفهم شيئًا. الخلاصة، بعد فترة قدمت "بوغازجا"، ودون أن تنظر لأحد منا، ودون أن تتكلم بكلمة، احتضنت ابنها وهي تمسح دموع عينها، وأوقفته، وذهبت به من بيننا وخرجت من الحديقة. وبعد ذلك ركب كل واحد من السادة فرسه دون أن يتحدث بكلمة، وخرج من الحديقة.

سيدي، أقسم لك أنني لم أر الغلام مرة أخرى لا هو ولا أمه. وكأنهما اختبآ في السماء. لا أكذب عليك وأقول إنني لم أسأل عنهما، بل سألتُ هنا وهناك، ولكن لم أتوصل إلى شيء. منذ حدوث هذا الأمر وأنا أتأوه بالليل ألما بسبب الغلام. سيدي الملك، ها هو الأمر كما حكيتُ لك، أسأل الله أن يلهمك الصواب، ولو أذنبتُ، فأستحلفك بالله أن تعفو عني.

قال شير شمس الدين كل ما سبق، ثم أغمض عينيه وطأطأ رأسه نحو الأرض وصمت. غاص بايندر خان في التفكير وهو جالس مكانه. وتركتُ أنا الآخر القلم من يدي، لأُريح أصابعي من الكتابة. وبعد أن ظل الوضع على هذا الحال فترة، نهض بايندر خان وخرج من الحجرة دون أن يكلم أحدًا منا. وقد أحزننا حال بايندر خان ولكن هذا الحزن كان متأخرًا، فقد قيل ما قيل. حل المساء على حديقة الملك. ولم يبق لأحد قوة لا على الكلام أو الكتابة أو الاستماع. فنهضنا جميعًا أنا وشير شمس الدين وقيلباش وخرجنا من الحديقة. أمر قيلباش الجواري أن يذهبن بنا ويحملننا إلى حجرة منفصلة. لم أنم جيدًا تلك الليلة، وفي الصباح الباكر، ارتديتُ ملابسي منتظرا قيلباش....

ينقطع المخطوط في هذا الموضع، ويبدو أن الأحداث التالية ليست كثيرة والفراغ ليس كبيرًا، ويبدو أنها غير مهم.

***

سطعت الشمس على حديقة الملك وأضاءت جميع الأرجاء وهي في كبد السماء. وقد اختلطت أصوات الطيور وخوار البقر وصهيل الخيول. وثغاء الأغنام وتداخل بعضها في بعض وهي تمضي إلى المرعى. وكانوا يوقدون المواقد، وأخذ أحد الخدم يطوف بالحديقة ويطفئ بمنديل مبلل المواقد التي أوقدت مساء أمس.

عندما خرجتُ إلى الحديقة دخل من البوابة السوداء فارس يتقدم حوالي ثلاثة أو خمسة فرسان نزلوا عن خيولهم. وربطوا الخيول في الإسطبل. استقبل قيلباش القادمين. وفكرتُ "من يا ترى هذا الفارس؟". وعندما اقتربت منه رأيتُ أنه بكيل، فقلتُ في نفسي "ربما جاء الدور عليه اليوم". وما إن وصل إلي ألقى علي السلام بأدب، فرددتُ عليه السلام. وكانوا قد أعدوا لنا مائدة الطعام بالفعل تحت شجرة كبيرة في حديقة القصر. حضر الطعام والشراب وملأنا بطوننا. وسألني قيلباش، "أنذهب؟" فسألتُه:

- هل استيقظ الملك من النوم؟

أجاب قيلباش:

- استيقظ، وينتظرنا، هيا، وتعال أنت أيضًا يا بكيل. تقدم قيلباش وسرنا معًا إلى حجرة عرش بايندر خان.

كان بايندر خان جالسًا مكانه. ولم يبد على وجهه أي أثر أو علامة من تعب الأمس.

ألقى الملك السلام على بكيل قائلاً:

- ادخل، يا بكيل، اجلس هنا، مرحبًا بك.

أحنيتُ رأسي لـ"بايندر خان" وجلستُ في المكان الذي وضعت فيه القلم والدفتر بالأمس.

كان بكيل صاحب حنكة وأدب في التعامل. سلم على بايندر خان بكل أدب واحترام. وانحنى بعمق. وجلس على الأرض في المكان الذي أشار إليه الملك. وجلس ڤيلباش القرفصاء خلف بكيل بالضبط. سأل الملك بايندر خان بكيل السؤال نفسه:

- بكيل، هل تعرف سبب استدعائي لك؟!

- لا، لا أعرف أيها الملك المعظم. خيرًا إن شاء الله. حدود الدولة هادئة، وليس هناك ما يسبب تعكير صفو الملك. هل وصل للملك نبأ ما؟ مُر يا سيدي الملك، بكيل تحت أمرك ورهن إشارتك.

- لا، يا بكيل. لم يأت أي أخبار غير مرضية. اعلم أني راض عنك كل الرضا. أنا مطمئن على الحدود مع جورجيا بسبب وجودك هناك. لقد دعوتك هنا لأمر آخر. سأستمع إليك. وأنت تتحدث إلي، وأنا أستمع إليك.

لم يستطع بكيل أن يستنتج الأمر مطلقًا، فاطمئن.

(حدثني بكيل كثيرًا بعد هذه الأحداث، إنه كان يظن في البداية أن الملك يعلم ما دار بينه وبين قازان أثناء رحلة الصيد. وقد شجعه أيضًا وجودي بجوار الملك، لأني جئتُ في منامه في تلك الليلة، وأخبرته أني عون له في هذا النزاع. إلهي، يا رب العالمين، منذ متى بدأنا نرى تلك الأحلام؟...).

- بكيل، يبدو لي، أنك اشتركتَ مع قازان في مجلس الشورى. وفي القبض على جاسوس الأوغوز، وإطلاق سراحه. لماذا حدث هذا؟! فذنب هذا الجاسوس واضح، والأذى الذى ألحقه بالأوغوز واضح للجميع أيضا. فما السبب في هذا؟ قل لي. لماذا اعتبرت أنتِ الأخر أنه بريء غير مذنب، ، ولماذا أيدت إطلاق سراحه، بدلاً من القضاء عليه؟.

أدرك بكيل آنذاك، لماذا استدعوه بسرعة إلى بايندر خان في هذه الساعة. كان يبدو هادئًا في البداية، ثم بدأت عليه علامات التوتر. ماذا يمكن أن يقول؟! تقريبا كنتُ أعرف ماذا سيقول، ولكن كيف سيقوله؟! كنتُ أعرف ذلك جيدًا. أما بايندر خان فكان يثق في بكيل جيدًا. ويعرف أن بكيل سيصدقه القول، لذلك استدعى بكيل للتحقيق لا بغرض الاشتباه فيه، ولكن وصولا إلى الحقيقة. فسأله الملك مباشرة.

في الحقيقة، ولو دققتم النظر، يتضح لكم أن بايندر خان سأل بكيل سؤالاً مباشرًا. ولم يلف ويدور كما فعل مع قازان وشير شمس الدين، أولاً لأن الملك يُقدر بكيل لشجاعته، ولقيامه بالخدمة الجادة على حدود الأوغوز مع جورجيا. وثانيًا لأن الملك يعلم أن بكيل رقيق القلب، وأن قورقود قد قص له بالكامل ما دار بين بكيل وقازان في رحلة الصيد.

بكيل بالنسبة للملك شاهد لا مثيل له.

كان بكيل بطلاً. لأنه تحدث أمام بايندر خان بكل شيء دون أن يحتال عليه؛ فقد قال بكيل:

- بايندر خان، أقول لك، لقد فكرتُ بالفعل في كيفية إنقاذ ذلك المسكين قبل أن أذهب إلى مجلس الشورى لدى قازان. أظنك تعجبتَ؟ لا تتعجب. سأقول لك ما حدث بالضبط. كنت قد جلستُ في منزلي قبل مجلس الشورى بيوم. فقدم صوت من الخارج:

- بكيل، بكيل !

كان هذا الصوت لامرأة. كانت تبكي وتنتحب. لم يسمع أحد في المنزل هذا الصوت، ولكن فكرتُ في البداية "ربما أتخيل الصوت"، ولكن لا، جاء الخادم وقال:

- سيدي، هناك امرأة في الخارج عند بوابة المنزل تبكي وقد افترشت الأرض وتقول "لن أتحرك من هنا دون أن أتقابل مع بكيل".

سألت الخادم:

- من هي؟ ما اسمها، وماذا تريد؟

قال الخادم:

- لم تقل لي شيئًا سوى: خذوني إلى بكيل، وسأخبره بما أريد. ماذا نفعل يا سيدي؟

سألتُ نفسي:

- الله، الله، يا تُرى من هذه المرأة التي تأتي في هذه الساعة من الليل؟ وقلتُ للخادم: "سآتي، فلتنتظر" وأخذتُ أفكر يا ترى هل جاء خبر من الأوغوز أو من جورجيا؟ أم تخلفت هذه المرأة الملعونة عن قافلة؟! ولكن لم تمر من هنا قافلة في الآونة الأخيرة حتى تكون قد تخلفت عنها. لقد توجهتُ إلى البوابة وأنا أفكر في كل هذا. فرأيتُه خيالاً لا تتضح معالمه. لدرجة أنه لا يتضح إذا كان لرجل أو امرأة. ولكن عندما تحدثت ميزتُ أنها امرأة.

وما أن وصلتُ قال لها الخادم:

- لقد قدم السيد، لو عندك كلام، قوليه.

رفعت المرأة النقاب عن وجهها، فما إن رأيتها كدتُ أن أخر على الأرض، ولكن تمالكت نفسي وقلتُ:

- ماذا تريدين أن تقولي؟ أنا بكيل، قولي ما لديك.

- استمع إليَّ، يا بكيل. ربما لم تتعرف علي. انظر إلى وجهي، ودقق النظر فيه جيدًا، هل عرفتني الآن؟

قالت هذا ورفعتْ رأسها وأظهرت لي وجهها. فقد عرفتُها، يا سيدي، كيف لا أعرفها؟ إنها "بوغازجا فاطمة"...

(نظرتُ إلى بايندر خان. فرأيتُه يضطرب في مكانه. وقد ازداد اهتمامه. ولم يقطع كلام بكيل. وكان يستمع إليه بشغف شديد، ملتزمًا الصمت حتى يتمكن من مواصلة الاستماع).

...نعم، يا سيدي، كانت هي المرأة التي تدعى "بوغازجا فاطمة".

فقد سألتني ثانية:

- ألم تعرفني، أيها الفتى بكيل؟

- عرفتُك، عرفتُك، ما الذي جاء بك إلى هنا...لماذا جئتِ؟ انهضي.

لم تنهض بوغازجا من مكانها. وازداد بكاؤها وعويلها. وفكرتُ في نفسي "سينطبق المنزل على رأسي". فقلتُ:

- لماذا تبكين؟ لماذا تنتحبين؟ ما الأمر، قولي. إن لم تقولي ماذا أفعل لك؟!

- بكيل، بكيل، أيها البطل بكيل. ما كنتَ تدع فاطمة المسكينة في هذا المأزق وحدها. ألا تعرف، ماذا حل بي؟ ألقوا القبض على ابني الوحيد وقالوا عليه إنه جاسوس. وقيدوا يده البيضاء خلفه بالأغلال ووضعوا ابني الحبيب في أصعب السجون في حديقة قصر قازان. دفنوه حيًا في البئر. العون منك يا سيدي. أملي الوحيد فيك.

- أكان ابنك جاسوسًا؟

- لا، بالطبع لا، يا بكيل معاذ الله. يا بكيل. معاذ الله. ابني أفقر الفقراء. ابني ليس جاسوسًا، إنه عبد ضعيف لله. ابني ليس جاسوسًا. لقد نصب قازان وبيرك فخًا، يا بكيل. بيرك هو الذي لفق موضوع الجاسوس. فقال قازان هو الآخر: اذهبوا وألقوا القبض عليه وأحضروه، وأذاقوه ألوان العذاب.

فسألتُ بوغازجا:

- ما شأني في هذا الموضوع؟ لماذا أتيت لي؟

- بكيل، أنسيتني؟ كنتُ فتاة غاية في الجمال. وكان خلف منزلنا واد صغير. ولدينا كلب يسمى "براجوق". الوحيد الذي كان لا ينبح عليه الكلب هو أنت. أنسيت تلك الأيام التي كنت تغدو وتروح فيها علينا، أيها الفتى بكيل؟ أنسيتَ تلك الليالي؟ انظر أيها الملك، لقد ذكرتني بالكثير. لقد تذكرتُ أيام شبابي. أغمضتُ عيني للحظة، ثم عدت لوعيي ثانية:

- نسيتُ، أم لم أنس...قولي كلامك.

- بكيل، بكيل، ابني يكون منك. أنت أعطيتني أمانة، يا بكيل. لم أبح بهذا السر لأحد مطلقًا، احتفظتُ بسري في قلبي طيلة هذه السنوات كلها. والآن يريدون القضاء على ابننا. والآن يريدون قتل ابننا. لا تدعهم يفعلون هذا. تذهب، حتى ولو ستذهب إلى ملك الملوك يا بندر خان، واحك له كل شيء. ابني وابنك ليس جاسوسًا، يا بكيل. الحقيقة كما قلتها لك.

لقد أصبحتُ في وضع يا سيدي الملك، لا أتمناه حتى للعدو. لقد التصقت يدي بقدمي، وتسمرتُ مكاني. وجف لساني، وسألتها وأنا أتلعثم في الكلام:

- هل بيرك هو الذي أثار موضوع الجاسوس؟

- بيرك هو الذي أثاره، يا بكيل، لقد ظل بيرك ست عشرة سنة في الأسر في "بايبورد" بعيدًا عن الأوغوز، ماذا يعرف هو عن الأوغوز؟ لقد دمر بيرك بيتي.

- هو موجود، وأنا موجود. اذهبي أيتها المرأة إلى بيتك واستريحي، فلن أكون بكيل إذا تركتُ هذا الغلام في يد بيرك. وسيرى بيرك ردًّا على هذا.

وقالت ثانية بعض الكلمات، "لا تدعهم يقضون على ابننا، أنت أملي الوحيد، افعل ما تفعل..."، قالت مثل هذه الكلمات، ولكني لم أصغ إليها مطلقًا.

ودعتُ هذه المرأة يا سيدي، وانتظرتُ حتى خرجت من الحديقة، وغابت عن الأنظار، وعدتُ إلى المنزل. وقد أرسلوا لي يدعوني لمجلس الشورى المعروف، فلم أتأخر. فأمرتُ الخدم أن يعدوا الركبَ، واصطحبتُ معي معاوني، وسلكنا طريقنا، وفي الصباح الباكر وصلنا إلى أوغوز الداخل.

لقد استدعى قازان إلى الشورى "أروز قوجا"، و"بيرك"، و"شير شمس الدين"، وأنا. اجتمعنا في حجرة الشورى. وبدأ قازان الكلام:

- أيها السادة، لقد دعوتكم إلى الشورى، لحدوث أمر في الأوغوز. يوجد جاسوس في الأوغوز. لم أصدق في البداية عندما نُبئتُ بهذا الخبر. وبعد ذلك فكرتُ كثيرًا. وأخذتُ أفتش في ذاكرتي، فلنتذكر سويًّا، لقد خرجتُ إلى رحلة الصيد، فقام الجاسوس بعمله، وكذلك عندما أراد بيرك الزواج، قام كذلك بعمله، وذهب بكيل إلى الصيد، وانكسرت قدمه، أليس كذلك؟ وقد قام الجاسوس بعمله هذه المرة أيضًا.

سألتُ قازان:

- أبالفعل هناك جاسوس يا قازان؟

لم يستطع "أروز قوجا" هو الآخر، أن يتمالك نفسه، فسأل سؤالاً:

- من أنبأ بخبر الجاسوس؟

نظر قازان إلي، ثم إلى "أروز قوجا"، وقال:

- بيرك هو الذي قال هذا، بيرك هو الذي أخبر بنبأ الجاسوس.

ولكن قدم قورقود. وقال إن الجاسوس هو ابن "بوغازجا فاطمة". فألقينا القبض عليه، ووضعناه في البئر. ولكنه شاب ساذج، لا يشبه الجواسيس، لا يتكلم ولا يتحدث، أليس كذلك يا شير شمس الدين؟

أجاب شير شمس الدين عليه:

- نعم، يا سيدي، هو ذاك.

- والآن، أيها السادة، أشيروا علي، ماذا نفعل؟ ما رأيكم في الأمر.

سأل "أروز قوجا" بغِل:

- بيرك هو الذي جلب هذا الخبر، أليس كذلك؟

فغضب بيرك على "أروز قوجا".

- أنا الذي جلبتُ الخبر، هل لديك كلام؟

غضب أروز قوجا:

- أتتطاول عليَّ؟

تقدم بيرك للأمام وقال:

- نعم، أتطاول عليك.

نفد صبر قازان وقال:

- اهدءوا أيها السادة. ليس المقام مقام نزاع. علينا أن نحل موضوع الجاسوس. دعوا هذا إلى ما بعد. اسمعوا لي. ما رأيكم، هل هذا المسكين مذنب، أم لا؟ أنقتله؟ أم نطلق سراحه؟ أي الأمرين...

قطع "أروز قوجا" صوته، وكذلك بيرك، وسكتا. فقال أروز قوجا:

- أرى أنه ليس له ذنب، أعني أنه بريء، فلنطلق سراحه.

قلتُ:

- ليس له ذنب، فلنطلق سراحه.

وقال شير شمس الدين كما قلنا، بيرك الوحيد الذي ظل صامتا. فسأله قازان:

- ما رأيك.

فقال بيرك:

- الرأي رأيك.

في الأصل يؤيد بيرك دائمًا ما يقوله قازان. يا سيدي، ألقى قازان النظر علينا، ووافق كلامنا وقال:

- إذن، الأمر هكذا، أنتم ترون أنه ليس له ذنب، وأنا أيضًا أقول ليس له ذنب. اذهب يا شير شمس الدين، وافتح ذلك البئر العفن، وأطلق سراح هذا المسكين، وسلمه لأمه.

فقال بيرك:

- لا، يا سيدي، فليرحل من الأوغوز بأكملها، فلا تُثار الشائعات.

فقد أحسستُ من البداية، أن قازان لا يريد معاقبة ابن بوغازجا حتى من قبل عقد مجلس الشورى. لو كان يريد ذلك، لما جمعنا إلى مجلس الشورى. ها هو الأمر كما حكيتُ لك يا سيدي الملك بايندر خان. ولكن أعلم أيها الملك أن قازان وكذلك بيرك كانا يريدان إطلاق سراح هذا الغلام. فقاما بهذا الأمر بأيدينا. ولكن حسنًا أن حدث هذا. وإلا كان سيخرج غضبي أثناء الشورى من بيرك بسبب ما حدث في رحلة الصيد. فقد كنتُ متحفزًا له وأنا قادم لهم. بعد ذلك قدم شير شمس الدين ورفع حجر الطاحونة من فوق البئر هو وشخصان معه، وجئتُ وشاهدتُ الأمر حتى النهاية فاسترحتُ. وقدم أيضًا قازان و"أروز قوجا". وكان الفتى الجاسوس مربوطًا بحبل أسفل البئر، فشدوا الحبل وأخرجوا الفتى. ولم أستطع تحمل هذا، يا سيدي الملك، فتأثرت كثيرًا. لقد نظفوه وأكّلوه وشرّبوه، ونظرتُ إلى وجهه يا سيدي الملك، كان يشبه ابني "عمران" في وجهه وعينه. وكان ينظر هو إلي بعينه...فأشفقتُ عليه. ثم كانت أمه بوغازجا هناك، دخلت وأمسكت به من ذراعه، ودون أن تتكلم بكلمة ذهبت به مطأطأة الرأس وخرجت من البوابة، ومضت إلى حال سبيلها، فلم أرها ثانية.

صمت بكيل. وتوقفتُ أنا عن الكتابة. وعلاني العرق ثانية. وكنتُ لا أجرؤ أن أنظر إلى وجه بايندر خان. وكان الملك هو الآخر صامتا. وجال في ذهني أنه "لو كان الملك يعرف أن الأمر على هذا الحال، فهل كان سيبدأ التحقيق هكذا؟" لم أجد ردًا على سؤالي هذا. ولكن بايندر خان سأل بكيل هذه المرة عن شيء آخر لم أكن أتوقعه:

- بكيل، لقد قلتَ إنك كنت متضايقًا من بيرك. لأنه أغضبك أثناء رحلة الصيد. كيف كانت رحلة الصيد هذه؟ وماذا حدث فيها؟ أريد أن أعرف كل هذا، قل لي.

استعد بكيل للكلام، وإن شاء الله يُيسر له الكلام الصواب. وبدأ يحكي لـ"بايندر خان" موضوع رحلة الصيد على النحو التالي:

- بايندر خان ملك الملوك، هل تتذكر عندما جاء الخراج من جورجيا. لقد أرسلوا فرسًا وسيفًا وكذلك عصًا. وأنت غضبتَ غضبًا شديدًا. كان كل عام يأتي الذهب والحلي، وكنا نعطيهم للسادة. أما الآن فلمن نعطي هذا؟ هكذا سألت يا سيدي الملك.

وقد تقدم "قورقود" وقال:

- سيدي الملك، لا تغضب. نعطي هذه الأشياء الثلاثة إلى أحد الفتيان.

لم يرد أحد من سادة الأوغوز أن يقترب من هذا الخراج. لم يمد أحد منهم يده على هذا. فنظرتَ إلي سائلاً: ما رأيك؟ ففكرتُ في نفسي قائلاً لو نزلت كلمة الملك على الأرض، فهذا يعني نزول رقبتي إلى الأرض، فوافقتك، وجمعتُ كل قوتي، وذهبتُ إلى الحدود. وهاجرتُ إلى حدود جورجيا. وأخذتُ أحرس الأوغوز هناك.

- أتذكر هذا، يا بكيل. لم أنس هذا.

قاطع بايندر خان كلام بكيل وقال له:

- لماذا تسألني عن هذا؟ لقد قلتُ لك تحدث عن رحلة الصيد.

- على العين والرأس، يا سيدي الملك، سوف أتحدث عن رحلة الصيد. ولكن كان لدي شيء آخر أريد أن أقوله، لقد كنتُ أقوم بالخدمة على الحدود، فقد قل مجيئي إلى الأوغوز. حتى أقوم بعملي على أكمل وجه. لقد تعرفتُ على القلاع القريبة والبعيدة خارج الأوغوز، وطفتُ الطرق والآثار والأنهار والقرى واحدة واحدة. وأعددت الخطط تحسبا لأي غارات على الملك، وأرسلتُ جواسيسي، لتقصي الأخبار. خلاصة القول، يا سيدي الملك، أننا كنا مستعدين لتنفيذ ما تأمر به على حدود جورجيا.

قال بايندر خان:

- شكرًا يا بكيل. شكرًا لتعبك. أنا أُقدرك كثيرًا.

نعم، يا سيدي. لقد قدرتني كثيرًا. ولكن ليس الجميع مثلك أيها الملك المعظم. لقد حركت شفقتك علي نفوس الكثيرين نحوي.

اهتم بايندر خان بالكلام قائلاً:

- من تقصد؟ قل، أسمعك.

بدأ بكيل يحكي لـ"بايندر خان" هذه المرة كل ما قاله لي في المنام من البداية إلى النهاية. لقد سمعتُ هذا قبل ذلك، والآن بدأتُ أكتب ما يُقال. أما بكيل فقد حكى للملك ما يلي:

- كنتُ أجلس ذات يوم في منزلي، يا سيدي الملك، وقد جمعتُ حولي مساعديّ وأعطيهم أوامري، جاء خبر يقول، بايندر خان يريدك عنده. فأسرعتُ دون تفكير، ووضعت الركاب، وانطلقت إلى الأوغوز، ووصلت في يوم واحد، ووصلت إلى الملك. سألني الملك بعض الأسئلة المتعلقة بقلعة "زُمرد"، ورددت على

هذه الأسئلة. وكان هناك طرق وفجاج موصلة إلى قلعة "زمرد"، وهناك أيضًا محاربون وأناس بالقلعة وكان كبيرهم يسمى "أرشين ديراك تاكو". كان يطلب من بايندر خان طلبات غير معقولة، المهم، أنني قدمتُ معلومات صحيحة بشأن هذا، وبشأن بعض الموضوعات الأخرى. وكنتُ أعرف أن هناك عداء بين قلعة زمرد وأوغوز الخارج. وقد حدثت غارات وهجمات. لقد ذهبنا إليهم وقدموا إلينا. ووقع وزير الملك "قاضيليق قوجا" أسيرًا في "قلعة زمرد"، ومضت سنوات كثيرة، ولم يستطع أحد أن يخلصه من الأسر. ثم تجمع الناس، ووضعوا الخطط، ولكن لم يستطيعوا تخليص قاضيليق قوجا. والآن جاء الدور على ابنه "يينك". سوف يخلص هو والده. لقد قرر الملك هذا. سأله الملك في حضوري:

- يا "يينك"، هل تذهب لإنقاذ والدك؟

أجاب "يينك":

- لو أعانني الملك بجيش من فتيان الأوغوز الشجعان، لا من المرتزقة، سأذهب.

ما إن سمع بايندر خان هذا، حتى أعطى أوامره بإعداد جيش كبير قائلا:

"اذهب يا "يينك"، واستعد".

عندما تركت الملك بايندر خان، كان مرسال قازان ينتظرني. فقال لي: "سيدي، يريد قازان أن يراك، قال فليأت بكيل إلى أوغوز الداخل". قازان سيد السادة، يريد أن يراني. لا أعتقد أن هناك شيئًا كان يجب أن أقوله ولم أقله.

المهم أرسل لي قازان مرساله، فخصصت قطيعًا من الأغنام وقلتُ للمرسال، اذهب به إلى قازان، واصنع له كبابًا. وفكرتُ أن قازان يريدني حتى يُكرمني بالتأكيد ، فركبتُ فرسي، وتوجهت نحو أوغوز الداخل. ووصلتُ إلى قازان. فألقيتُ عليه السلام، ورد علي. ودعاني قازان إلى رحلة الصيد. فقال:

- بكيل، أنت تعيش بعيدًا عنا، وقلما تأتي إلينا. سنخرج مع السادة غدًا في الصباح الباكر إلى الصيد. هل تأتي معنا؟ الغزلان هنا لا تشبه الغزلان في منطقتك. ولكن هذا هو صيدنا علينا أن نكرمك. ما رأيك؟

فقلتُ :

- أشكرك يا قازان.

انشغلتُ بالإعداد للصيد حتى الصباح. وفي الصباح الباكر انضممتُ مع مساعدي إلى قازان وذهبنا سويًا حتى وصلنا إلى جبال "ألا". نصبنا الخيام. وكان من بين السادة المشاركين في عملية الصيد، "قاراجون"، و"قارا تشكو"، وابنه "قريق قونوق"، وكذلك "شير شمس الدين"، و"بيرك"...

روضنا الخيل وحضر الطعام والشراب، فأكلنا وشربنا. وسبق فرسي الأبيض كل الخيول في سباق الخيل. وألقيتُ سهمي، فأصبتُ به يا سيدي غزالة، خرق أذنها حتى تعلق بقدمها. وكانت هذه علامة مميزة لي. كنت عندما أخرج إلى الصيد في نواحي "غنجة" و"مبرده" كنت أخرق أذن الفريسة، وأربطها بقدمها، وأنظر، إذا كانت الفريسة هزيلة، أطلق سراحها، وإن كانت سمينة، آكلها. وعندما كان يصادف السادة حيوانا أذنه مخروقة، كانوا يقولون هذه "علامة بكيل"، فيرسلونه لي. وقد أرسل لي "قاراجون" بعض الحيوانات من هذا القبيل، وكذلك "دلي دوندار"، و"أروز قوجا".

لقد سبق فرسي جميع خيول السادة في المسابقة التي عقدها قازان. لقد اصطدتُ الحيوان الذي يفر أمامي وأنا أسرع بفرسي، وربطتُ أذنه في قدمه الأمامية، لقد تجمع السادة حول هذه الفريسة. قدم قازان بفرسه سائلاً:

– ماذا حدث؟ لماذا تجمعتم؟

قالوا :

– لقد اصطاد "بكيل" الغزالة وهو على ظهر حصانه مسرعًا، وربطت قدمها بأذنها.

نزل قازان من على الحصان. وتفقد الفريسة، وسأل:

– هذه المهارة تكمن في الفرس أم في الفارس؟

قال الجميع في نفس واحد:

– هذه المهارة تتعلق بالفارس.

– لا، هذه المهارة مرتبطة بالفرس. لو لم يجتهد الفرس لما فاز الفارس.

فقلتُ :

– سيدي، قل الحق، أنا لا أمدح نفسي. أنا الذي رميتُ هذا السهم، وأنا الذي سحبتُ القوس.

تدخل آنذاك بيرك في الأمر قائلاً:

– الأمر مرتبط بالحصان، يا بكيل

سيدي، بيرك هذا لا يرتاح لي. وأنا أعرف السبب في هذا، ولا يعرف كثيرون هذا السبب. أقول لك هذا السبب. كان هذا الرجل يضع عينه على زوجتي. كان يطوف حول منزل أهل زوجتي "سور مالي تشـشمة". وقبل الفرح ذهب إلى أوغوز الخارج لاصطياد شاة. آنذاك جعلته أنا و"ألب روستم" يصرف النظر عن هذا المنزل، وهذا أمر آخر يا سيدي.

والآن هو لم ينس لي هذا الأمر مطلقًا. والآن يتطاول علي أثناء الصيد. أعاد بيرك هذه الكلمات مرارًا وتكرارًا، فكان يقول:

– قازان محق فيما يقول، والسادة أيضًا، المهارة تكمن في الحصان.

فقلتُ :

– أستطيع أن أصطاد الفريسة وأنا مغمض العينين.

ضحك السادة، وضحك بيرك أكثر من الجميع وقال هذه المرة:

– لقد أصابك الصدأ يا بكيل من كثرة البقاء على حدود جورجيا.

فقلتُ :

– لقد تجاوزت حدك يا بيرك، أنا أحاول أن أتمالك غيظي، وأنت تستمر في التهكم علي...

(ليس هناك أي غضاضة لذكر هذه العبارة "أنا أحاول أن أتمالك غيظي، وأنت تستمر في التهكم علي" من قبل بكيل، فمع أنها عبارة مؤدبة، إلا أنها لا تخلو من شدة في الأسلوب).

...إذا أردتَ، تعال، فلنرم بالسهام، وسأظهر لك فيمن تكمن المهارة، في الفرس أم في الفارس؟

غضب بيرك وقال:

- أتوجه هذا الكلام لي؟

فماذا كان علي أن أقوله يا سيدي؟ فأساس الموضوع هو قازان، وبيرك دائمًا تابع لـــ "قازان". فعلى الحقيقة بيرك ليس له دخل في الموضوع، لذلك وجهت كلامي لـــ "قازان" وقلتُ:

- قل له، يا قازان، يلزم حدوده، وإلا...

نظر بيرك إلى قازان. ولم يتكلم بكلمة واحدة. وهز منكبيه. فقد غضب بيرك غضبًا شديدًا، وتطاول عليَّ وقال:

- وإلا ماذا؟ ماذا سيحدث، قل لي؟

كظمتُ غيظي مرة أخرى. وقلتُ في نفسي "سوء الأدب مع قازان هو سوء أدب مع الملك بايندر خان، فلا أتطاول على قازان لأن هـــذا يُغـــضب الملك منى، ولتنته هذه الرحلة على خير، وأنت موجود، وأنـــا موجـــود يـــا بيرك". ولكن بيرك فكر بطريقة أخرى. تقدم بيرك، يا سيدي الملك، للأمام، واستدار إليَّ صارخًا:

- ألا تعرف يا بكيل، ماذا يمكن أن أفعله بك؟! ماذا تحسب نفسك؟ أمثلك يُهددني؟

لم أرد على بيرك، فماذا كان يمكن أن أقوله له، يا سيدي؟! فعلـــيَّ ألا أتشاجر معه؛ فالجميع يعرفه جيدًا. ولا أريد أن أفقد احترامي وسط الأوغوز بالمشاجرة مع أمثاله. ولكن استدرتُ لقازان. ولم أســتطع كظـــم غيظـــي، وقلتُ له:

- قازان، هذا الكلب كلبك، مُره، فليكف عن هذا، ويلتزم حدوده. ألم تسمع ماذا قال لي؟ أنت الذي دعوتني لرحلة الصيد هذه، أليس كذلك؟ فماذا يريد مني هذا؟...

- أتقول علي "كلبًا"؟ يا بكيل. أنت ذئب تعوي ليس لك علاقة بالأوغوز، منذ متى رأيت رجلاً أو سمعت كلام رجل، أتقول علي "كلبا"؟ سوف أمزقك؟ يا بكيل !

أمسك الوغد ابن الوغد بسيفه يا سيدي. فنظرتُ إلى قازان، وأمسكتُ أنا الآخر بسيفي، وقلتُ:

- يا سيدي، قازان، لقد صبرتُ عليه كثيرًا، وأحذره للمرة الأخيرة.

لم يدع قازان الأمر يتطور هذه المرة، ودون أن يتوجه بوجه إلى أحد منا، قال:

- كفوًا أيها السادة عن هذا اللغط، ما هذا؟ لقد جئنا للصيد أم للشجار؟!

ولكن بيرك كان لا يكف بأي حال من الأحوال عن الكلام:

- أيقول علي أنا كلب؟! هو الكلب، هو حشرة حقيرة، دعوني أيها السادة، أمزقه.

أمسك "قارا تشكور"، و"قارا جونا" بذراعه ومنعوه من الهجوم على بكيل بصعوبة. وتدخل قازان أيضا ووجه الحديث لـ"بيرك" وقال:

- انتهى الأمر، ألم أقل لك أنهيا هذا اللغط؟! ثم غمز إلى "شير شمس الدين" فاحتضن بيرك، وذهب به إلى عين الماء التي كانت موجودة هناك. وحل الهدوء لفترة.

وبعد ذلك استدار قازان نحوي قائلاً:

- أقول لك، يا بكيل، وأعلم جيدًا، أن المكان الذي أصيبه بسهمي، لا يستطيع أحد أن يُصيبه، والمكان الذي أطؤه بفرسي لا يستطيع أحد بلوغه، والجميع يعرف من أنا. أنا سيد السادة أنـا قـازان، أعرف ذلك جيدًا، وأعرف حدك وحدودك، المهارة ليست فيـك، بل في فرسك. كف عن هذا الحديث ثانية، وانتهى الأمر.

وبعد ذلك ركب حصانه، وأسرع به، وانتهت رحلة الصيد، يا سـيدي. وركب كل واحد من السادة فرسه، ومضى إلى حال سـبيله. وتركنـا أنـا ومساعدي نادمين هذا المكان، وتوجهنا مباشرة إلى حدود جورجيا.

سلكتُ طريقي وأنا أفكر: "لقد أحرجني قازان وسط السـادة ووسـط مساعدي. ولكن من بيرك هذا حتى يتكلم معي بهذا الأسلوب، ويتطاول علي في الكلام؟! بالطبع، هناك مَنْ حرض بيرك على فعل هذا معي. أنني أقـوم بكل هذا من أجل الأوغوز، وأقوم بحراسة الحدود ليلاً ونهارًا دون كلل. فما سر أن يقوم بيرك بهذا، ويحرجني بين مساعدي...لا توجد مشكلة، سـيأتي اليوم الذي أعرفه فيه حده. فأنا فداء للحية ملك الملوك بايندر خان البيضاء. ولكن من يعرف هل لدي بايندر خان علم عما قام به قازان؟! ربما التقوا مع الملك، وبعد ذلك قام بلعبة رحلة الصيد. وربما الأمر أخذ منحًى آخر ربمـا قالوا لنحقر بكيل، ليغضب من الملك ومن الأوغوز، فلا يجمع الخراج فـي وقته، ويتخلى عن الأوغوز، وينسحب من حـدود جورجيـا ويمتنـع عـن حراستها، فيغضب منه الملك غضبًا شديدًا..." لقد دارت هذه الأفكـار فـي خاطري طيلة الطريق حتى وصلتُ إلى بيتي. فشعرت زوجتي فـي الحـال بأني منحرف المزاج.

فسألتني قائلة: "ماذا حدث، ذهبتَ سعيدًا فرحًا، وعدتَ غاضبًا مغتمـــا. ماذا كان يمكن أن أقول لها؟ صمتُ. ثم عاودت سؤالي مــرة واثنـــين. فلــم أحتمل أنا الآخر، فحكيتُ لها كل ما حدث بالتفصيل. وقلتُ لهـــا إن قـــازان استدعاني مع السادة إلى جبل "آلا"، للصيد وأثناء الرحلة أصـــبتُ بـــسهمي فريسة، وقد أثنى قازان على جميع السادة؛ وأكد لكل منهم على أن المهـــارة تكمن في السيد نفسه. وعندما جاء الدور عليًّ، قال إن المهارة فـــي فرســـي وليست فيًّ. فغضبتُ من قازان، وتركتُ الصيد وذهبتُ. وآنذاك بيرك....

فسألتني المرأة:

- وماذا قال؟

- ماذا سيقول، تكلم بكلام لا قيمة لـــه ، وأراد أن يُـــشهر علـــىً السيف، ولكن لم يدعه السادة.

- وغد ابن وغد. وبم رددتَ عليه؟

- بم أرد عليه؟ عداء قديم، لا يستطيع أن ينسى. ولكـــن لـــن أدع الموضوع يمر بسهولة.

- ماذا تستطيع أن تعمل؟! قازان قرة عين بايندر خان وبيرك ظل قازان. فمن نكون نحن إذًا؟ ولكن لا تغضب...

- لقد كسبتُ لقمة عيشي بسيفي وحسن طاعتي. فماذا عمل بيرك؟! قضى ستة عشر عاما في "بايبورد" هباء، والآن يريد أن يفعل ما يحلو له ! لا يمكن هذا !

- بالطبع، لا يمكن هذا، أنت بكيل، لا تنس هذا. لولاك ما نعمتَ الأوغوز بالهدوء يوما واحدا. لولاك لهجمت قوات "تكور" المرابطة عليَّ طيلة سواحل البحر الأسود على الأوغوز، ولقضت عليها ! لا تقلق مطلقا،...

- نعم، ولكن لم ينته الأمر إلى هذا الحد، لقد أصبحتُ مخالفًا وعاصيًا لقازان. سأرحل إلى جورجيا. فليسأل الملك عني قازان حتى ولو لمرة، فليسأل لماذا لا يأتي بكيل، أين هو، وحين إذا نرى بماذا سيرد عليه قازان، أو بيرك، استعدي سنرحل غدًا.

ارتمت زوجتي تحت قدمي قائلة:

- سيدي، عندما يكون الإنسان غاضبًا لا يكون في وعيه.. لا تشق عصا الطاعة عن الأوغوز ما الفرق أنك تخالف الأوغوز أو تخالف الملك؟! لا يفلح عمل من يعصي الملك، أدرك هذا جيدًا. انهض، وأسرع، فلا يجف عرق فرسك، اجمع حولك الرفاق والأصدقاء، واخرج للصيد، يا سيدي، أقبل على الحياة، ولا تحزن، واصرف هذه الأفكار السوداء عن خاطرك.

فقلتُ لها:

- لا، لا أستطيع الذهاب.

فأصرت المرأة:

- حبيبي، نفسي تهفو إلى لحم الصيد، وأنت لا تكسر خاطري، أليس كذلك؟ ألا تذهب للصيد؟

فقلت :

– إذا، أذهب.

المهم، جمعتُ ثانية حولي مساعدي ورفاقي، وخرجـت إلـى جبالنـا الموجودة هنا التي تعلوها الثلوج. ثم ماذا حدث هناك فهذا موضـوع آخـر، والملك يعرف كل هذا بنفسه. قدم "قارا تكور" بجيشه، وأخـذ... ولـدِي... وقورقود ساعدني...

ينقطع المخطوط في هـذا الموضع، ولكن يستقيم النص بعد ذلك. مـن المحتمـل أن الـنص المقطوع يصور لنا وقوع عمران بن بكيل في يـد الكـافر "قـارا تكور". ولقد اطلع القارئ علـى هذه الحادثة قبل ذلك من خـلال المخطوط على لسان قورقود.

...كاد ابني أن يقع في الأسر في يد الكافر "قارِا تكور". وتُخترق حدود الأوغوز، ويقع قومي جميعًا في الأسر، وهذا و كنتُ طريح الفـراش. والآن أنا أسأل، يا سيدي الملك، لماذا حدث كل هذا؟ بالطبع، بسبب بيرك، وبسبب قازان. لدي ثأر عند بيرك. إن كان هو بيرك، فأنا بكيل...

قال بكيل هذا الكلام، وأغمض عينيه، وصمت.

(فتح الخادم الباب قليلاً وأطل برأسه في الخارج، فأخذ قيلباش الأذن بعينه من "بايندر خان"، وخرج. ثم بعد وقت وجيز عاد وقال شيئًا بـصوت منخفض للملك. فاعتدل الملك في جلسته وقال "فلينتظروا، حتى ننتهي الآن. يكفي اليوم هذا". ثم خرج قيلباش).

قال "بايندر خان":

- لقد استمعت إليك جيدًا يا بكيل. والآن أنصت إليَّ. كنتُ على علم بما جرى، أعلم هذا جيدًا، واعلم أنت هذا أيضًا. بدأت أعمال جور وظلم تنتشر في الأوغوز. اكتم غيظك، يا بكيل، أنا أعرفك جيدًا، وأعرف بيرك أيضًا، لا تيأس. سوف آخذ لك حقك. و سيأخذ هو أيضًا جزاءه. اذهب أنت الآن، واسترح. سوف أحتاجك ثانية في هذا الأمر. كن على قرب من هنا.

وقف بايندر خان، ونهضنا نحن أيضًا. تقدم بكيل وقبل يد بايندر خان. واحتضنه بايندر خان، وقبله من وجهه. وأحنى بكيل رأسه وخرج بظهره من الحجرة وهو منحني الرأس.

وظللتُ مع "بايندر خان" في الحجرة. مد الملك ذراعيه وشد ظهره بقوة ثم سألني:

- قورقود، ألا تعلم من قدم؟

- لا، أيها الملك المعظم لا أعرف.

- قدمت ابنتي بورلا خاتون وجاءت بانوتشيشك معها أيضًا!

- حقًا؟ جاءت هي الأخرى؟

- نعم. جاءت هي الأخرى، ما رأيك الآن؟ نتقابل معهما، أم نكمل التحقيق؟ ولكن لا يزال الكثير حتى ينتهي التحقيق.

- سيدي الملك لماذا قدمتا؟ أأنت الذي استدعيتهما من أجل التحقيق، أم هما اللتان أتتا برغبتهما لزيارتك؟!

– لا أعرف، ولكن على أي حال نستفيد من مجيئهما. ما رأيك، هل نسألهما؟ فسر الرجل يكون مع زوجته. فسر قازان مع "بورلا"، وسر بيرك مع بانوتشيشك، أليس كذلك؟

سألني الملك هذا. ولكني كنتُ أعرف جيدًا أن هناك سببًا وراء مجيئهما. من المؤكد أن بايندر خان دعاهما للتحقيق مسبقًا. ففكرتُ وقلتُ:

– لا ضير أن نسألهما بعض الأسئلة البسيطة. لازالت هناك بعض الأمور الغامضة.

– معك حق. اذهب، وادعهما إلى هنا.

تقدم بايندر خان نحو النافذة.

خرجتُ، ولم أر قيلباش. فناديتُ على أحد الخدم، وقلتُ له ما أمر به بايندر خان. فاتجه الخادم إلى الحديقة وهو يقول "على الرأس والعين". لم يمر سوى القليل حتى قدمت "بورلا خاتون" و"بانوتشيشك" عند باب حجرة الملك. فألقتا عليَّ السلام بأدب، ورددت عليهما.

فسألتني بورلا خاتون:

– كيف حال والدي الملك؟ بخير إن شاء الله؟

– كل شيء على ما يرام، يا بورلا خاتون. لا تقلقي.

نظرت إلى "بانوتشيشك"، ولكنها لم تسأل شيئًا، وأنا أيضًا لم أقل شيئًا لها.

سألتني بورلا خاتون:

– هل ستدخل معنا؟. .

- لا أعرف، لو احتاجني الملك، فسوف يستدعيني...لا أعرف متى دخل قيلباش إلى الملك، ولكن ما عرفته فقط، هو أنه خرج من عند الملك وقال:

- أيتها السيدتان، وأنت يا قورقود، ادخلوا إلى الملك هو ينتظركم.

دخلنا جميعًا إلى الملك هما في المقدمة، وأنا خلفهما. فوجدتُ الملك على الهيئة التي تركته عليها بجوار النافذة. ما إن رآهما حتى التفت إليهما. وكان مشرق الوجه هذه المرة:

- ابنتي الحبيبة ! بورلا خاتون ذات القوام الممشوق بورلا خاتون ذات الشعر الطويل، بورلا خاتون ذات العيون السوداء، بورلا خاتون ذات الفم الجميل...مرحبًا بك.

فقالت بورلا خاتون:

- أبي الحبيب، جئتُ لأقبل يدك.

واقتربت نحو والدها، وجثت على ركبتيها، وقبلت يده. فقبلها والدها من خدها:

- ابنتي الحبيبة، كيف حالك، أنت بخير؟ اجلسي، اجلسي هنا.

جلس الملك مكانه، وأجلس بورلا أمامه، وقال لها:

- أجئتِ وحدك؟ ألم أقل لك أحضري معك بانوتشيشك؟! لقد اشتقنا إليها كثيرًا، ألم تقولي لها هذا؟ قلت أم لا؟

ضحك بورلا خاتون بشكل خفي، وأشارت برأسها نحو "بانوتشيشك" التي كانت تقف صامتة عند الباب:

- لم تأت، قلت لي إنني غاضبة من والدك الملك.

سأل بايندر خان :

- أقالت هذا؟

غضبت "بانوتشيشك" وهي عند الباب وقالت:

- ألنا قلتُ هذا، أنا لم أغضب من الملك، أنا لم أقل هذا الكلام.

فضحك معهما الملك وقال:

- لقد غضبت مني، أليس كذلك؟ لا توجد مشكلة، لقد أصابنا العجز يا ابنتي الحبيبة بورلا. لقد مر زماننا. فماذا نستطيع أن نعمل؟! لديها حق أن تغضب منا.

فقالت "بانوتشيشك" وهي تقترب من الملك:

- أي عجز أصابك، ما هذا الكلام، فليعجز أعداؤك.

ثم خرت على ركبتيها واحتضنت قدمي الملك، وقالت:

- فليعجز الخونة... فليهلك من لا يحبك... كيف حالك يـــا ملــك الملوك؟

- حسنا، من هذه الفتاة يا بورلا؟ لم أعرفها مطلقًا... وأحنى بايندر خان على رأس "بانوتشيشك" ووجهها.

ابتسمت بورلا خاتون:

- هي نفسها، يا والدي الملك، "بانوتشيشك"، ألم تطلبها؟

- نعم، ابنتي، "بانوتشيشك"، أأنتِ أنت؟ ألا زلتِ على قيد الحياة بُنيتي؟ منذ فترة طويلة وأنت تغيبين عن الأنظار. منذ سنة أو عشر سنين لم أرك، كدتُ أن أنسى صورتك، اجعليني أنظر إليك، وأتفقدك، ماذا حدث لك يا بُنيتي؟ لقد نحفتِ. واصفر وجهك. تعالى اجلسي هنا حسنًا، حسنًا، قولي لي الآن يلزم أن نرسل لك دعوة حتى تأتي؟ منذ متى وأنا لا أراك، لقد أصابنا العجز والكبر أم أصبحتِ لا تحبينا.

أسرعت "بانوتشيشك" نحو المكان الذي أشار إليه بايندر خان، وجلست القرفصاء، ووضعت يدها على ركبتيها وقالت:

- لقد قلتُ لك... أنتِ لست ملكا شيخًا. لم تمر سنة أو حتى شهر على آخر مرة رأيتني فيها، لقد اشتقتَ إليَّ سريعًا. نعم يمكن أن يكون قد أصابني الضعف واصفر وجهي، ولكن هذا يحدث لي عندما لا أرى ملكنا بايندر خان. لا تجعلني أتكلم أيها الملك، قل لي أنت، كيف أصابك الكبر والعجز، وأنا أرى في حديقة القصر جاريات حسناوات جديدات، هن يتركنك تكبر؟

لقد تملك الضحك من بايندر خان. وأشرق وجهه. أما أنا فنسيت كل شيء، وأخذت أشاهد هذا وأنا واقف في أحد أركان الحجرة، وقد سعدتُ بهذا جيدًا.

كأن بايندر خان شعر بما يدور في قلبي، فنادى عليَّ وقال:

- قورقود، تعال، اجلس مكانك، واشتغل بعملك

أحنيت رأسي، وذهبتُ إلى مكاني، وجلستُ. ثم جاء قيلباش، وجلس هو الآخر مكانه.

توجه بايندر خان إلى المرأتين:

- أيتها الفتاتان، عمَّن أتحدث معكما، من أين أبدأ الحديث، فلنتحدث عن ملك طرابزون. لقد جاء رسوله. وتشكي من أحد رجالنــا، هذا الأمر يطول شرحه...ولكن أرسل لنا الملك هدايا وملابــس مصنوعة من حرير طرابزون المعروف. الآن أنهــي الحــديث معكما. وبعد ذلك يأخذكما قيلباش، ويذهب بكمــا لتختــارا مــا تريدان من تلك الهدايا؟ ما رأيكما؟

- شكرًا أيها الملك الحنون، لا أزال الله ملكك وثروتك.

قالت بانوتشيشك:

- دمتَ، يا ملك الملوك، وعشت ذخرًا للأوغــوز، وفــداك هــذه الدنيا الفانية.

(لم أنس أنا الآخر هذه الكلمة التي قالتها بانوتشيشك "دمــت أيهــا الملك، فداك هذه الدنيا الفانية").

قال بايندر خان:

- أنا أعرف ذلك، اعرف ذلك، أعرفا أنتما هذا أيضا.

فردت "بانوتشيشك" أيضًا:

- كيف لا نعرف هذا، نحن نعرف هذا جيدًا.

بعد ذلك نظرت بانوتشيشك إليَّ باهتمام شديد وتعجبت أننــي أكتــب، فشعر بايندر خان بهذا، فقال:

- حسنًا، أيتها البنات، بعد ذلك نتحدث، يا قورقود، اشطب ما كتبته حتى هنا، وبعد ذلك اكتب، أفهمت ما قلتُ لك؟

فقلتُ له:

- فهمتُ أيها الملك المعظم، سأفعل ما تأمرني به.

أمر الملك بهذا، وكنتُ سأنفذ ما أمر به، ولكن...

ينقطع المخطوط في هذا الموضع، ولكن لماذا قورقود لم ينفذ أمر الملك، وأورد في المخطوط الحديث الذي دار بين المرأتين والملك. لن نعرف نحن سبب هذا. وهكذا، ورد هذا الحديث الشيق إلى المخطوطة لسبب لا نعرفه.

قال بايندر خان:

- فلنبدأ، يا بورلا خاتون، ويا بانوتشيشك، سأسألكن بعض الأسئلة المختلفة. وسوف تجبن بالصدق. اتفقنا، أليس كذلك؟ والأمر هو؛ أتعرفن أن في الأوغوز جاسوسا، هل سمعتن عن هذا من قبل؟

قاطعت الاثنتان كلام الملك، وقالتا في نفسٍ واحد:

- أيمكن ألا نسمع عن هذا، أيها الملك الوالد؟ ألم تسمعي بهذا أيتها المرأة؟ وأنت؟ لقد سمعنا، لقد سمعنا عن هذا الأمر...

سُر بايندر خان بهذا الرد وقال:

- حسناً...، لقد سمعتن. بالطبع لا يمكن ألا تسمعن بهذا. لقد خرج قازان للصيد، أليس كذلك يا بورلا؟ وقام الجاسوس بعمله، فوقعت البلاد في الأسر. أما بيرك، فقبل يوم من زفافه، عرف

الجاسوس، وأوصل الخبر للعدو، فقبضوا على"بيرك"، وأخـــذوه. لقد تعذبتِ يا "بانوتشيشك" لمدة ستة عشر عاما وهي الفترة التي قضاها بيرك في الأسر، لقد كدتِ تتزوجين غيره. أتتذكرين هذا؟ بالطبع لم تنسي هذا. لنرجع إلى موضوعنا. لقد قام الجاســوس بعمله في الأوغوز. والأوغوز تغط في سبات عميق.

فقالت بورلا خاتون:

- نعم، يا والدي الملك، أنت محق، وجود الجاسوس كلفنا الكثيــر والكثير، وكاد "اوروز" يضيع من أيدينا.

فسألهن الملك:

- هكذا يا بنيتي، أنت محقة. والآن أيتها البنات، قلن لي، من يكون هذا الجاسوس؟ وكيف ألقي قازان القبض عليه، وعلقـــه شـــير شمس الدين في البئر؟ ألم يحدث هذا؟

فقالت بو لا خاتون في الحال:

- حدث هذا بالفعل، حدث هذا، يا والدي، أنت تعرف كـــل شـــيء بشكل صحيح.

نظر بايندر خان إلى بورلا خاتون وقال:

- إن كان الأمر كذلك، فلم اختفى الجاسوس بعـــد ذلـــك؟ أصـــعد إلى السماء، أم اختفى في باطن الأرض؟ أتحول هذا الجاســوس إلى طائر وطار إلى مكان ما، أتعرفين شيئًا تقولينه لي يا بنيتي؟

فهمت بورلا خاتون من حديث بايندر خان الجاد، أن الملـــك بالفعـــل يريد أن يعرف معلومات صحيحة، ولكنها بقيت رابطـــة الجـــأش، وقالـــت لوالدها مايلي:

- والدي الملك، اسمعني جيدًا، سأقول لك. ولكن حسنا فعلتَ أنك طلبتنا إليك...عندي الخبر اليقين. نعم، تم القبض على الجاسوس. وأنت تعرف جيدًا أنه كان ابن بوغازجا فاطمة. وأنه قد وُضِع في البئر. ليتك رأيت قازان، صاح وصرخ، وقال سأقتل هذا الوغد ابن الوغد، لقد صرخ أمام الجميع إنه سيقطعه إربًا إربًا، ولكن ما الذي حدث؟

فقال الملك ووجهه مليء بالتعجب:

- ماذا حدث؟ أنا أيضًا في حيرة، أريد أن أعرف ماذا حدث؟

قالت بورلا خاتون:

- حدث أن جاء السادة إلى الشورى. لقد قدم بكيل، وشير شمس الدين، و"أروز قوجا"، و"بيرك"...أتعرف ماذا قال لي قازان قبل أن يذهب للشورى؟ قال لي: "لقد قرر السادة جميعًا أن هذا الجاسوس الملعون بريء، وبقيتُ أنا الوحيد الذي لا أعرف ماذا أعمل". قال لي هكذا. ولقد جاءت إليه فاطمة بوغازجا قبل الشورى، ولا أعرف ماذا قالت له، أنت يا والدي الملك فقط الذي يمكن أن يقول له قازان ما دار في هذا اللقاء، لا يُخفي عنك شيئًا. لقد قالت له كلامًا، جعلته يتغير تمامًا، كان يصرخ ويصيح قبل ذلك، ولكن الآن يقول إن السادة قرروا إطلاق سراح الجاسوس، وإخراجه من البئر وتسليمه إلى أمه، لدرجة أنهم كادوا أن ينثروا له الورود على الطريق ويقولوا له تفضل اذهب في أمان الله! هذا ما حدث في موضوع الجاسوس أيها الملك.

نظرت بانوتشيشك إلي وإلى قلمي ودفتري وبدأت كلامها:

- أيها الملك المعظم بايندر خان، إن تـرد أن تعـرف الحقيقـة، فالجاسوس ليس ابن "فاطمة بوغازجا".

سأل الملك:

- فمن يكون الجاسوس إذا؟

قال بانوتشيشك:

- الجاسوس يا سيدي الملك من عمل "أروز قوجـا". يـا "بـورلا خاتون"، قولي أنت.

- هكذا الأمر، يا والدي الملك، ما تقولـه بانوتشيـشك صـحيح، الجاسوس من عمل "أروز قوجا".

- انظر، انظر، تُدخلون "أروز قوجا" في الموضوع مرة أخرى، ما علاقة "أروز قوجا" بهذا الأمر؟ لماذا يتجسس "أروز قوجا" على الأوغوز؟ ما مصلحته في هذا؟

قالت بورلا خاتون:

- أقول لك، مصلحته هي "لقب كبير السادة". أن تأخذ هذا اللقـب من قازان، وتمنحه إياه. فإنه يريد أن يهجم العدو على الأوغوز، للاستيلاء عليه، ولا يستطيع قازان أن يواجههم، فيقـول "أروز قوجا" أنا أستطيع مواجهة العدو، وأنتصر عليه، لقد هزم ابنـي "باصات" العدو "تك جوز". ويجب أن أُمنح لقب "كبير الـسادة". إن "أروز قوجا" لا ينام الليل بسبب التفكير في هذا الأمر، أعلـم ذلك جيدًا يا والدي، أنت تعلم كل شيء جيدًا.

غاص بايندر خان في التفكير، وواصلت بانوتشيشك الكلام:

- بورلا خاتون تقول الحق يا سيدي الملك. لقد هزم "باصات" "تك جوز"، وهو يتفاخر بهذا...ويمنّ علينـــا بـــه. . و"أروز قوجـــا" استغل هذا، وعينه على منصب قازان...

(لقد تذكرتُ أمرًا الآن. لم يكن "أروز قوجا" وحده في الأوغوز الذي يتفاخر بـــ"باصات"، بل الجميع من الكبير إلى الصغير ذكرًا وأنثى يتفـــاخر بـــ"باصات" بعد أن هزم "تك جوز". لم تكن بورلا خاتون آنذاك قد تزوجـــت قازان بعد، وهي أيضًا كانت ممن يتفـــاخر بـــــ"باصـــات" أيـــضًا، وكانـــت "بانوتشيشك" هي الأخرى لم تتـــزوج بيـــرك، وكانـــت تتفـــاخر وتتبـــاهى بـــ"باصات" آنذلك. فمن كان لا يتفاخر به"؟ فجميع بنات الأوغوز أصـــبحن يحببن "باصات" بعد أن هزم "تك جوز").

سأل "بايندر خان" "بانوتشيشك" وهو شارد الذهن:

- أكنت تفكرين أنت أيضًا هكذا؟

أجابت "بانوتشيشك" قائلة:

- نعم، أيها الملك المعظم، فكرتُ أنا أيضًا هكذا.

سأل بايندر خان مرة أخرى قائلاً:

- بيرك هو الذي أخبر قازان بموضوع الجاسوس ، أليس كذلك؟

أجابت بورلا خاتون:

- نعم، هو الذي أخبر قازان.

– أتذكرين هذا اليوم؟

– نعم، والدي الملك، أتذكره. كان هذا اليوم يوم "اليغمــة" الــذي يأتي الجميع فيه إلى بيتنا ويأخذ كل سيد من سادة أوغوز الداخل ما يريد.

– لم يأت سادة أوغوز الخارج هذه المرة، أليس كذلك؟

طأطأت بولا خاتون رأسها، وأجابت بصوت خفيض:

– لم يدع قازان أوغوز الخارج إلى "اليغمة".

أمعن بايندر خان النظر في بورلا خاتون وقال:

– من رأى منكما بيرك قبل اليوم السابق على "اليغمة"؟

قالت بانوتشيشك؟

– لم أره، قال سأذهب إلى عين الماء، هنــاك طعــام وشــراب، لقد قال لي هكذا.

قالت بورلا خاتون هي الأخرى:

– أنا...أنا لم أره أيضا، والدي الملك، ماذا حدث؟

(ألم يقل شير شمس الدين قبل هذا عكس ما قالته بورلا خاتون؟ لقد شعرتُ – وإن لم أر ذلك بنفسي – أن الملك لم يعجبه رد "بورلا خــاتون". ربما صدق الملك كلام شير شمس الدين. ولكنه لم يصرح بأن بورلا خاتون تكذب عليه).

حدث بايندر خان نفسه قائلاً:

- لم تشاهديه؟ أليس كذلك؟... إذن أريد أن تجيبا عن هذا السؤال، أيتها الفتاتان، لماذا أعلن بيرك الآن موضوع الجاسوس بالـذات بعد يوم "اليغمة"؟ بم تفسران هذا؟

قالت بانوتشيشك :

- أنا لا أعرف تفسيرًا لهذا، ما الفرق بين أن يظهـر الموضـوع الآن، أو بعد ذلك؟

قالت بورلا خاتون:

- وأنا أيضًا لا أرى تفسيرًا لهذا.

سأل بايندر خان بانوتشيشك :

- هل حدثك بيرك، يا بنيتي بوجود جاسوس من قبل في الأوغوز؟ فأنتِ زوجته...

أجابت "بانوتشيشك":

- لا، لم يقل لي شيئًا. بيرك رجل كتوم، سيدي الملـك المعظـم. لا يقول شيئًا قبل وقته، ينتظر عندما يحين الوقت فيقول ما يريد.

قال بايندر خان:

- حسنا... والآن سأسألكما آخر سؤال عندي، قولا لي، ماذا حدث للسادة أثناء الشورى... لقد قلتما إن هناك امرأة اسمها "فاطمـة بوغازجا"، أليس كذلك؟ وأن جميع السادة صوتوا لصالح ابنهـا وبراعته؟

نظرت بورلا خاتون لـ "بانوتشيشك"، وكذلك "بانوتشيشك" إلى بورلا خاتون. وسلطت الاثنتان رأسيهما إلى الأرض، وأخذتا تفكـران. وانتظـر بايندر خان في هدوء واهتمام ماذا ستقولان. ونظر إليّ مبتسمًا.

أجابت بورلا خاتون قائلة:

- والدي الملك. لقد فكرتُ هكـذا...ألا تعـرف...ولكـن لا، أنـا أعرف...لا يا والدي، أنا لا أعرف.

سأل بايندر خان "بانوتشيشك" بشدة قائلاً:

- ماذا تقولين أنت أيضًا؟

- أيها الملك المعظم، كل ما حدث كان بسبب "فاطمة بوغازجـا"، لا أعرف ماذا قالت للسادة... المهم أن السـادة تغيـروا تمامـا بعد ذلك.

قالت بانوتشيشك أيضًا:

- أنا لا أخفي عليك أيها الملك، أنا لا أعرف ماذا قالـت، ولكـن الشيء الوحيد الذي أعرفه، أنه لم يكن عند هذه المـرأة عقـل، لدرجة أنه لا أحد في الأغوز كان يطيق النظر إليها.

(لقد شعرتُ ثانية أن الدم تجمد في عروقي).

- يكفي هذا أيتها الفتاتان، لقد أتعبتماني، اذهبا، انهض يا قيلبـاش، وخذهما، واعرض عليهما البضائع القادمـة مـن طرابـزون. ليختارا ما يريدان، ويأخذاه. وأنتِ يا بنيتـي "بانوتشيـشك"، لا تغيبي عنا، حتى لا نفتقدك...، قولي لابنك "أورزو" يا "بـورلا" يختار لنفسه فرسًا جيدًا،

قبلت بورلا خاتون وبانوتشيشك يد الملك، واحتضنهما الملك وقبل وجهيهما، وانصرفتا. وخرج معهما قيلباش.

بعد أن ذهبتا ظل بايندر خان في حجرته يفكر كثيرًا في الأمر، ثم ابتسم ابتسامة خفيفة وقال لي:

- قورقود يا بُني، لقد تفاقم الأمر، وتعقد. لقد بذلنا وقتًا كثيرًا، ولا تبدو أية نتيجة. لقد ألصقت هذه الفتاة التهمة بـ"فاطمة بوغازجا"، وقالت إنها أغرت السادة. فمن يا ترى الذي أغواها حتى تقوم بهذه الحيلة تجاه السادة؟!...فقلت:

- أطال الله عمرك، سيدي الملك. ألم ينته التحقيق؟ لا يوجد جاسوس، لقد ألقى كل من السادة المسئولية على عاتق الآخر، فماذا بقي بعد؟

لقد قلت هذا، وأردتُ أن أغير مجرى الكلام.

- لازالت هناك بقية للموضوع، يا قورقود. لازلنا لا نعرف من الذي أغوى فاطمة بوغازجا. وبقي هناك أيضًا أمر آخر، سأقوله لك بعد ذلك. أما الآن، فقل لي، قبل كل شيء، لمن نستمع الآن، نستمع لـ"أروز قوجا"، أم لـ"قازان"؟! ماذا حدث يا قيلباش؟ أين أنت، تعال هنا...

مع أن قيلباش قد خرج من الحجرة، إلا أن أذنه بقيت فيها، لقد سمع نداء الملك له، فأسرع في دخول الحجرة:

- نعم، سيدي الملك، لقد اخترتُ فرسا جيدا لـ"أوروز".

سأل بايندر خان:

- هذا الأمر بعد ذلك، هذا الأمر بعد ذلـك، يـا قيلبـاش المهـم، من هنا الآن؟

- كل من نريده هنا، جاء الجميع. "أروز قوجا" فقـط هـو الـذي سـيأتي غـدًا. أمـا البـاقي فهنـا، قـازان هنـا، وبكيـل، الجميع...وبالطبع، يا سيدي الملك، كل منهما في حجرة منفصلة. لقد قدم بيرك مع قازان. وشير شمس الدين هنا. و"أوروز" كـل صباح يأتي إلى ميدان الخيل، ويركب الحصان، من بقـي لـم نذكره؟ الفتاتان اختارتا أفضل الهدايا وذهبتا بها. هناك أمر آخر أريد أن أخبرك به، يـا سـيدي الملـك، موضـوع"قاضـيليق قوجا"...التفت نحوي قيلباش ونظر إلي، وواصل الحديث بعد أن أشار إليه بايندر خان برأسه أن يستمر. لقد قال لي "قوجا":

- يا قيلباش، قل للملك، يأمر بأن يرسلني إلى أي مكـان، لأنـي لا أريد أن أشارك في مجلس الشورى حتـى تكثـر الـشائعات في هذا الصدد بين الناس.

غاص بايندر خان في التفكير، وقال:

- ما يقوله "قوجا" صحيح، قل له يُعد الهـدايا، وليختـر أفـضل الخيول، ويأخذ الجمال من المرعى، ويأخذ جزءًا من الغنائم التي وصلت إلينا، ويذهب مع واحد أو اثنين مـن الـسادة وخـادم ومساعد إلى طرابزون، ويُطمئن حاكم طرابزون "مالك" علـيّ، وأخبر "قوجا"، يا "قيلباش" أن يُقـدم الهـدايا، فيأكـل ويـشرب ويقضي وقتًا طيبًا هناك، ثم يعود ثانية إلى هنا. حتى هذا الحين نكون نحن قد انتهينا من عملنا. فليسافر غدًا، هل فهمت؟ وأيضًا

قل له أن يحدث "مالك"عما يحدث في قلعة"زمرد". قلعة زمرد قريبة من طرابزون. هذه المعلومات ستكون مهمة بالنسبة لـ "مالك". اذهب الآن وقل له ما أمرتك به. ثم بعد ذلك أرسل "قازان" إلي، فليأت. وأنت، يا قورقود، هل تعبتَ؟ أتواصل العمل، أتستطيع هذا؟ أنا أعلم أن الكتابة ليست بالأمر الهين...

قلتُ:

- إن لم أقل لما يأمرني به بايندر خان "على الرأس والعين"، فلمن أقول هذا، لا، يا سيدي الملك المعظم، لم أتعب مطلقًا، هل يُشبع من الحديث معك؟!

ثم فكرتُ في نفسي:

- "لكني اشتقتُ إلى الحجر "نور"، أرغب أن أحتضنه وأنام. أريد أن أتحدث معه".

نظر إلى الملك بايندر خان بإمعان وقال لـ "قيلباش":

- اذهب، وافعل ما قلته لك، ثم أحضر "قازان".

خرج قيلباش، وصمت الملك لفترة، ثم قال:

- ولكن يا قورقود، لسانك قال شيئًا، وعينك قالت شيئًا آخر. أتشعر بهذا؟

- لا، يا سيدي الملك المعظم، لا أشعر بهذا. ماذا تقول عيني؟

- لا شيء. سأقول لك فيما بعد ماذا كنتُ سأقول لك، في النهاية. يفهم كلٌ منًا الآخر، أليس كذلك؟

- أنت تأمر يا سيدي الملك، وأنا أنفذ كلامك.

- حسنا... الآن ننظر، ماذا سيقول لنا قازان؟ هيا تعال يا قازان، اجلس مكانك...

دخل قازان، وحيا الملك بأدب، وأحنى رأسه، وجلس بجواري، سأله بايندر خان:

- هل أنت مستريح في جلستك؟ هل قاموا بخدمتك جيدًا؟ كيف تقضي وقتك؟

قال قازان:

- أشكرك سيدي الملك، كل شيء على ما يرام. لا تقلق علي.

دخل آنذاك قيلباش، وتبادل النظرات مع بايندر خان، ودخل هو الآخر وجلس.

بدأ بايندر خان كلامه بهدوء قائلاً:

- قازان، المرة السابقة أنت تكلمتَ، وأنا استمعتُ لك، وأقسمتَ، وصدقتك. في النهاية بقي سؤال أردت أن أسألك إياه. أجب عليه، ثم سأقول لك قراري النهائي.

اعتدل قازان في مكانه وقال:

- مُر، سيدي الملك، ما هذا السؤال؟

سأل بايندر خان قازان مباشرة:

- قازان، ما الحديث الذي دار بينك وبين "فاطمة بوغازجا"، قل لي بم تحدثت إليك "فاطمة بوغازجا" على انفراد؟

طأطأ قازان رأسه نحو الأرض وصمت لمدة. صمت أيضًا الملك وظل على هذا الحال لفترة، ثم في النهاية خرق قازان هذا الصمت قائلاً:

- سيدي الملك، سأحكي لك كل شيء كما حدث بالضبط. وفي النهاية قرر أنت بنفسك، ولو كنتُ مذنبًا، فداك نفسي، وروحي، اقتلني بنفسك، سيدي الملك.

- احك يا قازان، تحدث، أستمع إليك.

تنحب قازان وبدأ الحديث كالتالي...

***

نعم، حدث ما أمر به الملك. لقد جاءت إليّ فاطمة بوغازجا. وكان الوقت مساء وقد وضع "شير شمس الدين" للتو هذا الغلام المسمى جاسوسًا في البئر. جاء الخادم وقال لي، هناك امرأة تريد أن تلتقي معك، ولم تفصح عن اسمها. قبل هذا أقول لك سيدي الملك، دار حديث بيني وبين زوجتي بورلا خاتون. فقد جاءت إليّ وقالت:

- لماذا ألقيتَ القبض على ابن هذه المرأة المسكين؛ وأنت تعرف جيدًا أن موضوع الجاسوس من فعل "أروز قوجا".

فقلتُ:

- لا، يا بورلا خاتون، ليس من فعل "أروز قوجا". الجاسوس هو ابن فاطمة بوغازجا.

فقالت:

- لا، من فعل "أروز قوجا".

فقلتُ :

- من عمل بوغازجا. اتحدت هي وابنها، وقاما بهذا العمل سويًا. التفتت إليَّ وقالت:

- انظر إلي، ما رأيك في بوغازجا؟ أتتذكر أيام شبابك؟

- لم أعرف كيف أرد عليها. أعتقد أن بورلا خاتون قد حكت لك كل شيء حتى هذا الموقف، ولكن ربما لم تقل لك كل شيء على الوجه الصحيح. الآن سيدي الملك أقول لك الصدق، واستمع إليَّ.

ابتسم بايندر خان قائلاً:

- لا يوجد مشكلة، قل يا قازان، قل أنتَ الصدق.

تشجع قازان وفكر في نفسه فيما يلي:

"لقد أردتُ تجاوز هذا الأمر. فما الذي حدث؟! تحدثت بورلا خاتون بما يخطر على بالها، وتحل بي أنا المتاعب". واصل قازان الحديث لبايندر خان حاكيا له ما دار بينه وبين زوجته بورلا خاتون فقال لها:

- ما رأيك في هذا الأمر؟ ألنت تؤيدين هذا الأمر؟ كم مرة نتحدث في هذا الموضوع، لقد انتهى الأمر، وانتهينا منه منذ زمن بعيد. هل أنت جُننت؟

قالت "بورلا خاتون":

- أنا لم أُجن، أنت الذي جُننتَ يا قازان، أنا أقول لك ثانية. الجاسوس ليس ابنها. الجاسوس أحد رجال خالك "أروز قوجا". ما رأيك، ألم يعجبك كلامي؟!

عندما قالت لي هذا الكلام غضبتُ غضبًا شديدًا من بورلا خاتون، يا والدي الملك، وقلتُ لها:

- ماذا تقولين، أيتها المرأة، سأنهض وأحضر سوطي وأعرّفك كيف تتكلمين؟

قلتُ تلك الكلمات، ولا أعرف كيف قلتها، ولم أزد عليها حرفًا، ثم صرختُ فيها قائلاً:

- اعرفي جيدًا أيتها المرأة أن قورقود قد جاء، وقال من هو الجاسوس. أي ليس الأمر مني.

تقهقرتُ المرأة خطوة وألانت الكلام وسألت:

- متى قدم قورقود؟ ولماذا لم أره.

- لقد وصلني هذا الكلام عن طريق شير شمس الـدين، وإن لـم تصدقيني، فاسأليه.

قالت بورلا خاتون:

- لا، لا حاجة لذلك...

بعد ذلك تضايقت المرأة وقالت فجأة :

- قازان، يا قازان. فاطمة بوغازجا امرأة مـسكينة، فقيـرة. وأم، ولها هذا الولد الوحيد، يتيم لا أب له...

فطنتُ في الحال ماذا تريد فقلتُ:

- مستحيل. ليس الأمر في يدي. سيأتي السادة إلى مجلس الشورى، وسيقول الجميع كل ما يحلو لهم.

بعد ذلك تحدثنا عن "اليغمة".

قلتُ لـ "بورلا خاتون":

- أنت لم تتركيني مطلقًا. ادعو خالي "أروز قوجا" يأتي "لليغمـة"، أنسيت هذا؟

هذا الكلام صدق، والدي الملك. لقد قالت لي بورلا خاتون إذا دعـوتَ خالك "أروز قوجا" إلى "اليغمة"، فسألحق ببيت والدي الملك. لقد أساء إلـي خالك وسبني...فلم أدع خالي أروز قوجا إلى "اليغمة"، لذلك لم يحضر أحـد من سادة الأوغوز الخارج. نعم، والدي الملك أنا قلتُ لها لقد منعتني أن أدعو خالي أروز قوجا.

قالت لي:

- حسنًا فعلتُ. لقد فعلت الصواب. سأقول لك الآن يا قـازان مـا حقيقة الأمر. إن خالك "أروز قوجا" يسلط عينه علـى منـصبك وعلى لقب "كبير السادة". وعلى قيادة الجيش. هل شعرت بهذا؟ إن لم تكن تعلم هذا، فاعلمه إذن. لقد ذهب خالك "أروز قوجـا" إلى والدي الملك وقال لوالدي الملك هذا الأمر، وقال له من أنقذ الأوغوز من الهلاك ومن عدوها المسمى "تك جوز". أليس ابني "باصات" الذي قام بهذا؟

واستمر "أروز قوجا" في الحديث مع الملك عندما ذهب إليـه قـائلاً: "أعط حق ابني أيها الملك. إنني لم أطلب منك هذا قبل الآن، ولكن الآن ابني باصات يريد أن يكون "كبير سادة" الأوغوز.

لم أكن على علم بهذا الكلام، ومن أين لي أن أعرف مثل هذا الكلام؟! فسألتُ بورلا خاتون:

- هل والدنا الملك هو الذي قال لك هذا الكلام؟

قالت بورلا خاتون:

- كيف سيقول والدي الملك هذا الكلام؟ لقد أصابه الكبر، وخارت قواه، والدي الملك. ماذا أستطيع أن أطلب من والدي الملك؟

فقلتُ لها:

- لم يصب العجز الملك بايندر خان مطلقا. ولن تخور قواه أبـدًا. لا تنطقي هذا الكلام ثانية وإلا...

حدث بايندر خان نفسه قائلاً:

- لقد قالت أصابه الكبر تقصدني، أليس كذلك؟

- نعم، سيدي الملك، قالت هكذا. لا تهتم بهذا، أليست النساء ناقصات عقل؟ ما إن قلتُ لها كلامي هذا، سكتَتْ ولم تتحدث بشيء. وبعد ذلك اقتربت مني، وقالت لي:

-قازان: يا قازان. إن لم أكن أحبك حبًّا شديدًا فما كنتُ لأقول لك هذا الكلام. غرض "أروز قوجا" أن يجعل سادة الأوغوز يقفون ضدك. يجب أن تعرف هذا جيدًا. واعلم أيضًا أن رائحة الحرب تفوح من هذا الأمر.

سيدي الملك، لقد لفت كلام بورلا خاتون نظري فقلتُ:

- لا يوجد مشكلة، إن كان "أروز قوجا" يرغب في الحرب، فلتنشب الحرب لا يوجد مشكلة. حان الوقت أن تُنظف الأوغوز من الداخل، علي قبل كل شيء أن أقاوم لصوص الداخل، أيا كان هذا اللص.

قلتُ هذه الكلمات، ودخل آنذاك الخادم، وقال كما قلتُ سالفًا إن هناك امرأة تريد مقابلتي ولا تريد أن تقول اسمها. في الحقيقة كنت أريد - يا سيدي الملك - أن أُنهي الكلام مع بورلا خاتون، لذلك قلتُ للخادم "ادعها فلتأت، لنرى ماذا تريد".

استوقفت بورلا خاتون الخادم قائلة:

- انتظر، كيف لا تقول اسمها، اذهب وقل لها، إن لم تفصح عن اسمها، فلن تدخل.

فقلتُ :

- لا تفعلي هذا يا خاتون، اتركينا نقم بعملنا...

فهل استمعت لكلامي؟ بالطبع لا.

فأمرتُ الخادم قائلاً:

- حسنا، اذهب، وقل لها إن لم تقولي اسمك، فلن يسمح لك السيد بالدخول.

ذهب الخادم، والتفتت لبورلا خاتون ثانية وقلتُ لها:

- تعالي، هنا، يا بورلا، لنقوم بعملنا.

جلست، وانتظرت حتى عاد الخادم. فقدم الخادم الوغد ابن الوغد وقال:

- سيدي، إن المرأة القادمة هي بوغازجا فاطمة. تقول عندي كلام أريد أن أقوله على انفراد مع قازان.

لقد غضبت بورلا خاتون غضبًا شديدًا يا سيدي الملك، واندفعت كالطوفان أو كالسيل الجارف قائلة:

- كيف، كيف؟ بوغازجا فاطمة معك على انفراد؟ لا أجد كلامًا أقوله...

فقلتُ :

- ليس عندي أسرار مع أحد، ربما جاءت تبكي وتنتحب من أجل ابنها، قل لها تأتي بعد ذلك. غدًا...

قالت بورلا خاتون للخادم :

- ما معنى أن تأتي غدًا؟ انتظر، فلتأت الآن، ولتقل ما تريد أمامي، أتسمع ما أقول يا قازان، لتقل ما تريد بجواري...وإلا...

فقلتُ :

- آه ، ماذا تعني " وإلا "؟

فهددت خاتون قائلة :

- وإلا، سألحق بأبي الملك يا قازان.

فحاولت أن أهدأ الموضوع يا سيدي، فقلتُ لها:

- ما الذي حدث لك، ما الأمر؟

لقد سئمت سيدي الملك من هذا المنَ؟ دائمًا تَمن علي وتقول "سألحق بأبي الملك". ما إن أفتح فمي وأتحدث بشيء بخلاف هواها، تقول لي "سألحق بأبي الملك". أعلم جيدًا سيدي الملك أنها تَخيفني بك...ماذا أستطيع أن أعمل؟! وأنت تعرف جيدا كم أحبك. فمن أكون أنا؟ إلا مجرد فتى بسيط، جعلتني كبير السادة أليس كذلك؟ وجعلتني على قيادة الجيش، أليس كذلك؟ ودائمًا أنت عون لي وسند لي. نعود إلى موضوعنا الأساسي. لقد قالت لي "سألحق بأبي الملك، تأتي فاطمة بوغازجا الآن، وتقول ما لديها من كلام الآن".

فقلتُ لها :

- لا ، تأتي غدًا.

في البداية غضبت بورلا خاتون، ثم اشتد غضبها:

- أنا...أنا لن أبقى هنا دقيقة واحدة. اجعلها تأتي وتحدث معها بمفردك، وتذكرا سويًا أيامكما السابقة. انس ما بيننا يا قازان. إن كنت أنت قازان، فأنا بورلا خاتون، وسترى من هي بورلا خاتون بنت الملك بايندر خان.

قالت بورلا خاتون هذا الكلام وانطلقت وخرجت من الحجرة، فالتفتُ وفرغتُ غضبي في الخادم:

- لماذا تتسمر هنا؟ وغد ابن وغد، ألم تكن تستطيع أن تقول لي على انفراد ما قلتَه الآن؟ أحضر فاطمة بوغازجا الملعونة هذه. أحضرها فلتأت، الكافرة بنت الكافر.

تعجب الخادم وذهب، وأخذتُ أفكر: "يا ترى ماذا تريد هذه المرأة مني؟ ربما تريد أن تعرف ما عاقبة ابنها الجاسوس هذا، ألا تعرف أنه من المستحيل إعطاء الأمان للجاسوس في الأوغوز ربما تعرف ذلك، ولكن لماذا تريد اللقاء معي؟! ربما تريد أن تخدعني وتقول أي سبب وتحكي وتتوسل حتى يتم إطلاق سراح ابنها؟ دعها تأتي لنرى ماذا تريد؟"

جاءت بوغازجا ودخلت، وارتمت على قدمي، وبكت وانتحبت من شدة البكاء، ولكن لم تستطع بكل هذا أن تؤثر على قلبي. لقد التزمتُ الهدوء، وانتظرت حتى تكف عن هذا البكاء.

ما إن انتهت سألتها غاضبًا:

- ماذا تريدين أيتها المرأة؟

فقالت كلمات عديدة مثل:

- سيدي قازان، لقد جئتُ للموت تحت قدميك. لقد جئتُ للاحتماء برحمتك...

- أيتها المرأة، لا تطيلي الكلام. ألا تعرفين ماذا فعل ابنك؟ لقد تجسس ابنك على الأوغوز. عن أي رحمة تتحدثين؟ كاد أروز قوجا يقع في الأسر بسبب ابنك، وقد وقعت أمي المسكينة في الأسر. وزوجتي بورلا خاتون هي الأخرى...المهم، يا سيدي، لقد قلت لهذه المرأة ما يكفي، فالمقام كان لا يحتمل الشفقة أو الرحمة، وقلتُ لها أيضًا، "ألم تري ماذا جلب ابنك للأوغوز من مصائب..."

لقد تورمت عين المرأة المسكينة من شدة البكاء وقالت:

- لم أر ماذا فعل، ولم أعرف شيئًا يا سيدي. ولكن، يا قازان، أملي الوحيد، وملاذي الوحيد هو أنت.

- أنا؟ ماذا تقولين أيتها المرأة؟ هل تعين ماذا تقولين؟ أنا أملك الوحيد...ها.. ها.. ها

-أنت أملي الوحيد يا قازان. هناك سر في الأمر. لقد احتفظتُ بهذا السر اثنين وعشرين عامًا كاملا، لقد أخفيته عن الجميع.

- ماذا تقولين، ليس لي دخل بهذا.

- لك دخل بالأمر يا قازان، سأقول لك الآن، لك دخل بالأمر. ابني...

- ابنكِ...ماذا؟

- ابني ليس جاسوسًا.

فغضبتُ قائلاً:

- آه، انظر لهذا السر. ابنها لــيس جاسوسًــا...فمــن إذا يكــون الجاسوس؟ أنا؟!

- هل نسيتني يا قازان؟. .

التفتتُ، وقاطعت كلام بوغازجا قائلاً:

- اخرسي !...

- ربما نسيتني...لقد كنت فتاة جميلة حسناء.

- اصمتي بالله عليك...

- لقد أصابني الكبر الآن. كان خلف منزلنا واد صغير. هل نسيت الكلب الأسود الذي كان في حديقتنا؟ كان اسمه براججوق. أنــت الوحيد الذي كان ينبح عليه...تتذكر هذا...

- تحدثي ببطء، بالله عليك، ببطء، ماذا تريدين أن تقــولي؟ لمــاذا جئت إلى هنا؟ نسيتُ أو لم أنس...ما أهمية ذلك...لم أنس، مــا أهمية ذلك إذن؟! ابنك جاسوس، جاسوس ! ابك أو لا تبكي هو جاسوس...

صمتت بوغازجا قليلاً ثم قالت بهدوء:

- هو يكون ابنك، يا قازان.

- ابنك جاسوس، سوف يتلقى عقابه. ماذا تقولين؟ لا تتحدثي هكذا...

- كررت بوغازجا الكلام قائلة :

- هو ابنك.

(لقد نظرتُ خلسة إلى بايندر خان، فرأيتُ الملك يمسك هــذه المــرة الضحك بصعوبة. ولقد فكر فيما تقوم به فاطمة بوغازجا من حيلــة. ربنــا يستر. بالطبع الأمر لا ينتهي عند هذا الحد، النهاية في المستقبل، والله أعلم هل سيغضب بايندر خان، أم لا).

– ابني أنا؟! كيف يكون ابني؟! ألم يكن اسمك فاطمــة بوغازجــا المخادعة؟

قالت بوغازجا:

– الأم تعرف ابنها من أي رجل، يا قازان.

(لا أعرف بالضبط هل قالت بوغازجا بالفعل هذه العبــارة لقــازان، أم لا. ولكن عبارة "الأم تعرف ابنها من أي رجل" قالها قازان بالفعل للملــك وهو يحكي ما حدث للملك. وإن لم تعرف الأم هذا الأمــر فمــن ســيعرف إذا؟...).

فقلتُ :

– أثبتي لي هذا.

ثم ذهبتُ وتفقدتُ الباب وتأكدتُ أنه مغلق بإحكام.

– لم أبح بهذا السر لأحد منذ سنوات عديدة لقد أخفيتُ سري عــن الجميع. ولكن حان الوقت، أن أفشي السر. لا تقضي على ولدنا يا قازان، لا تفعل هذا.

لقد أصررتُ وبدأت الشكوك تدب في قلبي، فقلتُ:

– لماذا لم تقولي لي هذا حتى الآن؟

- ما الفائدة من هذا؟! قلتُ لك أم لم أقل، ماذا كان سيتغير في الأمر؟! هل كنتُ ستربيه وتجعله معك، وتعلمه، وتأخذه معك في رحلات الصيد، وتذهب به في الحروب، إنه فتى هادئ، مسكين، إن لم تجعله يتحدث، لا يتحدث من تلقاء نفسه. إن لم تسأله، لا يتحدث من تلقاء نفسه. دقق النظر في وجهه وعينيه، يا قازان، سوف ترى نفسك. وسيذكرك بشبابك.

سيدي الملك، بدأت أصدق هذه المرأة رويدًا رويدًا. وتذكرتُ يا سيدي، أيام شبابي وقد كنتُ أذهب إليها. والآن أصبح لي منها ولد. لماذا ستكذب هذه المرأة. والآن ماذا علي أن أفعل؟! لا أعرف ماذا جنيتُ يا إلهي؟! ما هذا البلاء الذي حل بي؟! ما هذا الخنجر الذي طعن قلبي؟ ماذا أفعل الآن؟!

- اذهبي، يا فاطمة، اذهبي وامضي إلى حال سبيلك. غدًا، غدًا، سيجتمع السادة لمجلس الشورى. سأنظر ماذا أفعل. أما الآن فاذهبي. ولكن لا أحد يعرف بهذا الأمر...

لقد قلت هذا لفاطمة، وخرجت وهي تقول لي "على العين والرأس". لقد غضبتُ يا سيدي، وقد تذكرتُ كلام ده ده قورقود لي، لقد قلتَ لي يا قورقود: "ليتك لا تندم يا قازان على أنك أثرتَ موضوع الجاسوس بدون داع".

نعم يا سيدي الملك، لقد وقعنا في الفخ. الذي نصبه بيرك. لو كنتُ أعرف أنه سيحدث هذا...لما أثرت هذا الموضوع. أما الآن. غدًا في مجلس الشورى للسادة كيف أنقذه. وكيف أبرئه؟! ماذا أقول؟ كيف سيحدث هذا هناك بكيل، و"أروز قوجا"، سيتدخلون في الأمر...ماذا سأفعل؟ لقد أخذتُ أفكر وأفكر بعد أن حدث هذا اللقاء بيني وبين بوغازجا. سيدي الملك هنا ينتهي كلامي، ولا أعرف إن كنتُ مذنبًا أم لا، فالأمر يرجع إليك، وإن كنتُ مذنبًا، ففداك دمي يا سيدي الملك.

عم الهدوء المكان. وكان مزاج الملك في أحسن حال، فصفق بيديه الاثنتين على بعضهما بعضًا، وأخذ في الضحك وقال:

- انظروا، أيها السادة، كم كانت هذه المرأة التي تسمى بوغازجا امرأة عاقلة...ذهبت لكل واحد من السادة وتحدثت معه على انفراد قبل مجلس الشورى، وقالت لكل واحدٍ منهم على حدة إن الجاسوس "ابنك" وانظروا، سيأتي غدًا "أروز قوجا" وسيقول الكلام نفسه، وسوف ترون هذا غدًا بأنفسكم. وسيقول هو الآخر عبارة "الأم تعرف من أي رجل ولدها". ولكن أتحفظ بكل ما قاله قازان في عقلك يا قورقود، ستحتاجه بعد ذلك. آه يا بوغازجا.. فليأت أروز قوجا هو الآخر... وسترون أن ما أقوله صحيح...ها...ها...ها.

قال الملك هذا وضحك. وبالرغم أن قازان لم يفهم شيئًا، فإنه شعر بالراحة قليلاً. ولكن بعد ذلك فجأة أصبح الملك جادًّا وتوجه نحو قازان قائلاً:

- ولكنك لا تعرف يا قازان، ما هو ذنبك الأساسي؟ إنه ليس في إطلاقك سراح جاسوس الأوغوز، وجعله يذهب ويمضي إلى حال سبيله، ويختفي، ذنبك الأساسي سأقوله لك في النهاية يا قازان غدًا أتحدث مع أروز قوجا، وبعد ذلك سيعرف الجميع قراري. أما الآن فاذهبوا، اذهبوا...

نظر بايندر خان إليَّ بإمعان. فلم أتحمل النظر إليه، فوضعت رأسي في الأرض ولم أتحدث بكلمة، وحمر وجهي بشدة. وأخذ قازان هو الآخر ينظر إلى الملك بايندر خان ومن حين لآخر كان ينظر أيضًا إليَّ ولكن لم يجرؤ أن يتحدث بكلمة واحدة.

***

منذ عدة أيام و"لالا" يأتي إلى باب ديوان الشاه ويعترضه الحارس اليوزباشي رحيم ولا يدعه يدخل. حقًا، بالرغم من أن اليوزباشي رحيم كان لا يسمح لـ "لالا" بالدخول إلى ديوان الشاه، فإنه لم يمنعه من أن يجلس في أحد أركان حديقة الديوان ينتظر. بل كان يقوم ببعض الخدمة له ويحضر له الماء والشاي من الداخل. و أحيانا كان يتسامر معه ويجالسه ويشربان الشاي معا، وكان الخدم يقومون على خدمتهما، فقد أعدوا المتكأت تحت الشجرة. وكانا يجلسان عليها ويتجاذبان أطراف الحديث عن الماضي ويتفقدان أحوال الخلق، ويذكران معارفهما من الناس. كان اليوزباشي رحيم يصغي بشدة لكلام "لالا"، وكان يتلذذ من الحديث معه، ولا يشبع منه. وكان بداخله يريد أن يقدر هذا الشخص الكريم "لالا" ويساعده في قضاء حاجته، ولكن كان الوزير هناك، كان اليوزباشي رحيم لا يخطو خطوة واحدة دون علم الوزير. وقد تحدث اليوزباشي رحيم بنفسه للوزير عن "لالا" فقال:

- سيدي الوزير. يأتي رجل كل يوم صباحًا إلى الديوان يجلس ويقول "أريد مقابلة الشاه". ويجلس حتى غروب الشمس ثم ينصرف. فأرسلت خلفه رجلاً يقتفي أثره، فوجدته ينام في إحدى استراحات الطريق. إنه من أبناء جلدتنا. يعرف الكثير. وقد ذكر أشياء غريبة جدًا عن شباب الشاه المعظم طيب الله ثراه. يعرف جميع السادة والأعيان ويعرف الجيش. وذكر أيضًا بعض الأحداث الشريفة في الرحلات.

سأل الوزير متظاهرًا بالاهتمام قائلاً:

- ما اسمه، ما نسبه.

- اسمه "حسين بك لالا". ولا أعرف عن نسبه شيئا.

- ألم يقل لماذا يريد أن يقابل الشاه؟

- يقول، سأقول بنفسي للشاه. يقول لدي خبر عاجل، ولكن لا يقول عن من هذا الخبر.

لم يهتم الوزير بكلام اليوزباشي رحيم، وكان يشك في الأمر وقال:

- حاول أن تعرف عن من هذا الخبر. إن استطعت معرفة ذلك فأخبرني. الآن وقت صلاة المغرب، ربما عاد الشاه من التجول إن شاء الله. اذهب أنت الآن، واشتغل بأمرك.

وفي اليوم التالي قدم حسين بك ثانية إلي ديوان الشاه. واعترضه كالمعتاد اليوزباشي رحيم واقترح عليه أن يجلس تحت شجرة وينتظر. شعر اليوزباشي أن حسين بك مغتم اليوم قليلاً. فبعد أن جلس الاثنان وتبادلا أطراف الحديث سأل حسين بك اليوزباشي رحيم:

- سيدي الحارس، اصدقني القول، هل الوزير هو الذي يعترض على مقابلتي الشاه، أم ما الأمر؟

في بداية الأمر تعجب اليوزباشي رحيم من هذا السؤال الذي لم يكن يتوقعه. احتسى جرعة من الشاي الموضوع أمامه ورد قائلاً:

- لا، يا حبيبي، ما هذا التفكير؟ الوزير كان يريد هذا اللقاء، ولكن الشاه غير موجود، في النزهة، لا يمكن أن تلتقي معه، علاوة على أن...

- علاوة على ماذا؟

- لا شيء. أنت ذكرت اسمك، ولا شيء في ذلك، ولكنك لم تذكر هويتك. ليس من السهل تقديمك للشاه دون معرفتك، أليس كذلك؟

شرد "حسين بك لالا" في التفكير فيما يلي: "الآن لو أفشيت الأمر لهذا، وأفصحت له عن هويتي، أنا أعرف الوزير الملعون جيدًا، لا يقبل هذا على الإطلاق، ولا يرغب في ظهوري ثانية، فهذا يطيح به. فماذا يمكن أن أفعل؟

وإن لم أفصح عن هويتي، فكيف أقابل الشاه حفظه الله؟ والله لقد أصبحتُ بين نارين حائرًا...

سأل حسين بك:

– لماذا لا يقول الوزير للشاه أن هناك مسكينًا لا حيلة له، قادما من بعيد يريد الوصول إلى حضرتك، لديه كلمتان فقط يريد أن يقولهما لك؟

– أنا لا أعرف، يقول له أم لا، ليس لي من الأمر شيء.

– فليقل له، أسير هرب من الأسر التركي. وقع أسيرًا في حرب تشالديران وحضر الآن.

سأله اليوزباشي رحيم باهتمام:

– ما الأمر بالله عليك؟ أأنت حقا حاربت في حرب تشالديران؟

ابتسم "لالا" على تعجب هذا الفتى الساذج قائلاً:

– لقد قاتلتُ وحاربتُ ببسالة وأنت لم تزل طفلا...

– أنا كنتُ طفلاً يا سيدي، وكان والدي حارسًا أيضًا، مات في حرب تشالديران.

– تشالديران، وما أدراك ما تشالديران. .

– بالله عليك حدثني عنها، لقد سألتُ الكثير عنها، فكل واحد يحكي لي بشكل يختلف عن الآخر. أنت كنت في أي فرقة؟

ابتسم مرة أخرى "حسين بك لالا". وأضاء وجهه. هذا الذي الفتى الساذج سوف يجعله يفصح له عن كل شيء ويتحدث عن كل شيء. لعله يحتال عليه؟!

- هل طلب منك الوزير أن تجعلني أتحدث؟

- لا والله، لا، والله لا. ليس هذا من أجل الشاه، أردتُ هذا لي، لنفسي. أنت تعرف يا سيدي، لا أتذكر والدي مطلقًا. لا يخطر ببالي، ولكن صوته في أذني...

امتلأت عين الفتى بالدموع. حتى رق له حسين بك وصدق هذه الكلمات. ومن ناحية أخرى كان قلبه مليئا بالحزن وكان يبحث عن حُجة لتفريغ مكنون نفسه. فبدأ الحديث رويدًا – رويدًا:

- تتكلم عن موقعة تشالديران...نعم، لقد أعرض الله عنا في هذا اليوم. هل رأيت الفيل قبل ذلك؟

- لا، لم أره.

- لقد رأيته لأول مرة قبل عشر سنوات في تشالديران. لقد ربط العثمانيون المدافع في أرجل الأفيال ورصوها صفوفًا. تنتابك حالة من الضحك عندما ترى هذا المنظر...ولكن مهما فعلنا لم نستطع أن نخترق هذه الصفوف. كانت حربًا ضروسًا، لقد امتلأ ميدان القتال بالجنود...لو سألتني في أي فرقة كنت؟ لم أستطع أن أخبرك من شدة الهرج والمرج الذي كان موجودًا. ولكن قل لي اسم والدك الذي اشترك في هذه الحرب؟

- الرقيب قربان علي.

نظر "لالا" للفتى بشك، وغاص في التفكير قائلاً:

- نعم...الرقيب قربان علي...

ثم تخيل أمام عينيه هيئة الشخص حامل الراية في الحرب وقال:

- أصلكم من "موغان"، أليس كذلك؟

تعجب اليوزباشي رحيم، واقشعر بدنه، وبرقت عيناه وازدادت ضربات قلبه:

- سيدي، هل كنت تعرف أبي؟

- لقد رأيتُ موت أبيك بعيني. كان حامل الراية في الحرب. خر من فوق فرسه، فأصيب بسهم في صدره. لو قلت هذا لأحد فلن يصدق، بعد أن فاضت روحه ظلت الراية في يده، لم يستطيعوا إخراجها من بين أصابعه، كان ممسكًا بالراية بقوة، لدرجة أنها ظلت متعلقة به حتى بعد موته.

اغرورقت عينا "حسين بك لالا" بالدموع، وفكر قائلاً: "أنا متأثر الآن، لا يجوز هذا، ماذا حدث لي؟!"، ثم مد يده وتناول كوب الشاي، ولكن لم يشرب، لقد أمسك الكوب بقوة في يده، وغاص في التفكير ثانية.

طأطأ اليوزباشي رحيم رأسه في الأرض. كان يخاف حتى من أن يتنفس. كان يخاف إذا تكلم بكلمة، أن ينساق وينفتح لسانه في الكلام، فيشوش أفكار هذا الشخص الغريب الذي يمتلئ صدره بالأسرار. يكاد يسمع ضربات قلبه في أذنه وفي رأسه. وفجأة كف حسين بك عن التفكير وواصل كلامه...

لقد صاح رئيس الحرس إلى الحرب قائلاً:

-تقدم سيدي الشاه، تقدم، اجعل بنفسك في مكان آمن...

- لا تجعل أحدًا يعترض طريق سيدي الشاه فداه نفسي...الله...الله...صاح "سلطان علي بك أفشار" وسط المعركة حتى يُبعد العثمانيين عن الشاه قائلاً:

- أنا الشاه، أنا الشاه !

فتعقبه العثمانيون ونجا الشاه، فداه نفسي...

- يا "مالباش اوغلو"، اظهر مهارتك في ساحة المعركة. .

- يا حسين بك، يا حسين بك !! لقد قدم "لالا" بفرقته للمساعدة. لا تفروا، اذهبوا من هنا، اهجم على هؤلاء يا "لالا". اقض على هؤلاء من أجل الشاه، تقدم...اهجموا لا تتقهقروا...

- "لالا"، أنا...أنا

- انهض يا فتى، انهض على قدميك، ما هذا، أليس هذا جراحًا!..

- أين الشاه، أنقذوه، أنقذوا الشاه. لقد قُضي على الجناح الأيمن، انشر الخبر، تقهقروا إلى الخلف ولكن بشكل منظم حتى لا تُخترق الصفوف...

صرف حسين بك عينيه بصعوبة عن هذه النقطة البعيدة التي كان يتخيلها وكان شارد الذهن فيها وهو يتذكر أحد مشاهد المعركة الضروس، ثم أتم كلامه قائلاً:

- انظر يا يوزباشي رحيم، هذه كانت معركة تشالديران، مرت عشر سنوات، حتى الآن لا تغيب هذه الأصوات عن أذني.

كان اليوزباشي وكأنه في حالة تشبه النوم، وبدأ يُحدث نفسه قائلاً:

- الآن يرد صوت أبي إلى أذني وهو يقول "سيدي الشاه سيدي الشاه... في سبيل الشاه فداه نفسي... لقد انكسر الجناح الأيمن، ويا سيدي الشاه، لقد تم اختراق الجناح الأيمن. يا سيدي الشاه.

أسرع، لقد انكسر أيضًا الجناح الأيسر، حان وقت الفرار، هيا، من هنا..."

ثم صمت الاثنان بعد ذلك. وكان هناك فقط صوت الرياح التي تهب من بين أوراق الشجر المتشابكة فيما بينها وأيضًا ظهر صوت طنين نحلة بين هذه الأصوات. ثم حل السكون على المكان بالكامل.

وفجأة عاد الاثنان إلى وعيهما. ظل اليوزباشي رحيم مكانه مطأطأ رأسه. أزاح "حسين بك لالا" بيده نحله كانت تطير في الهواء وتُحلق عند وجهه.

كان اليوزباشي رحيم لا يجرؤ أن ينظر إلى وجه حسين بك. لهذا السبب، تعرف اليوزباشي على هذا الشخص جيدًا. وعلى الرغم من أنه كان يعرف شخصية "حسين بك لالا" عن طريق الروايات والحكايات، فإنه أدرك فقط الآن من يكون هذا الشخص.

همس بهدوء:

- فداك نفسي يا "لالا"، من أجل خاطر الملك، اعف عني، تجاوز عن خطئي.

- مع من أنت، يا يوزباشي رحيم؟

أخيرًا رفع رحيم رأسه قائلاً:

- معك، يا "لالا". ثم نظر إلى وجه "حسين بك لالا" وطأطأ رأسه لأسفل ثانية، ونهض على قدميه في انتظار الأوامر.

وواصل كلامه قائلاً:

- أنت موجود يا لالا، لا تخف نفسك، لم أتعرف عليك في البدايـــة، لأن الجميع كان يظنك قد متَّ. بالله عليك، سامحني.. صمت "لالا" طويلاً، وفي النهاية لم يستطع التحمل ففاتح هو اليوزباشي قائلاً:

- اعلم أنني أعتقد حتى الآن أنني ميت، وأنت تسألني أيـــضًا فـــي فرقة من كنتُ أثناء الحرب...

- لقد أخطأت.

- لقد كنتُ في فرقة الشاه. يا بُني.

لقد انتصف النهار. كان اليوزباشي رحيم لا يزعج "لالا" كالمعتاد. فقد كان يستعجله ويقول كلماته المعتادة مثل "يكفى هذا اليوم ، انهض وامض إلى حال سبيلك وتعال غدًا". كان يتنحى جانبًا ويتفقد هو "لالا" بإعجاب وحيـــرة. أما ما كان يدور في خلده ويدور في عقله فهو ماذا سيقول للوزير وكيـــف. وكان ما يضايق اليوزباشي رحيم هو مثل هذه الأفكار، حيث كان يفكر فيما يلي: "حسنًا، فرضنا، أنني قلتُ للوزير من يكون هذا، فماذا سيفعل؟".

استدعى "لالا" اليوزباشي رحيم إليه مومئا برأسه. اقترب اليوزباشـــي رحيم من "لالا". ولكنه لم يجلس، وظل واقفًا.

- يا يوزباشي، الآن أريد أن أستشيرك في أمر ما، ما رأيك؟

- تفضل، يا "لالا".

- منذ ستة أشهر وأنا أسير ضالاً الطريق. وقعت في أسر العثمانيين عشر سنوات، ولكن ما عانيته في هذه الستة أشهر لم أعانه هناك. هذا القصر، وهذا الديوان اللذان أراهما، قد تغيرا تمامًا. لا أرى أحدًا أعرفه، أو حارسًا. حتى الوزير مجهول بالنسبة لي. ولا يزال...لم يُتم "لالا" كلامه وغير الموضوع – أنا أيضًا...كما رأيتَ أنت بنفسك، أنني لم أكن أريد إفشاء سري. أمنيتي الوحيدة من الله هي أن أرتمي تحت أقدام الشاه وأموت. . قل لي، ما رأيك، ماذا عليَّ أن أفعل حتى أحقق هذا؟

قال حسين بك "لالا" هذا لليوزباشي وصمت، وسلط نظره إلى بعيد حيث نقطة مجهولة، وكان ينتظر الرد من اليوزباشي. في النهاية قال اليوزباشي رحيم:

- "لالا"، أنت تعرف جيدًا هذا الوزير أكثر مني بكثير جدا. فماذا يمكن أن أقول له؟! ولكن الله كريم. سأحدثه عنك مرة أخرى، لو تسمح لي، أقدم له عنك معلومات تفصيلية. ولنر ماذا سيقول هذه المرة.

- أليس لنا مخرج آخر؟

- أنا لا أرى مخرجًا آخر. لأنه عندما يرجع الشاه من النزهة، لن أكون موجودًا هنا. سأقوم بالحراسة الليلية للقصر. علاوة على ذلك عندما يأتي الشاه لا يمكن أن تقترب من المكان الموجود به. فالأمور الآن تغيرت في القصر.

- أعرف هذا، أعرف هذا...أنت تقول الصواب، وأنت تعرف الأمور الأخرى. أنا بنفسي الذي وضعت هذه القواعد. عندما يكون الشاه غير موجود يتغير طاقم حراسة حديقة الديوان عندما يأتي. لا أحد يعرف، مع من تحدث أو التقى الحراس أثناء غياب الشاه...آه، الدنيا هي الدنيا، لم تتغير.

- لا تتغير يا "لالا" كما تقول.

التفت "لالا" حوله وكأنه يسأل نفسه:

- إذا ماذا عليَّ أن أفعل؟!

- لو تسمح لي، أذهب للوزير وأتحدث معه، وأعرض عليه الأمر. والله ليس هناك حل آخر.

- قل له...لا أعرف، ربما أنت محق. اذهب وتحدث معه، وقل له، إنه سيجد طريقة وسيتقابل مع الشاه، وحينئذ...ولكن، لا، لا تقل هذا، ربما يظن أنني أهدده. قل له يقول "لالا"، أنه عرف بالأمر من "بهروزه خانم"، أنت متنبه للكلام، تذكر هذا جيدًا، قل له هذا، إنه يقول لقد عرف من "بهروزه خانم" بالأمر.

طمأن اليوزباشي رحيم "لالا" قائلاً:

- سأخبره بما تقوله لي بالحرف.

***

بقي الوزير لا يريد أن يصدق أذنه فسأل اليوزباشي رحيم مرتين:

- هل قال لك بنفسه أنا "حسين بك لالا"؟! هل قال لك هذا. ربما أنت تتوهم؟

- قال بنفسه، سيدي الوزير. في البداية انتابني الشك، ولكن بعد ذلك أثبت لي هذا.

- ...أثبت أنه "لالا"، "لالا" بالفعل... معجزات الله كثيرة. لقد رأى كثيرون مصرعه بأعينهم. وقالوا للشاه...

غاص الوزير في التفكير. ثم توجه ثانية لليوزباشي رحيم سائلاً:

- هل قال لك إنه علم الأمر من بهروزه خانم؟

- نعم، سيدي الوزير، قال هذا بالضبط.

لم يعقب الوزير بأكثر من قوله:

- هكذا...هكذا...إذا لماذا...

لم يتحدث اليوزباشي بشيء آخر. كان الوزير ينظر إليه وكأنه ينتظر شيئًا، ولكن اليوزباشي رحيم لم يتحدث بعد ذلك.

- هكذا، علينا أن نفعل ما يلي، قل له "الوزير لم يصدق كلامي. وموضوع بهروزه قد تعقد. هذا أفضل، وقل له: إن الوزير يريد أن يتقابل معك بنفسه. غدا تحضره إلي في الديوان. والآن أنصت لي يا يوزباشي، لو علم أحد بهذا الأمر، أي موضوع مجيء "لالا" وأنه لازال على قيد الحياة، فسأستحل دمك. اعلم أن هذه أسرار الدولة. وقل له هذا أيضًا. إنه لا يصرح بهذا السر

لأحد آخر – بعد ذلك فرك الوزير يديه في بعضهما البعض – ولكننا الآن غير متأكدين هل هو "لالا" الحقيقي أم لا، ليست العبرة بقوله. سوف أراه، وبمجرد أن أنظر إليه سيتضح كل شيء. اذهب الآن، وافعل ما قلته لك بالحرف الواحد.

أحنى اليوزباشي رحيم رأسه وخرج من حجرة الوزير. وبعد ذلك، بعد أن مضى من الليل أكثره أخذ يفكر. وهو ينظر إلى أضواء الشموع. وفي النهاية، أطفأ الشمعة وقبل أن يتمدد على السرير دار في ذهنه هذا الخاطر: "لا يحتاج هذا الأمر إلى تفكير، بالطبع مات "لالا" في معركة "تشالديران". لا يمكن أن يكون هذا الشخص هو "لالا" إن شاء الله".

***

ما إن دخل "لالا" خلف اليوزباشي رحيم حتى عرفه الوزير. لقد عرفه من مجرد مشيته فحسب. نهض على الفور على قدميه من المكان الذي كان يجلس فيه مستندًا على متكأ، ونظر إلى رحيم وجمع شتات نفسه. وقد زاغ بصره وتسمر في مكانه وانشل تفكيره. كان "لالا" واقفًا ينظر إليه، والله فقط هو الذي يعلم ما يدور في ذهنه الآن. وأخيرًا جمع الوزير شتات نفسه بشكل كامل، وأشار إلى اليوزباشي رحيم برأسه أن "أخرج أنت". طأطأ اليوزباشي رحيم رأسه وما إن خرج من الباب حتى قال الوزير له:

- انتظر في الخارج. لا تسمح لأحد بالدخول إلى هنا. عندما أستدعيك تأتي.

لم يتكلم اليوزباشي رحيم ومضى إلى الخارج.

ظل الوزير جالسًا مكانه. وكان لا يعرف ماذا عليه أن يفعل الآن؟!. ليس لديه شك بعد ذلك في أن الذي أمامه ليس رجلاً آخرَ، أنه "حسين بك لالا" يقف بعزه وإن انحنى ظهره. إنه "لالا" حبيب الشاه أو كاتم أسراره. لم يكن يخفي عليه سر في القصر. لقد جاء عليه وقت، عندها يُذكر اسمه، يرتعد السادة والأشراف والوزراء والمساعدون وكان أكثر هؤلاء يختفون بمجرد أن يسمعوا صوته من بعيد. أما الآن، فقد أصبح بعيدًا عن الأنظار، والأفئدة. كان الجميع يعتقدون أنه لقي حتفه في معركة تشالديران. ها هو الآن، يقف هكذا أمام الوزير، يتفقده باشمئزاز خفي. في البداية أراد الوزير أن يتظاهر أنه لا يعرفه، فسأله بفتور:

- أأنت الذي يدعي أن اسمه حسين بك؟

حل السكوت على المكان.

أعاد الوزير السؤال عليه، وهو لا يزال لا ينظر إلى وجه "لالا" وقال:

- لماذا لا تتكلم؟ نحن نعرف أن "حسين بك" قد مات. أنت من أي جماعة، وما هدفك أيها الرجل؟

أجاب "لالا" بعزة قائلاً:

- نعم، أنا الشخص الذي يدعي أنه "حسين بك لالا"، ما الأمر ألم تعرفني، أم؟

- بك شبه بحسين بك...

نهض الوزير وقدم ووقف أمام "لالا". وظلاً وجهًا لوجه، وظلاً ينظران لفترة.

- أيها الوزير، أرى أنك إما لم تعرفني، وإما أنك لا تريد أن تعرفني. إذن، اسمح لي، أن أنشط ذاكرتك. كنت أنت فتًى شابًا. كان الشاه في سفر إلى شيروان آنذاك، وجاء سيدك إلى القصر عندي. كان سيدك من سادة "أوزون حسن". وكان في منزلكم الموجود في منطقة قرذلار التابعة لأردبيل....

لم يستطع الوزير أن يتحمل أكثر من ذلك. وأراد أن يتقدم قليلاً، ويحتضن حسين بك، ولكن شيئًا ما منعه، فأخذ يتفقده بحب:

- "لالا"، "لالا"، نعم، أنت موجود. أنا كنت أشعر بذلك. كنت أشعر أنك لم تمت. الشكر لله. اجلس يا "لالا" تعال هنا، تعال، اجلس. يا يوزباشي!

ونادى على اليوزباشي في الخارج.

دخل اليوزباشي.

- يا يوزباشي، أسرع، ومُر الخدم يحضروا لنا الفواكه والأطعمة لنا، بسرعة، بسرعة...

- على الرأس والعين يا سيدي

شعر اليوزباشي رحيم بالأمر من حالة الوزير. ووضع يده على عينه ولم يستطع أن يُخفي فرحته، فخرج وهو حاني الرأس لـ "لالا".

هيأ الوزير المتكأ لـ "لالا" وأجلسه عليه وسأله:

- بالله عليك يا "لالا"، تحدث، ماذا حدث لك؟ الجميع كانوا يعتقدون أنك قد مت، ما الذي حدث، وأين كنت؟ ومن أين جئتَ؟

اعتدل "لالا" في مكانه وبدأ الحديث:

- إن حكايتي طويلة. أنا مسكين وسيئ الحظ، أنا لا أعرف حتى الآن كيف خرجت من الحرب سالمًا. في غمضة عين، وجدت نفسي بين الأسرى. عندما كان السلطان يوزع الأسرى في تبريز منحني إلى شخص يسمى "عبد الله بك مؤمن" من طرابزون. في البداية كنت مريضًا، ولا أحد يهتم بجروحي، ثم بعد ذلك عرفوا من أنا، فلم يضايقوني بعدها. واهتم الطبيب بجراحي، ولكن ظللت تحت المراقبة عشر سنوات، واهتممت بالأعمال الكتابية الخاصة بـ "عبد الله بك مؤمن". ورتبت مكتبته. ومنذ عام أو أقل توفي. فلم يحتفظوا بي، وأطلقوا سراحي، لأنه أوصى أن يطلقوا سراحي، فقالوا لي اذهب حيث شئت. فذهبت إلى حال سبيلي، كان يجب أن أموت في معركة (تشالديران) أيها الوزير لا أعرف لماذا لم أمت.

أحضر الخادم الفاكهة والشراب فوق المنضدة، وانصرف. أخذ الوزير الشراب بعد انصراف الخادم، وصب في كأس "حسين بك" أولاً، ثم في كأسه وقال "تفضل، اشرب". كان حسين بك شارد الذهن وكأن خياله قد طار بعيدًا. تناول جرعة أو اثنتين من الشراب وهو شارد الكلام وأنهى كلامه قائلاً:

- ...والآن أريد مساعدتك مقابلة الشاه، وأضع رأسي تحت قدميه وأطلب منه العفو عن ذنبي... ولو أهدر دمي، لن يكون هناك مخلوق في الدنيا أسعد مني...

كان الوزير يستمع لـ "لالا" باهتمام، ويهز رأسه من حين لآخر، ويقول "نعم، نعم، إن شاء الله".

- إن شاء اللهى"لالا". ولكن لماذا يهدر دمك؟! ذو الفقار كان خائنا، ربما تعرف ذلك. أما أنت فلم تخن. الدنيا كلها تعرف شجاعتك. لو تعرف كم عانى الشاه بعدك. لو تعرف كم أتعبته معركة تشالديران وضايقته نفسيًا، ولا يزال يعاني من فقدان بهروزه خانم. لقد حاولنا كثيرًا وأرسلنا إلى الدول العثمانية، ولكن بدون فائدة...ربما أنت تأتي بخبر في هذا الموضوع، لقد أخبر اليوزباشي بذلك، أليس كذلك؟

عض "لالا" على شفتيه. نعم، من المعلوم أن الغرض الأساسي من لقائه مع الوزير هو جلب أخبار عن بهروزه خانم، المهم ألا يكون هناك عائق يحول بينه وبين مقابلة الشاه. والآن الأمور كلها في يده.

- نعم، أيها الوزير، لديَّ أخبار مختلفة. عندما أقابل الشاه سوف أفصح عنها إن شاء الله.

صدق الوزير على الكلام بسرعة بقوله:

- بلا شك، بلا شك يا "لالا". الشاه في نزهة. يرجع اليوم أو غدًا. بمجرد أن يرجع سوف أخبره بنفسي عنك. إن شاء الله.

- حينئذ...

- نعم، نعم، اذهب أنت إلى الديوان، وسأصدر أوامري، ليكونوا في خدمتك.

- أشكرك.

فطن "لالا" أن الوزير لا يريد إطالة الحديث، فنهض على قدميه. نهض الوزير مثله، وأوصل "لالا" إلى الباب. كان اليوزباشي رحيم يقف عند الناحية الأخرى من الباب أثناء خروج "لالا". فقال له الوزير:

- يا يوزباشي، ودع ضيفنا، وتعال هنا. ومُر رجالك أنه ما إن يصل إلى الديوان، حتى يكونوا في خدمته. أسرع، وارجع إليَّ.

سأل اليوزباشي رحيم "لالا" وهو يوصله إلى شارع؛ "هل ستأتي غدًا يا "لالا"؟ فأجابه "لالا"، "سآتي".

عندما عاد اليوزباشي رحيم إلى الوزير، رأى أنه معتل المزاج، شديد الغضب. استقبله الوزير بفتور.

- أغلق الباب وراءك بإحكام وتعال، اجلس

أحكم اليوزباشي رحيم الباب وقدم، وجلس القرفصاء عند قدمي الوزير وانتظر أوامره. كان الوزير يُدير حبات المسبحة التي في يده واحدة واحدة بهدوء، ولا يتعجل في بدأ الحديث، وفي النهاية...

مرة أخرى يصعب قراءة المخطوط في هذا الموضع، ومن الصعب توقع ماذا ينتظر" لالا" في القصر. والله وحده هو الذي يعرف ما السر الذي يجعل "لالا" يجتهد كل هذا الاجتهاد في مقابلة الشاه الذي يحبه أكثر من روحه. وكما يقول الشاعر، هذا كله من شدة العشق. وهنا أي لعبة يلعبها الوزير؟ بالتأكيد التنبؤ بهذا ليس بالأمر العسير، لأنه من المحتمل عودة "لالا" من جديد إلى القصر، يعني استعادة مكانته في الحكم، وهذا ما لا يُقنع الوزير ولا يتمناه. ولكن الأمر الذي نكر به "لالا" الوزير بشأن والده كان أمرًا صحيحًا. كان الوزير مدينًا بالكثير لـ "لالا".... أما الأحداث التالية فسوف تكشف اللثام عن أمرٍ شيِّق، وسوف يتضح أن الشاه كان لديه علم عن السر...

***

...أدار الشاه وجهه واستمر في مشاهدة الحديقة الخلفية من النافذة. وكان ظهره للوزير. وكان الوزير صامتا، يفكر، ولا يعرف ماذا يفعل، وماذا يقول للشاه. سأله الشاه:

– حسنا، لماذا تصمت؟ الآن ماذا سنفعل مع "لالا" هذا؟ بدا الآن في صوت الشاه حدة غير معتادة. لم يكن لـ "لالا" أي علاقة بهذه الحدة، كانت متعلقة بشكل أكثر بالوزير وبعجزه في عمل أي شيء. شعر الوزير بهذا، فتأوه بشكل غير إرادي.

– ماذا كان يمكن أن أفعل يا قبلة العالم؟! لقد خدعني بذكره اسم بهروزه...

– حسنًا، حسنا، لقد انتهينا من موضوع بهروزه. قدّم حلاً، وإلا.... لو جاء هذا وعثر علي...

– لا يمكن هذا. كيف سيجد هذا؟ أقول لك، ربما...

– لا، أيها الوزير، أنا مدين له بالكثير ودينه معلق في رقبتي. قدّم حلاً...

– إنني أفكر بقوة، يا مرشد الكمال...

– "لالا"..."لالا"...لا أصدق مطلقًا أنه لازال على قيد الحياة لقد رآه البعض رأي العين، فخروا من فوق خيولهم من هول الموقف. إنني أتذكر جيدًا عندما كان يُعلمني لعبة الشطرنج، كان يقول لي، ما إن يوجد مكان فارغ، اسحب فيه جنديًا وابدأ الهجوم من هذا المكان...

غاص الشاه في ذكريات الماضي وكأنه خجل من نفسه. شعر الوزير بهذا، فأدلى برأيه:

- هو لم يقل لي شيئًا. أنا أعرف، لو قال شيئًا، فسيقول لك بعض الأشياء. انتظر حتى يأتي، ولنر ماذا سيقول، ربما جاء بالفعل بخبر ما...اسمح لي سيدي الشاه، لو كان يكذب، أن اتخذ معه إجراء...

قال الشاه:

- على أية حال، سوف نتقابل معه، كما تقول. ولكن إذا كان أحضر خبرًا عن بهروزه، فهل هذا الخبر مهم بالنسبة لي؟! ربما يكون مهما لك؟!

- على أي حال، يا سيدي الشاه. الناس موجودة، والقصر موجود، ومن الأفضل أن يُعرف عن الشاه الوفاء...

- والآن متى تحضره إليَّ؟

- قلتُ له إن الشاه في النزهة، فليأت أولاً. إذا أردت اليوم، ممكن أحضره.

قال الشاه بحسم:

- فليكن اليوم.

- ولكن، ليس على انفراد، لا يمكن أن ألتقي معه على انفراد.

- حسنا، فلنذهب، لقد حان وقت الصلاة. وبعد الصلاة تأتون. على انفراد أو على غير ذلك، لا فرق...

خرج الشاه، والوزير خلفه. كان هناك قلق بداخل الشاه. ربما اليوم لا تريد تاجلى خانم أن تتركه يذهب للديوان، ربما كان قلقًا من هذا. لقد تذكر حديثه مع تاجلى خانم في الصباح الباكر، فاغتم.

.... عندما دخلت عليه "تاجلى خانم" حجرة نومه، كانت الشمس قد علت وتوسطت كبد السماء.

مع أن الشاه كان قد استيقظ من النوم، إلا أنه كان لا يزال في مكانه، لا يستعجل في النهوض. اقتربت "تاجلى خانم" من السرير وقالت:

- انهض، سيدي الشاه، انظر أين صارت الشمس؟! تناول طعامك ثم نم ثانية.

تمدد الشاه في مكانه وتفقد زوجته الحبيبة وهو في شبه نعاس قائلاً:

- أأنت "تاجلى خانم"؟

- نعم، فداك نفسي، أنا، ستنهض أم لا؟ انهض بسرعة، تناول طعامك، ثم افعل بعد ذلك ما تريد، أأقول لهم أن يحضروه هنا؟!

- لا، انتظري قليلاً. لماذا تبدين في عيني مختلفة بعض الشيء؟

- مطلقًا...

- قولي لي ما الأمر

لقد فر النوم من الشاه، وشعر أن "تاجلى خانم" ليست "تاجلى خانم" التي يعرفها، ربما لديها كلام تريد أن تقوله، إنها قلقة من شيء ما. في حقيقة الأمر، الشاه نفسه لم ينم هذه الليلة جيدًا. كان ينام نومًا متقطعًا. كانت عيناه تدور هنا وهناك وهو نائم. وكأنه يشاهد أحداثًا ما، نهض وشرب كوبا من

الماء، ثم ألقى برأسه على الوسادة ثانية. نسي الشاه نفسه وأخذ يفكر ويهتم بحال زوجته وسأل نفسه "ما الذي حدث لـ "تاجلى خانم".

- سيدي الشاه، فداك نفسي، لقد رأيتُ الليلة في منامي حلمًا سيئًا للغاية...

لقد زاد اهتمام الشاه. وفكر بداخله "النساء أكثر حساسية" وقال:

- تحدثي، قولي، ما الحلم الذي رأيته؟!

لمعت عين تاجلى خانم، وكأنها بدأت في مشاهدة الحلم الذي رأته من جديد: "لقد رأيت... أنك قد ألقيت بي وذهبت إلى بعيد، وتركتني وحدي. وجاء صوتك من السماء السابعة وأنت تنادي علي. وتقول لي؛ ماذا تفعلين عندك، لماذا بقيتِ هناك؟! تعالي هنا، تعالي، لو تعرفين كم هنا جميل؟ الجميع يحب هنا. فسألتك، لماذا ألقيت بي وتركتني، فداك نفسي أيها الحبيب؟ فقلت لي، بالله عليك اتركي هذا كله ماذا تريدين من عندك، مكاننا هنا عند الله...تعالى...تعالي..." ثم استيقظتُ من النوم. لا تذهب اليوم إلى أي مكان؟! ابق هنا اليوم أمام عيني، اسمح لي أن أكون في خدمتك بنفسي اليوم.

لقد دار في ذهن الشاه ما يلي "لقد قالت الجميع يحبك هنا. وجاء صوت لأذنيها ينادي عليها من هناك".

لقد شعر الشاه بما يشبه الخوف، ولكن لم تشعر به تاجلى خانم وبدأ يُحدث نفسه بصوت منخفض:

- يا الله، يا الله احمنا...احمنا يا رب الكون.... لا تتخل عنا بلطفك...

- وماذا رأيت بعد ذلك؟

- رأيتُك تفر مني فرارًا عجيبًا، ولا يستطيع أحد أن يوقفك، كنتَ تفر بسرعة عجيبة. أحيانًا تكون معي وأحيانًا أخرى لا تكون معي...كاد قلبي أن ينخلع من مكانه.

شعر الشاه بضيق في النفس:

- وبعد ذلك، ماذا رأيت؟

- ربنا يحميك، لم أر شيئًا آخر. لا تذهب اليوم إلى أي مكان. لا تذهب حتى إلى الديوان. لن تضيع الشئون، ولن تنهدم الدنيا إذا لم تذهب. ألن تقرأ لي الشعر اليوم؟ هيا فلنعقد مجلسا شعريًا.

قال الشاه بغضب:

- ليس الوقت وقت شعر. ظهرت أعمال ضرورية يجب أن أذهب.

- سيدي الشاه، يا نور عيني. تدب في قلبي أفكار سيئة. أنت تفكر في أمر ما، انظر إلى لونك... لقد كنت تريد بشغف الذهاب للنزهة. ولكنك لم تسر هذه المرة منها. لا تذهب إلى أي مكان. ما الذي سيحدث، لا تذهب إلى أي مكان؟! أنت... أنت عماد الدولة. حسنًا رأيتُ أيضًا في الحلم، يا سيدي الشاه، دعني أقول لك، رأيت سحبًا سوداء تغيم على القمر وغربان سوداء تفتح أجنحتها وتطير في السماء، هذه الرؤية، رؤية سيئة. رؤية سيئة...لا تذهب اليوم إلى أي مكان، لا تذهب...

تحدثت تاجلى خانم وتحدثت، ثم بكت فجأة. لم يهتم الشاه ببكائها على الإطلاق. فنهض من السرير:

- ارتكيني، يجب أن أذهب. نلتقي في المساء إن شاء الله. عندما أعود في المساء سوف أقرأ لك الشعر الذي كتبته حديثًا.

قال الشاه هذا الكلام وهو يرتدي ملابسه.

توسلت تاجلى خانم له ودموع عينيها تنهمر منها كالمطر:

- الآن، اقرأ لي الشعر...

- لا، انتظري المساء. عندما أعود...

قطعت تاجلى خانم بكاءها، وأحاطت بيديها الاثنتين ركبتي الشاه، وارتمت أمامه على الأرض:

- لن أتركك. اقتلني، لن أتركك.

فك الشاه يديها من أقدامه وتوجه نحو الباب وهو يقول لها "ابتعدي أيتها المرأة، فكما قلت الجميع يحبني هناك، نعم بالطبع. الجميع يحبني هنا إن شاء الله.

خرج الشاه من الباب وهو يقول هذا، وكان يسمع صوت بكاء تاجلى خانم حتى وصل إلى الديوان.

***

عندما وصلتُ إلى الحجر "نور" كان الليل قد مضى منه الكثير. وكاد القمر أن يُنهي مساره في الليل. وكاد قلبي أن يتوقف. لقد امتطيتُ الحصان مسرعا من هناك (من عند الملك بايندر خان) إلى هنا دون توقف أو استراحة. لقد استأذنت الملك، واختار لي ڤيلباش فرسا ملكيًا من إسطبل الخيول.

- أيها الحجر "نور"، يا أجمل الأحجار، يا أعقل الأحجار. لا أعرف منذ كم يوم وأنا بدونك. ولكن لا أتحمل البعد عنك. أنا لا أعرف ماذا سيحدث غدا وما لن يحدث، الله أعلم... ما الذي سيحدث، ربما يغضب الملك بايندر خان مني وربما لا يغضب مني عندما يعرف الأمر؟! الله وحده يعلم. ولكن كل ما عملته كان من أجل الأوغوز ومستقبل الأوغوز. إلهي، ألق الشفقة والرحمة في قلب الملك بايندر خان تجاهنا، ولا يصيبنا شيء، والشكر لك يا رب...

قلتُ هذا، واحتضنت الحجر "نور"، ثم ارتميتُ على الأرض بجواره. وبعد مدة طويلة غُصتُ في النوم. لقد كنت متعبًا غاية التعب، لدرجة أنني لم أعرف متى غلبني النوم...

ينقطع حكي قورقود في هذا الموضع مرة أخرى، وربما لا ينقطع النص هنا، لأن النص التالي في المخطوط لا يساعد في تحديد هل هناك فجوة في النص أم لا. أو بمعني آخر يمكن أن نقول إنه: يمكن أن يكون هناك

فجوة في النص، ويمكن لا، فـإذا كان هناك فجوة، فهي مرتبطـة بأفكار قورقود، ولـيس لهـا أي علاقـة بالموضـوع الأساسـي للمخطوط. وحينئذ يمكن القول إنه على الرغم أن الجـزء السابق والجزء اللاحق ليسا متصلين فيما بينهما إلا أنه يبـدو أنـه تكملـة منطقية للأحداث.

يلاحظ خدوش غريبة علـى الصفحات غير المقروءة. والمدقق النظر في هذه الخدوش يلاحظ أنها تشبه الأشكال الغريبة...

...لقد رأيتُ زحامًا من بعيد قبل أن أصل إلى حديقة الملـك. ينـزل الفرسان عن خيولهم وبمجرد أن رأيتهم يغسلون أيديهم ووجوههم ويتركـون خيولهم في المرعى ويأخذون الماء واللبن من الجواري ويشربون؛ عرفتُ أن "أروز قوجا" قد جاء، لم يأت بمفرده أو معه واحد أو اثنان من مساعديه، بل جاء مع مجموعة كبيرة. لقد جاء من سادة أوغوز الخارج كل مـن"آمـان"، و"دلي دوندار" و"دلي قارجار"، و"آلب رستم"، وأناس كثيرون آخرون. لقـد وصلتُ إليهم، ونزلتُ عن الحصان، وألقيتُ علـيهم الـسلام. وردوا علـي. وبمجرد أن رآني "أروز قوجا". اقترب مني، وامسكني من يدي، وانتحى بي جانبًا، وسألني:

– كيف حالك يا قورقود؟

ثم همس وقال:

- ألا تعرف، لماذا استدعانا الملك، أم هناك حملة حربية؟

- لا توجد حملة ولا شيء يا "أروز قوجا". هناك سؤال للملك، سوف يسأله لك، ثم أشرتُ إلى السادة الموجودين معه قائلاً: "لماذا جاء هؤلاء؟"

كان قيلباش ينظر إلينا من الناحية الأخرى. كان يخشى من حديثي معهم. فاقترب منا، وربما سمع الكلمات الأخيرة، فقال:

- مرحبًا بكم جميعًا، يا قورقود، لا يوجد أي مشاكل. قل للسادة يا "أروز قوجا"، لقد جاءوا طريقًا طويلاً، فليأمروا، لم نكرمهم حتى الآن، ربما هم جائعون؟

ذهب السادة مع قيلباش إلى الناحية الأخرى من حديقة القصر وجلسوا على المائدة الخشبية، فأكلوا وشربوا. وأثناء الطعام التفت قيلباش لي ولـ"أروز قوجا" وقال هامسًا حتى لا يسمع الآخرون:

- فلنذهب إلى الملك. فلننهض، وليستمر السادة في طعامهم وشرابهم، فلا يشعر بنا أحد منهم.

خرجنا أنا وقيلباش و"أروز قوجا" إلى وسط الحديقة وتوجهنا نحو حجرة الملك. دخل قيلباش الحجرة، وظللتُ أنا و"أروز قوجا" عند مدخل الباب وقال قيلباش وهو يدخل:

- انتظرا هنا، سأخبر الملك الآن بمجيئنا.

نظر إلي "أروز قوجا" نظرة عميقة وقال:

- ماذا حدث؟ ينتابني شك في الأمر.

فقلتُ:

- ماذا حدث لك؟ ألم يستدعك الملك إليه قبل ذلك؟ ألم يسألوك أو يتشاوروا معك قبل ذلك؟ لا يوجد شيء، لا ترهق نفسك بأفكار سوداء لا أساس لها من الصحة. من حسن الحظ، خرج قيلباش في تلك اللحظة، ودعانا إلى الداخل. فدخلنا إلى حجرة الملك. فكدت لا أعرف الملك بايندر خان. لقد نظرتُ إليه وأمعنت النظر، يا إلهي أهذا هو بايندر خان الذي رأيتُه أمس أم لا؟! ارتدى بايندر خان ملابسه المرصعة بالذهب، وجلس على عرشه العظيم، ولمعت عيناه واستقام عوده، فأصبح أكثر منا شبابًا في ليلة واحدة.

خر "أروز قوجا" على ركبتيه وزحف على ركبتيه حتى وصل إلى الملك بايندر خان. كان الملك يسلط نظره على "أروز قوجا" ويتابع كل حركاته باهتمام. وطأطأت أنا الآخر رأسي وأسرعتُ لأتخذ مكاني. اقترب "أروز قوجا" من الملك بايندر خان، ولكنه لم يقف على قدميه حتى الآن. فقال في مكانه:

- أيها الملك بايندر خان المعظم. يا ملك الملوك، يا عماد الأوغوز. لقد استدعيتني، فأتيتُ، كل ما تأمر به، فأنا وجميع سادة أوغوز الخارج مستعدون في سل السيوف حتى نموت في سبيلك.

قال "أروز قوجا" هذا الكلام وطأطأ رأسه في انتظار كلام بايندر خان. بعدَ سكوت بسيط بدأ الملك كلامه:

- أهلاً ومرحبًا بك يا "أروز قوجا"، ومرحبًا بالسادة أيضًا.

قال "أروز قوجا":

- السادة يقبلون يدك، يا أيها الملك.

قال الملك بايندر خان:

- طاب السادة. أوصلْ لهم سلامي، فليأكلوا ويشربوا وليهنئوا بأوقاتهم. ألا تعرف يا "أروز قوجا" لماذا دعوتك، أم لا؟!

أجاب "أروز قوجا":

- لا، لا أعرف، لم يقولوا لي، يا سيدي الملك.

- هناك أمر في الأوغوز. لقد وصل إلي الخبر، فلم أسر من هذه الأحداث. ويَمسك طرف من هذا الأمر. فلدي إليك سؤال، لذلك دعوتك.

سأل "أروز قوجا":

- ما الأمر يا سيدي الملك.

- لا تتعجل، ستعلم. تعال إلي هذه الناحية - وأشار إليه الملك بايندر خان إلى المكان - اجلس هناك. يا قيلباش، هل أكرمتم السادة؟

- أكرمناهم، وهم يأكلون ويشربون....

قال بـ"بايندر خان" :

- حسناً، اجلس يا قيلباش، اجلس مكانك.

عبر قيلباش وجلس القرفصاء على ركبتيه خلف "أروز قوجا". وقد جلس قبله "أروز قوجا" القرفصاء. ألقى بايندر خان نظره علي، وواصل كلامه:

- والآن اسمعني يا "أروز قوجا"، لقد وصل إليَّ نبأ أن هناك جاسوسًا في الأوغوز. ألا تسمع أن هناك جاسوسًا في الأوغوز. كما قالوا، ذهب قازان إلى الصيد، فقام الجاسوس بوظيفته. وقد انكسرت قدم "بكيل"؛ فقام الجاسوس بوظيفته. وقع "بيرك" في الأسر. وكان هذا من فعل الجاسوس أيضًا. وقد ردت الأوغوز على عمل الجاسوس، وكان يجب أن تذيقه ألوان العذاب. فماذا حدث؟ الجاسوس معروف وقد قُبض عليه، ووضعه قازان في السجن، فاجتمع السادة وأنت من ضمنهم إلى مجلس الشورى. ولكن ماذا فعلتم؟! قلتم "ليس مذنبًا". وأطلقتم سراحه، فخرج ومضى إلى حال سبيله. هل الأمور تؤخذ هكذا يا "أروز قوجا"؟ كان يجب أن يقطع هذا الجاسوس أمام الأوغوز إربًا إربًا، عيانًا جهارًا، حتى لا يفكر أحد في الأوغوز أن يسلك هذا المسلك المُشين، أليس كذلك؟! ولكن لم تفعلوا هذا. والآن أريد أن أستمع إليك. هل أنت قلت في الاجتماع " أعطوا الجاسوس لأمه فليذهب إلى حال سبيله"، أم ربما الأمر له وجه آخر؟! ما رأيك يا "أروز قوجا"؟

كان "أروز قوجا" شخصًا عاقلاً، ومسموع الكلمة، فبعد أن أنهى الملك بايندر خان كلامه، انتظر قليلا وقال:

- سيدي الملك بايندر خان. إن حكاية هذا الجاسوس حكاية طويلة. سأخبرك لماذا قلتُ إنه غير مذنب. اعلم أن موضوع الجاسوس حيلة بين قازان وبيرك. وكنتُ الهدف من هذه الحيلة في الأصل. لقد وصلني من أوغوز الخارج نبأ الجاسوس. وقالوا

"يوجد جاسوس، وخيط ذلك الجاسوس في يد "أروز قوجا".

سيدي الملك، لقد بلغتُ هذا العمر وأنت تعرف أنه حتى الآن لم يراجعني أحد في أوغوز الخارج في الكلام، وقد اشتركتُ في كل الغزوات، وأرسلتني في الحملات العسكرية، وذهبتُ، وقد حميتُ أوغوز الخارج أثناء أسر قازان، وأعددتُ جيشًا غفيرًا، وذهبتُ إلى عقر دار "قارا مالك" وقطعته إربًا. فماذا حدث لي، أأنا أرى جاسوسًا، وأتجسس على الأوغوز لصالح العدو؟ سيدي الملك هذا أمر مضحك، لا أريد أن أتعبك بهذا الأمر. أنا سأخبرك ببعض الأمور الأخرى، فاسمع مني. اعلم أن قازان يُكن لي العداء، فعلى الرغم من أنني خاله فإنه لا يحترمني ولا يوقرني، بل والأكثر من هذا، أنه لا يستمع لكلام سادة أوغوز الخارج الآخرين. هذا أمر يطول شرحه، سيدي الملك. وهذا الأمر يعرفه كل رجل من رجال الأوغوز. وأنا ضد كل ما يقوله قازان. أما بيرك فمن يكون هذا؟ أنا لا أعترف به. لقد تزوج إحدى بناتنا، أنت تعرف سيدي الملك أنه تزوج بـ "بانوتشيشك" بنت "بايبيجان"، ولكنه لا يعترض على قازان سواء أكان مخطئًا أم مصيبًا. وهو الذي أوصل خبر هذا الجاسوس لقازان. لقد فكرا ودبرا وقالا ماذا نفعل حتى نُسقط "أروز قوجا" من نظر الملك بايندر خان؟! فلنعلق عليه موضوع الجاسوس. فليصدق الملك هذا، وليغضب منه، وتحدث فتنة بين أوغوز الداخل والخارج.

في هذا الموضع ألقى بايندر خان عليَّ نظرة ليرى هل أكتب أم لا؟ فرآني أكتب، فرفع يده وقاطع كلام "أروز قوجا " وقال:

- "أروز قوجا"! لقد قلت أن بينك وبين قازان أمرا ما. أريد أن أعرف ما هذا الأمر.

اعتدل "أروز قوجا" في مكانه، ورمقني بطرف عينه. وكانت أول مرة يرى ما أكتبه، ولكنه لم يقل شيئًا، واتجه بوجهه نحو الملك بايندر خان ثانية قائلاً:

- سيدي الملك بايندر خان، أنا لا أعرف السبب الحقيقي لهذا الأمر. ما ذنبي ما خطيئتي؟ ليت أحدا يقول لي هذا. ولكن اسمح لي، أن أنقل لك ما أعرفه وقرر أنت.

- تفضل، يا "أروز قوجا"

(بدأ أروز قوجا الموضوع من بداية بعيدة جدًا. وتطرق إلى طفولة قازان، وفترة شبابه وزواجه...فتكلم عن كل هذه الأمور واحدا تلو الآخر. وبعد ذلك أوضح الملك بايندر خان إلى "أروز قوجا" أن كل هذا الكلام لا حاجة لنا به في الموضوع. لأنه لا علاقة به بالجاسوس. ويا قورقود – قال لي الملك بايندر خان – أبق فقط على الكلام اللازم فيما كتبتَ، وامح الباقي. وقد فعلتُ ما أمرني به الملك بايندر خان، لهذا السبب لم تبق حكاية "أروز قوجا " كاملة في نص المخطوط).

قال "أروز قوجا":

- سيدي الملك بايندر خان! ألا تعرف سبب هذا الحقد الذي يُكنّه لي قازان.

أجاب بايندر خان:

- لا، لا أعرف.

- السبب هو انتصار ابني "باصات" على "تك جوز"، فاعلم هذا.
- حقًا؟

لقد أظهر الملك بايندر خان تعجبه حتى صدقتُ أنه لم يكن على علم بهذا الأمر.

- نعم، صدقني. السبب هو "باصات". ألم يحرز "باصات" عملاً عظيمًا؟. ألم ينقذ باصات الأوغوز كلها من يد العدو الغاشم؟.

قال بايندر خان برقة:

- فعل، يا "أروز قوجا"، نحن نعلم هذا، ارجع إلى الموضوع الأساسي.
- أنا أتحدث في صميم الموضوع سيدي الملك. استمع لي، وسيتضح لك كل شيء جليًا. وكذلك سيتضح ما أمر الجاسوس. ولماذا يسيء قازان وبيرك إلى أوغوز الخارج. سأقول لك كل هذا.

فطنت إلى أن هذه الحكاية لن تمضي بدون باصات، فكتمتُ غضبي. ونظرتُ فرأيتُ أن الملك بايندر خان لا حيلة له، يكتم صبره هو الآخر. وأخذ كل منا ينصت إلى حكاية "أروز قوجا".

بدأ "أروز قوجا" كلامه:

- أيها الملك، كما تعلم أن "تك جوز" قدم بجنوده البؤساء وقطع طريق نهر "سيللما" الجاري من عند أوغوز الخارج وجلس عنده. كان عدد جنوده لا حصر ولا عدد له. ولا أحد يعرف من أين أتى لهذه المنطقة. فلا لغته تشبه لغتنا ولا دينه يشبه ديننا. قلت أرسل إليه رجلاً حتى يتقصى منه ما الذي جاء به، فضممتُ إلى "آلب روستم" النواب، وذهبوا إليه. وأصدرتُ إليهم أوامري أن

ينظروا ويعرفوا هل هم كُثر أم قلة، وما هي قواعد الحرب عندهم، وهل لديهم أسلحة ومعدات كثيرة أم لا...المهم، ذهبوا، وعندما رجعوا قدم إلى آلب روستم وقال لي ما يلي:

- سيدي، إنهم قوم مرعبون، لم أر في أي مكان قومًا أو طائفة مثلهم.

سألته:

- هل تقابلت مع رئيسهم؟

ردَّ علي آلب روستم قائلاً:

- تقابلنا معه سيدي. هو استدعانا إليه. كان متطلعا لرؤيتنا. وقد سألني أسئلة كثيرة جدًا.

فسألته:

- ما هدفه؟ وهل سيبقون كثيرًا؟

- سيدي، يريد الجنود أن يستولوا على منابع نهر "سيللما"، فقد جمعوا الحجارة الكبيرة والصخور العظيمة على الشاطئ في انتظار إشارة، يا سيدي "أروز قوجا". أنهم سيقطعون علينا الماء.

- هل هذا ممكن؟! أبهذا الشكل يحاربون؟! أليست البطولة من شيم الرجال؟ - لقد قلت هذا وطلبت السادة للشورى. ودعوت أيضًا قورقود. فجاء هو الآخر.

لقد فتحت اجتماع الشورى وقلتُ:

- أيها السادة، هناك أمر مهم. لقد قدم "تك جوز تكور" بجيش عظيم، واتخذوا من أراضينا مسكنا لهم. وقد نصبوا خيامهم وسط طريق القوافل القادمة من المناطق المجاورة لمنبع نهر "سيللما" وسفوح

جبال "قاضيليق" مرورًا من أوغوز الخارج ومنطقة "جونور طاج"، حتى يصلوا إلى أوغوز الداخل. وقد أرسلنا لهم رسلاً، حيث ذهب آلب روستم إليهم وعاد، فلم يفصحوا عن مراميهم ولا هدفهم. لغتهم ليست لغتنا، وديننا ليس دينهم. الشيء الوحيد الواضح في الأمر هو أن الأوغوز ستعاني منهم البلايا الكثيرة، فيجب علينا أن ندرك هذا جيدًا. والآن أيها السادة، ماذا علينا أن نفعل؟! آلب روستم يقول إنهم سيحولون اتجاه الماء في نهر "سيللما" إلى وجهةَ أخرى، لا قدر الله إذا حدث هذا فليس لنا ملجأ ولا ملاذ إلا الله. فما رأيكم؟ هل نجمع جيشا ونحارب "تك جوز"، أم نبحث عن رد للسؤال الذي يسأله الشيوخ والعجائز والنساء والأطفال القائل "ما الذي يعود عليكم من هذا؟".

نادى السادة من كل مكان "نريد الحرب، نريد الحرب" اذهب بنا إلى "تك جوز" أنت عمادنا يا "أروز قوجا".

سيدي الملك، لم ينته هذا المجلس حتى أخبرنا أحد الخدم "لقد جف ماء أحد فروع نهر سيللما". فغضب السادة جميعًا. وكان "آمان" موجود في الشورى، فقال:

- فلتوصل الخبر إلى الملك بايندر خان، وإلى أوغوز الداخل. فهذه الحرب ليست حرب أوغوز الخارج وحدهم. لسنا نحن فقط الذين نشرب من هذا النهر. اليوم نحن بدون ماء، غدًا سيصبح أوغوز الداخل أيضًا بدون ماء.

حينئذ سيدي الملك أرسلنا الخبر لك ولقازان عن طريق الفرسان. وانصرفنا نحن أيضا لنستعد للحرب.

في الصباح الباكر كون سادة أوغوز الخارج جيشا في مقدمته النــواب وفي الأجنحة المساعدون سواء من المسلحين أو غير المــسلحين. وتوجهنــا مباشرة إلى مقر جيش "تك جوز". فرآنا مراقب "تك جور". وصــعدنا إلــى ناحية "يوزسيلل" بمحاذاة فرع النهر الجاف. وفجأة فتح علينا العدو الملعــون نبع النهر، فجرفنا سيل المياه إلى الوراء من حيث أتينا إلى أوغوز الخارج. وقد هلك منا في هذا السيل الكثير وأصيب الكثير أيضا بــسبب ارتطــامهم بالصخور. و"تك جوز" هو "تك جوز". فقد جعلنا نتقهقر دون أن يفقــد هــو جنديًّا واحدًا.

وفي اليوم التالي جمعنا جيشًا مرة أخرى. في هذه المرة اخترنا طريقًا آخر. أردنا أن نعبر خلف "تك جوز". فتركنا طريق القوافل، وسرنا بمحــاذاة سفوح جبال "قاضيليق". فعرف جيش "تك جوز" بأمرنا هذه المــرة أيــضًا. فقطع طريقنا كالأمس، وبدأت الحرب، سيدي الملك. أقول لك لقــد شــاهدتُ غزوات كثيرة، فلم أر مثل هذه الحرب. الــسهام لا تختــرقهم، الــسيوف لا تقطعهم، يا سيدي. كان لديهم ملابس مدرعة. وصدور خيولهم مدرعة. المهم قامت حرب ضروس. وامتلأ الميدان بالرؤوس...

(يجب تذكر هذا. فالكلمة التي قالها "أروز قوجا" حادة كالسيف. "لقد قامت حرب ضروس وامتلأ الميدان بالرءوس").

لقد هزمنا، سيدي الملك. وتقهقرنا، وتركنا من وراءنا القتلى، وفررنــا بأرواحنا فقط.

لقد قدم إليَّ السادة مرة أخرى وسألوني، "ماذا نفعل الآن؟".

سأل "آمان":

– هل قدم خبر من الملك بايندر خان أو من قازان؟

فقلتُ :

- لم يأت شيء.

فقال "بايبجان ماليك":

- فلنرسل إليه رجلاً آخر. ونحكي له ماذا حدث ! ليجد لنا الملك حلاً. فاليوم أوغوز الخارج في مأزق، وغدا أوغوز الداخل، وبعد ذلك سيكون الدور على من؟

لم يشارك "بايبحان مايك" في الحرب مع "تك جوز". كان مشغولاً بالإعداد لزفاف ابنته. فهو كان سيزوج "بانوتشيشك" إلى بيرك. وكانا سيتزوجان في غضون يوم أو اثنين. فقلتُ لـ "بايبجان ماليك":

- أيها السيد، انضم أنت أولاً إلى الجيش، حتى إذا سأل الملك بايندر خان، هل أوغوز الخارج خرجت بكل قوتها؟

فقال لي "بايبجان ماليك":

- أروز قوجا، لو شارك ابنك باصات في المعركة، لما حدثت أي هزيمة.

- أنت محق، غدا سينضم أولادي أيضًا إلى الجيش.

في اليوم التالي أصدرت أمري إلى سادة أوغوز الخارج أن يستعدوا ثانية للحرب، ولكن في الليل جاء خبر سيئ. واجه قازان "سيدي الملك" بمساعدة أوغوز الداخل جيش "تك جوز" عند النهر في طريق القوافل، ودارت المعركة هناك وهزموا. وهلك السادة، وفر من فر من السادة إلى أوغوز الداخل. لم أر "قازان" تلك الليلة. ورأيتُ أخاه "قارا جونه". وأحضرته

إلى البيت وكان لديه جرح طفيف في ذراعه، فعالجه الخدم وربطوا جراحه. فسألته بغضب قائلاً:

- قارا جوانه، لقد وثقت بنفسك لدرجة أنك خضت المعركة بدوننا؟! أيها الوغد، ألم أبلغكم أن تعالوا نذهب سويا إلي "تك جوز".

- لقد قال قازان سأصطاد جيش "تك جوز" بنفسي، فلا أحتاج أوغوز الخارج للمشاركة في هذا، ماذا سأفعل بهم؟! وتكون الغنائم التي لهم ملكًا لنا. فجمع السادة، وانطلقنا بالخيول دون تفكير.

- هل وقعتم في الفخ؟

- نعم وقعنا في الفخ، وقد أسر كثير منا يا "أروز قوجا"، هل رأيت طيلة حياتك جيشا مثل هذا؟

- أنا لم أر.

- وأنا أيضًا لم أر. والآن ما العمل؟

- يجب العثور على قازان. ونذهب سويا إلى الملك بايندر خان.

قال لي قارا جونه:

- ما رأيك، أنفعل هذا؟

بحثنا عن (قازان) فعرفنا أنه ذهب إلى أوغوز الداخل يستريح في منزله. قال له الخدم "لقد قدم خالك" أروز قوجا" وأخوك (قارا جونه)". لقد عارضانا، وكانا في شدة القلق وقد اسودّ وجهاهما وزاغت عيونهما، وقد سألني قازان السؤال نفسه:

- "أروز قوجا"، لقد شاركت في معارك كثيرة، حتى إنك وصلت إلى طرابزون. وقد سللنا السيوف معك، فهل رأيت جيشا مثل هذا طيلة حياتك؟

فأجبته :

- لم أر مثل هذا، ولكنك كيف خضت هذه المعركة وحدك؟ لقد أرسلتُ لك خبرًا أن تأتي عندي ونحارب سويًا، فما الذي حدث؟

سأله قازان:

- ليتني كنت أعلم. هل رأى أحد منكم "تك جوز" هذا؟

- لقد رآه آلب روستم، فقد أرسلنا إليه رسولاً.

فقال قازان :

- كيف هذا الرجل؟

- والله لا أعلم. يقال إنه فارس مغوار، يحرك في كل يد من يديه حجر طاحونة من شدة القوة.

- أحقًا هذا؟

- نعم، حقًا ، حقًا...

فسأل قازان وهو يفكر:

- والآن ماذا سنفعل؟

فقلتُ:

- ماذا يمكننا أن نفعل؟! يجب أن نذهب إلى الأوغوز، اركب فرسك، ونذهب الآن إلى الملك بايندر خان ليمد لنا يد المساعدة والعون.

سيدي الملك، أتتذكر، لقد جئنا لك مع قازان. وتشاورنا كثيرًا. وبعد ذلك استدعيتَ قورقود، وجاءك ، و قلتَ له ما يلي سيدي الملك:

- اذهب يا قورقود إلى "تك جوز"وقول له إن الأوغوز تريد أن تعقد معك اتفاقا. فليلق ما لديه من شروط. وأنتم أيها السادة استعدوا رويدًا رويدًا للمعركة. ولكن لا أحد يفعل مباشرة كل ما يخطر بباله. يجب توخي الحذر. فلننتظر قليلاً، ولنجمع القوة. ولنعلم شروط "تك جوز". وفي هذه الأثناء أرسل رجلاً إلى طرابزون، وجورجيا، واتفق معهم. فلا تستطيع الأوغوز وحدها التخلص من هذا العدو. فليذهب قورقود ويأت، ونجمع قوتنا، وحينئذ نقرر القرار الأخير.

عدنا إلى مكاننا. وذهب قورقود معي. وتجمع السادة ثانية، وأبلغناهم كلام الملك بايندر خان، فأعجبهم رأي الملك واستعداده ، وسلطوا أبصارهم على قورقود وقالوا:

- اذهب في أمان الله وعُد سالمًا غانمًا، إن أراد أي شيء، فسنعطيه له، ولكن يفتح لنا الماء. فالشيوخ والنساء والأطفال يبكون ويتأوهون من قلة المطر...

لقد قلنا هذا وودعنا مع السادة قورقود إلى "تك جوز". وهذا سيدي الملك هو الرسول الثاني من قبلنا الذي يذهب إلى "تك جوز". وفي المرة الأولى كما قلتُ لكم ذهب آلب روستم. لم يغب قورقود كثيرًا، وسرعان ما عاد. لقد عاد ومعه خبر سيئ. لقد وضعوا شروطًا، سيدي الملك لم نسمع به من قبل مطلقًا. لقد قالوا في اليوم ستعطون لنا قطيعا من الأغنام، ورجلين أيضًا، ليأكل رئيسنا كبديهما "تك جوز". هؤلاء سيدي هم آكلو لحوم البشر.

لقد فكرنا سيدي الملك كثيرًا وأمعنا في التفكير. ما الحل؟ فماذا كان يمكن أن نفعل؟ وافقنا واتفقنا. والآن انظر، لا يوجد مشكلة في إعطاء قطيع الأغنام، ولكن طلب رجلين يوميًا لتقديمهما للأكل، فهذا أمر صعب، أليس كذلك؟! ففكرنا كثيرًا ثانية ، وتشاورنا، واتفقنا أن يقدم كل منزل رجلاً، فكل من كان لديه عبد أو أسير فليقدمه ومن لا يمتلك فليقدم ابنه أوابنته. سيدي الملك، لقد تعالت الآهات والصرخات إلى عنان السماء في الأوغوز. وبعد قليل أعطت كل البيوت نصيبها، وبدأ الدور يعود من جديد. فبدأ الناس في الصياح مرة أخرى. لقد تصدينا للموضوع من ناحية، والناحية الأخرى هي جيش "تك جوز". فكان هذا الجيش يظهر فجأة في غمضة العين. وفي هذه الأثناء جمع ابني "قيان سلجوق" مجموعة من الفرسان، فلم يتحمل هذا وهجم على معسكر "تك جوز" ليلاً، فأسروا ابني (آلا جولو) ومات في ساحة المعركة.

قدم إلى قورقود وقال: إن استطعنا أن نقنع "باصات" أن يقاتل "تك جوز"، فسيهزمه، فأنا أشعر أنه لا أحد يستطيع القضاء على"تك جوز"إلا ابنك "باصات". فقلتُ:

– حسنًا، ولكن كيف؟! أنا لا أعرف مكان "باصات"، فهو لا يخرج من الغابة. فهو اتخذ الغابة مسكنا له يتجول فيها مع الوحوش.

قال قورقود:

– ماذا يحدث؟ نذهب ونحاول العثور عليه بشكل أو بآخر، ونحضره، وأنا سأتحدث معه. لقد أرسلنا الخدم إلى نواحي مختلفة قائلين "ابحثوا عن باصات مهما يكن، وأحضروه". وبعد فترة وجدوه وأحضروه.

قدم باصات وقال:

- والدي الكريم، هل دعوتني؟

- دعوتك، يا بني باصات. الآن تعرف ماذا حدث؟

- لا أعرف، يا والدي، لم يقولوا لي شيئًا.

لم يصبر قورقود وقال ما يلي:

- لقد قدم العدو يا باصات، وقلب الأوغوز رأسًا على عقب. وقد سقنا الجيوش عليهم، فهزمت. وأُسر الفتيان الشجعان في يد هذا العدو. وقد أبرمنا معه عهدًا فأرادوا منا كبد شخصين يوميا للأكل. فقدم كل من له ابن أو ابنة أبناءه. فما رأيك؟ لقد رأيتُ هذا العدو. يطلق على رئيسهم اسم "تك جوز" إنه فارس مغوار، ولكنه بجوارك لا شيء أنت فقط الذي تهزمه.

قال "باصات":

- أنا لا أستطيع الذهاب.

فسألناه :

- لماذا؟

المهم، سيدي الملك، الموضوع يطول، فقد أبدى "باصات" هو الآخر شروطه. كان آنذاك ابني "قيان سلجوق" قد ذهب إلى الحرب حديثًا. فقد حاولنا أن نجذب "باصات" إلى أن يوافق عن طريق إخباره أن أخاه قيان سلجوق قد ذهب لقتال "تك جوز".

لقد وعدنا "باصات" قائلاً:

- لو مُست شعرة من رأس قيان سلجوق، سأذهب للقتال. لقد تغير باصات تمامًا بعد أن وقع قيان سلجوق في الأسر في ميدان القتال، وغير ملابسه، وجمع حوله مجموعة من الفرسان، وسلك طريقه للقتال. فمرت ثلاثة أيام بلياليها ولم يأت أي خبر، فأرسلنا عينًا لنا يتقصى الأمر، فلم يرجع، وأرسلنا جاسوسًا فلم يعد، فلم أتحمل أنا وقورقود ولجأنا إلى الله والدعاء والتوسل مع اثنين أو ثلاثة من المساعدين. وسرنا خلف "باصات" من الطريق الذي سار منه. ووصلنا إلى منطقة جبل "قاضيليق" عند نهر "سيللها" وكان الوقت ظهرًا، ولا يوجد أي صوت لشيء. لو جئنا هذا المكان في وقت آخر، لم يكن العدو يدعنا نسير. ولكن الآن، لم يكن هناك صوت إلا صوت تغريد العصافير. تقدمنا قليلاً. كان معسكر "تك جوز" في الناحية الأخرى من تل "باشي هاتشا". فلم يكن هناك أثر لأي مخلوق، فربطنا عقال الخيول مع بعضها بعضها وأخفيناها واختبئنا نحن أيضًا. وبعد ذلك صعدنا أعلى التل بشكل سري واطلعنا على معسكر (تك جوز). فماذا رأينا يا ترى سيدي الملك؟ لقد رأينا ديار "تك جوز" خاوية، وخيامهم دمرت، وقد خبت المواقد. ورأينا أيضًا مجموعة من الرجال ينزعون الحجارة التي تسد منبع نهر "سيللما" فسألتُ:

- قورقود، من هؤلاء الرجال؟

- "أروز قوجا"، أبشر، هؤلاء رجالنا، ربما باصات انتصر على "تك جوز"، إنهم يفتحون الماء للأوغوز.

فسألتُ:

- إذا أين "باصات"؟

أشار إلى قورقود بيده نحو شجرة ضخمة قائلاً:

- ألم تر ابنك؟ ها هو تحت الشجرة يتمدد وينام تحت ظلها.

نعم، سيدي الملك، عندما نظرتُ مرة أخرى فرأيتُ بالفعل "باصات" يستريح متمددًا تحت ظل شجرة عظيمة. فتملكني الضحك، فصحت وهرولنا جميعًا من التل حتى وصلنا إلى تحت الشجرة. فرآنا "باصات"، فنهض من مكانه، وألقى علينا السلام باحترام، ورددنا عليه، وقال:

- والدي، لقد قطعتُ رأس "تك جوز"، وأخذتُ بقصاص أخي "قيان سلجوق". فهل رضيتَ عني؟

فقلتُ :

- تعال يا بني، تعال أقبلك.

- فضممتُ "باصات" إلى صدري وقبلتُه ولم أعضه.

(لقد قال "قبلتُه ولم أعضه". ولكنه لم يقل إنه بكى، وإن دموع عينيه قد سالت، وأنه تأثر تأثرًا بالغًا عندما ذكر اسم "قيان سلجوق". لقد طفنا حتى المساء في جميع الأطراف بحثًا عن أي أثر لـ "قيان سلجوق"، ولكننا لم نجد أي أثر له).

سأل قورقود "باصات":

- فلتخبرنا أيها الفتى، كيف هزمت "تك جوز"؟ وماذا حدث لجيشه وجنوده؟

فأجابه "باصات" قائلاً:

- لا تسألني عنه يا قورقود. ليس "تلك جوز" كما قلتَ ضخم الجثة وعريض المنكبين، ولكنه معه سحر، إن "تك جوز" ساحر، ألم تسمع عن هذا؟

تعجب قورقود من الأمر وسأل:

- أحقا هذا؟ كيف عرفت ورأيت سحره؟

- لقد ظهر إلي في أشكال متعددة. في البداية عندما وصلتُ إلى منحنى النهر عرفتُ أنهم يراقبوننا، فلم أكترث بهذا مطلقا. نزل المراقبون من التل وأرادوا القضاء علينا. فقلتُ لهم "انتظروا" أنا لم آت للقتال؛ لقد أرسلوني هدية إلى "تك جوز". ففكروا كثيرًا، وفي النهاية حملوني أنا ومن معي من المساعدين إلى المعسكر. فقلتُ "لي شرط على "تك جوز"، قابلوني معه". قدم تك جوز، كان شخصًا نحيفًا هزيلاً. صوته ضعيف ويده قصيرة، علق السيف الخشبي في الجراب، يلامس الأرض. بجواره مترجم، كان يترجم لي كلامه، وكلامي له. قال "تك جوز" لمن حوله:

- انظروا، لقد جاء لنا خروف جديد من الأوغوز. وصفق بيديه بقوة، وضحك، ثم أخذ يتفقدني وينظر بدقة إلى وجهي وعيني وجسدي، ومد إصبعه في صدري، وأشار لقد أعجبتُ بهذا الغلام ودخل قلبي، ماذا تريد مني، أطلب، لقد قالوا، لديك كلام تريد أن تقوله لي.

فقلتُ:

- أنا أريد أن أبارزك بالسيف. لو هزمتني، تأكلني، ولو هزمتك، تأخذ جيشك وجنودك وترحل من هنا ولا تعاود المجيء هنا مرة أخرى.

ضحك "تك جوز" بشدة مرة أخرى وقال:

- أنا...معك؟ هل تعرفني؟ هل سمعتَ قبل ذلك عن قوتي؟

فتعالت ضحكات من حوله قائلين:

- آه ، آه. . آه. .

فقلتُ له:

- لو أردتَ، أثبت لك أن قوتك لن تصل إلى قوتي مطلقًا.

قال "تك جوز":

- أكثر من جاء من عندكم، سلم روحه فقط. أما أنتَ فكما قلتُ لك أعجبتُ بشجاعتك وأعجبتُ بك شخصيًا، وسوف أبارزك، ولكن لي شرطًا أنا الآخر. لو هزمتك، فلن أقتلك، سوف أجعلك خادمًا عندي.. ما رأيك؟

أجبتُ عليه:

- نعم، موافق.

أمر "تك جوز" من حوله:

- أعدوا ميدان القتال!

كان ميدان القتال الذي قصده داخل المعسكر. أحضرونا إلى هناك. وأحاطونا. وجردوني من الثياب كما ولدتني أمي قائلين "جردوا هذا الفتى من الثياب كما ولدته أمه"، ولكنهم أعطوني فقط درعًا وسيفًا. ظهر تك جوز، فتعالت إلى عنان السماء أصوات المجتمعين: "يحيا تك جوز". فصاح الجيش كله في نفس واحد. ففكرت "ما السر في هذا الرجل النحيف، الذي جعل جيشًا في هذا الحجم ينصاع لكلامه؟". فتوكلتُ على الله ودخلت ميدان القتال. رفعتُ سيفي، وكنت أريد الهجوم على "تك جوز"، فشُلت يدي وقدمي وتجمدت، أما "تك جوز" كان لا ينظر إليّ مطلقًا. كان يتجول هنا وهناك في

ميدان القتال، ويقول لمن حوله شيئًا ويضحك ويُضحكهم. إلهي القادر، ماذا حدث لي؟ لماذا تجمدتُ هكذا؟ لماذا لا يتحرك السيف الذي في يدي؟ لماذا هذا الرجل الهزيل لا ينظر إلي؟ فكرتُ في هذا كله؟ وفجأة رأيتُ "تك جوز" أمامي مباشرة، وكاد يخرق عيني بسيفه الخشبي الموجود في يده. وفي هذه اللحظة عدتُ إلى وعيي، وأصبحت أتحرك ثانية، فتنحيتُ جانبًا. وبدأ "تك جوز" مرة أخرى في التجول في الميدان. فلاحظتُ فتحتين من الناحية الأخرى للمعسكر وهاتان الفتحتان عبارة عن مذابح لـ "تك جوز" ومن معه موجودة تحت التل من هذه الناحية. وكان هناك من يركز النظر فيَّ، ويدقق فيَّ. في البداية لم أتعرف عليه، ثم عرفتها، إنها أمي "قوغان آرسلان". قدمت ووجدتني هنا.

فانتابتني قوة، وأردتُ الهجوم عليه. كان "تك جوز" أمامي من قبل. والآن غير موجود، فمن أصبح مكانه، يا والدي؟

تعجبت أنا وقورقود قائلين:

- من؟

قال "باصات":

- رأيتُك، يا والدي. كنت أنت الذي يقف أمامي. "تك جوز" في غمضة عين تحول إليك. فأمسكتُ سيفي بصعوبة، وكدتُ أقتلك.

تعالت ضحكات الموجودين في الميدان، فغضبتُ غضبًا شديدًا، وسألتُ:

- ما الذي جاء بك هنا يا والدي؟

فقلتَ:

- جئتُ لمساعدتك يا ابني الحبيب، ولكن صوتك ليس صوتك المعتاد. كان صوت "تك جوز". ففهمت أن هذا ليس أنت، وأن "تك جوز" يريد أن يسحرني فبدأتُ أنا الآخر في التجول في ميدان القتال وكنت أسلط عيني على "تك جوز"، وفجأة "تك جوز" طاف ولف لفة فكأنه غاص في باطن الأرض أو طار إلى السماء، لا أعرف بالضبط، ولكنه اختفى. فضرب الجنود سيوفهم على الدروع وصاحوا، وكانوا يصدرون أصواتًا غريبة. فقد صُمت الأذن من شدة هذا الصوت وهذا العويل. ولاحظتُ أيضًا هناك عينين تنظران إلي، وتشيران لي "لا تتعجل، لا تتعجل مطلقا، من يرد قتل هذا، فسيقتله بسيفه هو. انتظر الفرصة". وفجأة سمعت صوتًا خلفه ، فالتفتُ فرأيتُ بنت الملك بايندر خان بورلا خاتون واقفة أمامي فانحنيت لها بأدب وسألتها: "يا خاتون، ما الذي جاء بك إلى هنا، ليس لك شأن بميدان القتال. تنحي من هنا، اذهبي من هنا، حتى لا يصيبك ضرر، إنني أبحث عن "تك جوز" ألم تشاهديه؟"

ما أن قُلتُ هذا، حتى تعالت ضحكات الجنود الموجودين في الجيش. وأخذت يورلا خاتون تهرول من هذه الناحية لميدان القتال إلى الناحية الأخرى، ففكرتُ وقلتُ في ذهني "إلهي القدير، لماذا تفعل بورلا خاتون هذا؟"، والآن صدر صوت "تك جوز" الغليظ من فم بورلا خاتون قائلة:

- هيا تعال، أيها الغلام؛ أنت كنت قد أحببتني، انتظرني، أنا أيضًا أحببتك ماذا حدث لك، أسرع واطلبني من والدي، وأرسل لي من

يطلب يدي من والدي الملك، وإلا سأتزوج آخر، وسوف تتأسف علي... هيا تعال أيها البطل، يا باصات، يا باصات، يــا بطــل الأبطال، ماذا تنتظر، اذهب لوالدي الملك، اطلــب يــدي منــه، واجعلني زوجة لك، وأكون سيدة منزلك،.. هيا أيهــا الغــلام، ماذا حدث لك؟

عندما قالت بورلا خاتون أي "تك جوز" هذا، طاش عقلي، وتأوهــتُ، فأردتُ الهجوم والإمساك بها، ولكني لم أستطع هذا، فتحولت بورلا خــاتون إلى "تك جوز" أمام عيني انظر إليها. وأخذ يطوف الميــدان مــرة أخــرى كالمنتصر. مرة أخرى سمعتُ كلمات من ناحية المذبح: "لا تتعجل، لا تتعجل مطلقا، انتظر، يفرغ هذا كل قوته، وينتهي سحره، وحينئذ سوف تمشي أنت فجاة. ولكني الآن.. لا تتعجل، استمع لي، انظر لعيني، سوف أعطــي لــك الأمر بالسير حين يحين الوقت المناسب". لقد قال هــذه الكلمــات "قوغــان آرسلان".... هذه المرة كنتَ أنت يا قورقود أمامي. كنتَ تجلس القرفــصاء، وفي يدك شيء لا هو ربابة، ولا هو سيف، كنت تعزف عليه، ولكن لم يكن يصدر صوتًا. لم يُعجب هذا الجنود، فأخذوا يصرخون ويصيحون. وأشــار إليهم "تك جوز" بيده "انتظروا"، وقفز في السماء من المكان الذي كان يقــف فيه. وعندما نزل على الأرض، هل تعرف.. من؟

سأله قورقود:

- من؟

- تحول إلى شكل "تبه جوز" عريض المنكبــين ضــخم وعــاري الجسد وذي عين واحدة، كاد تبه "جوز" وهو ينزل إلى الأرض أن يتعثر. فخر على ركبتيه على الأرض، فأخذ الجيش يــصيح

ويصرخ. وقد طاش سيفه هذا جانبًا وهو يقفز، فأعطني "قوغان آرسلان" الإشارة: "سر الآن، أيها الفتى، حان الوقت الآن، خذ هذا السيف بيدك، ولا تتركه من يدك". فأسرعت وأخذت السيف بيدي، كان سيفا متعرجًا من الخشب.

كان "تبه جوز" يهيم على وجهه في الميدان كالمجنون هنا وهناك، وكان صوته المتقطع يخرج بصعوبة، وكان هذه المرة لا يصدر صوت من الجيش. فقد "تك جوز" سحره وهو يقفز في السماء. كان يريد أن يعود إلى حالته الأولى، وبذل كل جهده لهذا ولكنه لم يفلح. فبدأتُ ألتف وأتجول حوله من جوانبه الأربعة والسيف في يدي. انتظرتُ الإشارة من "قوغان آرسلان"، فجاءت الإشارة: "سر أيها الغلام، حان الوقت تمامًا. اقطع رأس هذا الملعون".

توجهتُ نحوه يا أبي، وضربتُ السيف ضربة في عنقه، فدخل السيف من ناحية وخرج من الأخرى. فانفصلت رأسه عن جسده، فتأوه الجيش وصمت. فأخذتُ رأس "تك جوز" وطفتُ بها في حلبة القتال وبذلك أخذتُ بثأر أخي "قيان سلجوق"، ولكن والدي، رفعتُ رأسي، فرأيت...تجمد الدم في عروقي، وتغير لون قورقود. وواصل باصات كلامه:

...لا تخف، يا والدي، لقد رأيتُ في لحظة اختفاء جيشه تماما، وفرغ الميدان فجأة، وها هو معسكرهم وخيامهم... انظرا أنتما بأنفسكما، لا يستطيع المرء أن يحدد هل كان مثل هؤلاء الأقوام موجودين أم لا.

فتفقدنا نحن أيضًا المكان بجوانبه الأربعة. بالفعل لم يكن هناك أي أثر أو علامة لـــ "تك جوز" أو جنوده.

سأل قورقود:

- ماذا حدث لجثة تك جوز، يا باصات؟

فأجاب باصات:

– لقد حملها "قوغان آرسلان". وها هو سيفه.

كان هناك سيف صغير خشبي على الأرض، فأشار إليه باصات، فنظرنا إليه، وكلما نظرنا إليه صغر ذلك السيف فجأة، ويصغر شيئا فشيئا، حتى لم نره أمامنا، لقد مُحي من فوق الأرض، واختفى:

فسألني باصات؟

– ماذا نفعل يا والدي، أنذهب إلى منزلنا؟ لتسعد روح أخي "قيان سلجوق".

– فنذهب يا بني، فلنذهب يا أسدي، ولنحتفل بهذا اليوم.

انتهى المساعدون والخدم من تنظيف النهر. وسار الماء مرة أخرى كالسيل في نهر "سلليما"، واتجه من جديد إلى الأوغوز. لقد وصل ماء النهر، سيدي الملك، إلى الأوغوز الداخل قبلنا. وعندما وصل إلينا الماء نحن أوغوز الخارج شاهد الجميع الكبير والصغير والأطفال والنساء هذا الماء المبارك.

(بالطبع إني قد حدثتُ الملك بايندر خان بهذا الأمر كما حدث في وقته. وأوصلت رغبة باصات وطلبات أروز قوجا "للملك" المتمثلة في أن "أروز قوجا" كان يرغب في طلب يد ابنه الملك بورلا خاتون إلى ابنه. "لقد أنقذ باصات الأوغوز من هذا البلاء، لذلك يجب أن يفوز بـ "بورلا خاتون"، ويُعقد زفافهما". في الحقيقة أنا كنتُ أعرف أن بورلا خاتون تميل إلى باصات وتحبه. والملك بايندر خان رفض هذا، حين قال: "هل أزوج ابنتي لشابٍ نشأ في عرين الأسد في الغابة؟! مستحيل. لقد طلب مني قازان ابن صالور يد ابنتي للزواج ، وأنا قبلتُ هذا". غضب "أروز قوجا" غضبًا شديدًا،

وذهب باصات ثانية إلى الغابة، ولم يخرج منها، وبعد ذلك أثناء العُرس تصالحا معا، وعندما لُقب قازان بلقب سيد السادة اجتمع سادة أوغوز الداخل والخارج من جديد. ففكرتُ في نفسي قائلاً: "ليت أروز قوجا لم يطرح مسألة زفاف ابنه من بنت الملك، ليت لم تكن هناك عداوة بين الناس، ومن حسن الحظ أنه لم يتكلم حتى الآن بشأن رفض الملك تزويج ابنته لابنه باصات، وإن شاء الله لن يتكلم في هذا الموضوع ثانية).

لقد استمع الملك بايندر خان عدة مرات إلى حكاية "تك جوز". ولكن هذه المرة استمع باهتمام بالغ، فلم يُقاطع الملك بايندر خان "أروز قوجا" بكلمة ولا حتى بإشارة، أصغى إليه حتى النهاية. وعندما انتهى "أروز قوجا" من الكلام كان وقت الظهيرة قد مضى منذ فترة. ألقى الملك نظرة طويلة من النافذة على حديقة القصر، وبعد ذلك التفت إلى "قيلباش":

- قيلباش، يكفي هذا الآن. واذهبوا أنتم الثلاثة، واستريحوا، وكلوا واشربوا، وليأت إلي "أروز قوجا" في المساء مرة أخرى، لديَّ سؤال له. بعد أن يجيب عليه يمكن أن يسلك طريقه، ويأخذ نصيبه من عطاياي ويرجع إلى منزله. وعليكم أيضًا أن تكرموا سادة أوغوز الخارج الذين حضروا مع "أروز قوجا". اذهبوا الآن فلقد تعبتم، أليس كذلك؟ استريحوا، ثم بعد ذلك تعالوا.

قال بايندر خان هذا ثم نهض ودخل إلى الحجرة الداخلية. ونحن أيضًا خرجنا من الحجرة قيلباش في المقدمة وخلفه أروز قوجا ومن بعده أنا، وذهبنا إلى حديقة القصر عند الشجرة الضخمة. وكان صوت السادة يصل إلينا من الناحية الأخرى من الحديقة من المائدة الخشبية. فذهبنا نحن أيضًا إليهم. وأدركنا الطعام والشراب معهم.

لقد اختلط سادة أوغوز الداخل وأوغوز الخارج" وكان الخدم والجواري يحملون الطعام والشراب إلى المائدة الخشبية بشكل مستمر. وعندما وصلنا نحن الثلاثة وانضممنا إليهم رأينا أن "شير شمس الدين" قد لفت أنظار الجميع.

كانت مجموعة من السادة يقولون:

- سيأكل.

وكانت مجموعة أخرى ترد عليهم:

- لن يأكل.

فسألهم قيلباش:

- ما الأمر، ماذا حدث أيها السادة؟

كان فم شير شمس الدين مليئا بالطعام، وعيناه لامعتين يلتفت يمينًا ويسارًا. ولا يستطيع الرد، وكان هناك رجل من أوغوز الخارج يُقال له "ديى دوندار"، قال:

- دخل "آمان" و"قازان" في عملية تحد قال "آمان" أن شير شمس الدين لا يستطيع أن يأكل خروفًا وحده. أما قازان فقال: لو قُسم الخروف إلى أربعة أقسام لن يستطيع أن يأكله، ولو قُسم إلى ستة أجزاء، يستطيع أن يأكله. والآن أنضجوا الخروف وجعلوه ست قطع. فما رأيك أنت سيأكله أم لا؟

ضحك قيلباش ضحكًا كثيرًا:

- سيآكله، سيأكله، عندما كان شير شمس الدين وهو في ريعان شبابه يأكله، ولكن الآن ماذا حدث له، لن يستطيع أكله، أليس كذلك، يا قورقود؟

لقد ضعف "شير شمس الدين"، وتصبب جبينه عرقا ، وسال هذا العرق على وجهه ثم إلى ملابسه، ثم إلى صدره. كان يدفع الطعام إلى فمه بيديه الاثنتين دفعًا، وكان ينظر إلى قازان، وكان يُمهل نفسه أثناء أكله قطع الطعام ويقول بصعوبة "سيدي قازان...سوف آكل هذا الخروف".

وعلى هذا أنهى السادة طعامهم وشرابهم وهم في نشوة وسعادة. ونحن أيضًا أكلنا طعامنا، ووقفنا، وذهبنا نستظل تحت الشجرة العظيمة. قدم لنا قازان وبجواره ابنه "اوروز" حفيد الملك. ألقى علينا "اوروز" السلام بأدب، ورددنا عليه السلام. وقال جميع السادة "ما أحسن هذا الغلام". لم يقف "اوروز" كثيرًا، واتجه نحو المطبخ وسط الجواري. كنتُ أنظر من بعيد إليه. استوقف إحدى الجواري وأخذ يتحدث معها طويلاً طويلاً. وبعد ذلك ذهبا معًا إلى المطبخ وغابا عن الأنظار، فقلتُ في نفسي. ما شاء الله لقد كبر".

سأل قازان "أروز قوجا":

- ماذا قال لك الملك يا "أروز قوجا"؟ هل تخبرنا بما قاله لك؟

أجابه "أروز قوجا":

- لا شيء، سأل عن الأحوال في أوغوز الخارج، وسأل أيضًا عما فعلتُ حتى لا تدعوني أنت يا قازان إلى منزلك أثناء "اليغمة"؟

- وماذا قلت له؟

قلتُ للملك:

- لا أعرف، إن قازان يفعل ما يريد وما يحلو له، ولا يسمع لكلام أحد. يخلط أمور أوغوز الخارج بأوغوز الداخل.

تعجب قازان؟

- أحقًا قلتَ له هذا؟

قال "أروز قوجا" وقد علت الحمرة وجهه:

- نعم، نعم، قلتُ هذا...

تدخل قيلباش :

- أيها السادة، أيها السادة، انهضوا، هل تريدون الشراب؟ دعا خادمين كانا يقفان بجواره ينتظران أوامره، فأتياه فقال:

- اذهبا واحضرا الشراب الذي قدم من طرابزون، أحنى الغلامان رأسيهما وذهبا.

نظر إليَّ قيلباش وقال: "عصير عنب، أليس ذلك يا قورقود؟ فضحكتُ أنا الآخر. ورأيتُ اهتمام قازان و"أروز قوجا"، فتحدثتُ إليهما من نفسي عن الموضوع، فتعجبا، واستحسنا عقل قيلباش. وفي هذه الأثناء قدم الخدم، وأعدوا لكل واحد منا شرابا كالدم في كئوس.

سأل "أروز قوجا" قيلباش وهو يشرب الكأس:

- ألا تخبرني يا قيلباش، ما هو الهدف الأساسي للملك بايندر خان من كل هذا.

وأضاف بعد ذلك "أروز قوجا" دون أن ينتظر الرد قائلاً:

- وأنت يا قورقود، ماذا تكتب؟

- أمر الملك أن أكتب كل كلمة تخرج من فم أي شخص يتحدث.

تعجب "أروز قوجا"

- أحقًا هذا؟

فقلتُ:

- نعم.

فسأل "أروز قوجا" قازان:

- لم أر مثل هذا قط في حياتي، هل رأيت أنت ذلك؟

أجاب قازان:

- لا، أنا أيضا لم أر.

تلفت قيلباش هنا وهناك، ونظر وقال:

- أيها السادة انتهوا من شرابكم، لنذهب، ولا نجعل الملك ينتظرنا.

نهض "أروز قوجا":

- فلنذهب أيها السادة، لقد حان الوقت.

ظل قازان ينظر إلينا من الوراء.

مرة أخرى ذهبنا - قيلباش في المقدمة، أنا و"أروز قوجا" في الخلف- ووصلنا حجرة الملك. كان الملك بايندر خان جالسًا مكانه، وسمح لنا بالجلوس. فدخلنا وجلسنا القرفصاء في أماكننا السابقة. أخذ الملك بايندر خان يعبث بلحيته طويلاً ، وبعد ذلك بدأ كلامه قائلا:

- أنت تحدثتَ يا "أروز قوجا"، وأنا استمعتُ لك، وبقى لي سؤال عندك، أجب لي عنه.

أخذ "أروز قوجا" يضطرب في مكانه قلقا وقال:

- مُر أيها الملك.

- "أروز قوجا"، لقد تقابلتَ مع امرأة يُقال لها بوغازجا فاطمة قبل مجلس الشورى الذي عقده قازان بشأن الجاسوس. ماذا قالت لك هذه المرأة، وماذا قلتَ أنت لها، أخبرني بهذا.

تعجب "أروز قوجا"، وبعد ذلك طأطأ رأسه، وقال ببطء:

- أيها الملك. هذا حديث دار بيني وبين امرأة، لا علاقة له بالموضوع.

- ألا تريد أن تقول؟

- لا أقول لا يا سيدي الملك.

علا صوت الملك بايندر خان:

- لو تريد أقول أنا لك؟

انخفض صوت "أروز قوجا":

- كما تشاء.

- جاءت لك بوغازجا، وتوسلت لك، وقالت لك، لا تقضِ على ولدي الوحيد، إنه يتيم، يتيم الأب. فقلت لها: وما علاقتي بالموضوع؛ ابنك مذنب، ويستحق العقاب. ثم خرت بوغازجا على الأرض واحتضنت قدميك وغرقت في البكاء وقالت لك:

ألا تعلم يا "أروز قوجا" أن هذا الغلام هو ابنك، هو أمانة فترة شبابنا. كان خلف منزلنا واد صغير، ألا تتذكره؟ وكان لدينا كلب يسمى بارججوق. أنسيت؟! لا أعرف كان هذا الكلب ينبح عليك أم لا. فتعجبت أنت من قولها وقلت: لا تكملي. فقالت لك: "لم يدعك قازان إلى "اليغمة". لا يحترمك لقد أحرجك وسط السادة. قازان يريد أن يقضي على ولدك. لا تدعه يفعل هذا أيها البطل العزيز "أروز قوجا".

(كان "أروز قوجا" كلما تحدث الملك بايندر خان اسودّ وجهه، وضاقت عليه الدنيا الفسيحة بما رحبت. ويعبث في لحيته بيده. كان كلام بايندر خان صحيحًا. لقد اتضح للملك أن بوغازجا قد أتت لـ "أروز قوجا" وقالت له مثلما قالت للسادة الآخرين. وكنتُ أعلم أنا هذا. إلهي العون من عندك، لقد قلتُ أنا بنفسي لـ "فاطمة بوغازجا" هذا الكلام، أنا الذي أظهرت لها هذا الطريق. والآن الملك أيضًا سيكون على علم بهذا الأمر).

سأل "أروز قوجا":

– كان يجب ألا أقول لك هذا الكلام. هل جاءت إليك بوغازجا إليك أيها الملك؟ باعتني تلك المرأة؟

– أنت غاضب، يا "أروز قوجا"، ومادمتَ غاضبًا، إذن أنت لست على الحق، فاعلم هذا. لا تُحل أمور الأوغوز بهذا الشكل. مهما يكن الجاسوس تجب معاقبته. يجب أن يراه الأوغوز جميعًا.

كتم "أروز قوجا" غضبه:

– لقد قلت كل شيء كما حدثت بالضبط. وماذا كان علي أن أفعل؟! لقد أخذتني الشفقة به، وقلت وفكرت "إنه ولدي، لقد أخذ الله مني

"قيان سلجوق"، ومنحني هذا. لقد أصِبْتُ ببلايا كثيرة، أيها الملك. أحد أبنائي وقع أسيرًا لدى "تك جوز"، والثاني كما تعرف لا يخرج من الغابة، نحضره ، ثم يرجع مرة أخرى إلى الغابة. وها هو قازان، هل أنا مذنب في موضوع الجاسوس، أم لا؟ من أثار موضوع الجاسوس؟ ألم يكن بيرك هو الذي أثار هذا الموضوع؟! أين كان بيرك عندما استولى هذا الساحر "تك جوز" على الأوغوز، أين كان عندما قطع تك جوز الماء عن الأطفال والشيوخ، أين كان عندما كانت عيون النساء تنزف دمًا، أين كان عندما كان كل منزلٍ في الأوغوز يقدم أحد أبنائه قربانًا لـ "تك جوز"، أسألك أيها الملك أين كان بيرك أثناء كل هذا، اسمح لي أيها الملك أن أخبرك أنا. لقد جعل بيرك "بايبورد" يقوم بخطفه، أعلم هذا أيها الملك. لقد وقع بإرادته أسيرًا لـ "بايبورد" حتى لا يذهب لقتال "تك جوز". والآن لا أحد يسأل بيرك. ممن عرفت أيها الملك موضوع الجاسوس هذا؟ أيها الملك إن عدلك كبير. أنت لا تظلم أحدًا، أيها الملك المعظم يا ابن "قمغان". من بيرك هذا الذي يُربيه قازان تحت رعايته كالخروف؟! فاعلم أيها الملك أن كلاً منهما – قازان، وبيرك – يحقدان على ابني.

غاص الملك بايندر خان في التفكير. وتفقده "أروز قوجا" كثيرًا أثناء سكوته، ثم سأل الملكُ:

– من أين عرفت هذا؟ هل لديك جاسوس عند بايبورد؟

– ليس لديك جاسوس عند بايبورد. كانت هناك قافلة قادمة من بايبورد مرت من عند أوغوز الخارج وسلكت طريقها بمحاذاة

سطح جبل "قاضيليق" فهجمنا عليها، وأسرنا منهـا، وقـال هـذا رئيس القافلة.

قال الملك لـ "قيلباش":

- هل لديك علم عن تلك القافلة؟

- لا ، يا سيدي الملك.

- هل قدمت القافلة؟

رد عليه قيلباش أيضًا :

- لا...سيدي الملك.

فقال الملك لنفسه :

- لم يأت...

(لم يتعمق الملك في هذا الموضوع، ولم يلفت نظر ""أروز قوجـا. " في الحقيقة الهجوم بدون إذن من الملك على قافلة يُعد ذنبا في الأوغـوز. لقد استفسر الملك عن موضوع القافلة من قيلبـاش حتـى يُـسكت "أروز قوجا". ففكرتُ: بالتأكيد الملك كان يعرف حكاية هذه القافلة منذ زمن).

تحرك "أروز قوجا" من مكانه، فنهض قيلباش من مكانه بسرعة. فسلط "أروز قوجا" عينيه على قيلباش، ونظر إلى الملك بايندر خان، ولم يقل شيئًا، وظل جالسًا مكانه.

لم يدعه بايندر خان فسأله:

- ألا تخبرني يا أروز قوجا، أعتقد أنك تتذكر جيدًا، أنـك جئـت إليَّ وطلبت مني أن أمنح "باصات" ابنك لقب "سيد السادة" بعـد أن هزم "تك جوز"، وقلتَ لك "لا". وأنـت تحـدثتَ عـن هـذا

الموضوع عندما خرجت للصيد وقلت لسادة أوغوز الخارج: "لم يمنح الملك ابني لقب "سيد السادة" الآن طوعًا، وسيأتي اليوم الذي سآخذ منه هذا اللقب عنوة...وأنت...

هناك قطع في المخطوط في هذا الموضع. وهذا القطع جاء في موضع مهم جدًا في المخطوط، وقد سبب هذا القطع فقدان معرفة الأمر للأبد. فقط وصلت الأحداث في هذا الموضوع إلى ذروتها بسؤال الملك بايندر خان لـ "أروز قوجا". والآن لا يمكننا التحقق من أن "أروز قوجا" قال مثل هذه الكلمة بالفعل أم لا. ومن الجدير بالذكر أنه يمكن غبطة الملك بايندر خان على صبره هذا. ولكن في نهاية المخطوط سنعرف جيدًا قيمة هذا الصبر عندما تتضح لنا النية الخفية للملك بايندر خان. مرة أخرى أتخيل وجه الفتاة المتخصصة في اللغة العربية - التي تساعدني في قراءة المخطوط - أمام عيني وهو مليء بالضيق والعتاب.

...- كنا نخرج إلى الصيد، كم كان هذا الصيد غالي الثمن على الأوغوز. فقد شاهدنا جميعًا هذا. لقد قدم العدو، واستولى على بلادنا من أقصاها لأدناها. وأسر الفتيات والشيوخ والأطفال. ووقعت أمه نفسها في الأسر. وزوجته أيضًا. وابنه أيضًا. وأصبح الأوغوز أمام جيش العدو. لقد قلتُ قبل الخروج لكِ مرارًا وتكرارًا لا يمكن الخروج دون أن نضع حراسًا، فقال:

- لا شأن لكِ بهذا، لا تتدخل:

فقلتُ:

- يا قازان هذه الرحلة رحلة طويلة. سوف نعبر من داخل جورجيا. لمن سنترك الوطن ليحميه؟ فهل ما قاله كان صوابًا أيها الملكِ؟

سألِ بايندر خان:

- فماذا قال؟

قال:

- لا أجعلكِ أنتِ، سأضيع ابني "اوروز". لا أضعك أنت، سيدي الملكِ قازان ظالم، جائر. لو كان جعلني على الجيش، لما كانت تأتي مثل هذه البلايا على رأس الأوغوز. ابنه فتى شاب، ليس له خبرة ولا تجربة في الإمساك بالسيف أو تحمل الصعاب. وضع ابنه على رأس الجيش...كان قازان لا يستريح لي مطلقًا. لقد ضل قازان الطريق القويم يا أيها الملكِ. إنه يحتقرني كثيرًا. وليكن. فأنا "أروز قوجا" وهو "قازان"، سيأتي يوم ونتجاسب. أنت تعرف أن جميع سادة أوغوز الخارج يحبونني.

وجه بايندر خان وجهه لـ" أروز قوجا" وسأله:

- هل بيرك يحبك؟!

- من بيرك هذا؟! إنه ليس منا. إنه من أوغوز الداخل أبوه بايبورد...

- ألم يتزوج بيرك منكم؟ ألم يكن "بايبيجان مالك" هو حامل الراية في أوغوز الخارج؟ وألم تكن بانوتشيشك هي بنت "بايبيجان"؟.

فكر "أروز قوجا" مليًا ثم قال:

- نعم سيدي الملك، أنت محق، يمكن أن نعد بيرك منا. ولكنه لا يحبنا. إنه يحب قازان، لازال يحتقرنا، ويتهم في موضوع الجاسوس. تشاجر معي في أثناء رحلة الصيد وتشاجر مع "بكيل"...

- "أروز قوجا"، "أروز قوجا" لا يلزم أن تحكي لي ما يجري في الأوغوز. لقد تفككت الأوغوز دون علمي. يا "أروز قوجا"، يا "أروز قوجا" أنت فتى مغوار، أنت بطل شجاع، هل أنت انسقت لمثل هؤلاء الأطفال؟!

لقد قال بايندر خان هذا وشاهدتُ بنفسي أن الملك في شدة الغضب، وقد غاص في التفكير. وقد صمت أروز قوجا هو الآخر، ولكن حدث نفسه بهدوء قائلاً:

- فعل كل هذا قازان. الذنب عنده، المذنب قازان...ربنا يغفر لنا بحق عظمته.

لم يتحدث بايندر خان بعد ذلك، وأشار إلينا بيده للخروج. فخرجنا مرة أخرى قيلباش، وأروز قوجا وأنا إلى حديقة الملك. وبحث "أروز قوجا" على مساعده دون أن يودعنا وأمره:

- ناد على من معنا، وأخبرهم أننا سننصرف. ركب سادة أوغـــوز الخارج خيولهم، وقادوها وخرجوا من البوابة الـــسوداء دون أن يتكلموا بكلمة واحدة. فأسرعوا بخيولهم حتى غابوا عن الأنظار. لقد غضب "أروز قوجا" من الملك بايندر خان، والملك هو الآخر لم يتمسك به ولم يحسن ضيافته ويكرمه، اللهم أحفظ الأوغـــوز من سوء الأيام. آمين

***

لم يصل الشاه بعد للديوان، وكانت النداءات تتعالى من بعيد إلى عنان السماء "سيدنا"، "يا مرشد العالم"، فداك نفسي، كانت هذه النداءات تغطي على صوت بكاء "تاجلى خانم" الذي كان في أذن الشاه، نزل عن فرسه في حديقة الديوان، وحنا على الفرس بيده، ثم سحبوه وأخذوه. وقف الشاه يتفقد حديقة الديوان: الناس كانوا واقفين بالخارج. ومن المستحيل السماح للناس جميعًا بالدخول للداخل. انحنى الوزير واقترب من الشاه:

- تفضل، ادخل، فداك نفسي.

ألقى الشاه نظرة خاطفة من فوق رأس الوزير المنحنية نحو الشجرة الضخمة الموجودة في الحديقة، فرأى شخصًا واقفًا هناك، فكأنه طُعن في قلبه بشيء، فدخل الديوان دون أن يتكلم بكلمة بعد ذلك. وفي الحال أغلق الحراس باب الديوان، ولم يدخل الديوان أحد مطلقًا سوى خادم أو اثنين بجانب الوزير، الجميع يقف في الحديقة ينتظر أوامر الشاه.

بعد أن دخل الشاه وجلس في مكانه في المقدمة، أخذ يُمرر حبيبات المسبحة الزمردية الموجودة في يده حبة حبة، فاقترب منه الوزير الذي كان سؤال يبدو في عينيه ، وقال له:

- لقد رأيته، كان واقفًا تحت الشجرة. أحضره، فليأت. فلا تطل في هذا الأمر بحق الله.

طلب الوزير من الشاه ببطء قائلاً:

- ربما تضع الستار، يا مرشد الكمال؟!

- لا، لن أضعه، أحضره، أحضره، فليأت.

ولكن بعد ذلك فكر في نفسه "من الأفضل أن أسدل الستار"، فأسدل الستار على وجهه.

أحنى الوزير رأسه وخرج. اصطف الحراس صفًا صفًا من عند الباب إلى بداية الطريق الموصل للحديقة. بحث بعينه وسط الحراس على اليوزباشي رحيم. شعر رحيم بأن الوزير يبحث عنه، فتقدم للأمام، واقترب من الوزير.

فسأله الوزير بهدوء:

- يا يوزباشي، ذلك الرجل هنا؟

أجابه رحيم:

- هنا، سيدي الوزير.

- اذهب وأحضره بهدوء إلى حضرة الملك. لا أريد كلاما كثيرًا، أفهمت!

خرج اليوزباشي رحيم بسرعة إلى الحديقة وتوجه نحو الشجرة الضخمة وهو يقول: "على العين والرأس".

كان "لالا" يقف وقلبه مرتعد هناك. عندما مر الشاه بمقربة خمس أو ست خطوات منه، ظن أن الشاه رآه ولم يهتم، فقال في نفسه "بالتأكيد رآني، رآني بالفعل، وعرفني بالفعل، ولكنه تظاهر أنه لم يعرفني. ربما قال الوزير بعض الأمور بشأني. عندما جاءت عيني في عينه كاد قلبي أن يتوقف. لماذا فعل هذا؟! ومن ناحية أخرى ماذا كان يجب أن يفعل وسط هذا الجمع الغفير من الناس؟! بالطبع لا يناديني ويضمني لصدره. لو كان سألني سؤالاً واحدًا كان يكفي وهو: لماذا لم تمت في معركة تشالديران، وبقيت على قيد الحياة، كان يكفيني أن يسألني هذا السؤال. حتى لو عهد بي بعد ذلك إلى الجلاد...يا رب العالمين العون منك..."

عندما رأى "لالا" مقدم اليوزباشي رحيم نحوه، بدأت ضربات قلبه تخفق بسرعة كالطائر. فشعر دون أن يتكلم اليوزباشي أن الشاه يطلبه ليحضر إليه.

وصل اليوزباشي رحيم إلى "لالا" وقال له ببطء:

- فلتذهب يا حسين بك، هيا.

فانطلق "لالا" وراء اليوزباشي رحيم بدون كلام، ووصلا إلى الوزير الذي كان ينتظرهما عند باب حجرة الديوان. دقق الوزير مرة أخرى النظر في "حسين بك لالا" من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، ثم همس إلى اليوزباشي رحيم قائلاً:

- تقف عند الباب من الخارج، ولا تسمح لأحد بالدخول، ولا تدخل إلا إذا ناديتُ عليك.

أحنى اليوزباشي رأسه قائلاً: "على الرأس والعين". فاستدار الوزير إلى "لالا" وقال:

- "لالا"، لقد حققنا رغبتك. تفضل، الشاه يريدك، تفضل، ادخل.

دخلوا من الباب: الوزير أولاً، ثم "لالا". ثم سحب اليوزباشي رحيم الباب خلفهما وأغلقه بإحكام. اقترب الوزير منحنيًا الرأس نحو العرش الذي يجلس عليه الشاه، فقال له باحترام:

- سيدي الشاه، كما قلتُ لك، لقد جاء "حسين بك لالا" للوقوف تحت أقدامك.

كان هناك منضدة في حجرة الديوان، فوقها شمعدان، سلط الشاه نظره إليها، ولم يتكلم بشيء. فخيم على المكان الهدوء. استدار الوزير ونظر إلى "لالا"، فكان واقفًا متسمرًا عند الباب في الناحية الأخرى، وبعد مرور فترة حدث الوزير الشاه ثانية وقال:

– يا سيدي مرشد الكمال، "حسين بك لالا" في حضرتك...

وفي النهاية سحب الشاه نظره عن النقطة التي كان يسلط عليها نظره ، ونظر نحو "لالا" وقال:

–تعال بجواري، تعال يا "لالا".

خر "لالا" على ركبتيه على الأرض، واتجه نحو الشاه:

– سيدي، مرشدي، فداك نفسي، أيها الشاه...لم يتكلم "لالا" سوى هذه الكلمات، ووصل إلى عرش الشاه وسلط رأسه في الأرض وتسمر مكانه، وكأنه كان ينتظر من الشاه أن يقول له هذه الكلمات: 'لماذا لم تمت في معركة تشالديران يا "لالا"؟ لماذا لم تمت في معركة تشالديران يا"لالا"؟ لماذا...

عندما رأى الشاه "حسين بك لالا" وهو منبطح على الأرض أمره أن يقف:

– انهض، انهض على قدميك يا "لالا"

لم ينهض "لالا" على قدميه، وبقي منحني الرأس في حضرة الشاه. فنهض الشاه هذه المرة من مكانه وأتى نحو "لالا"، فأمسك "لالا" بيديه الاثنتين من كتفيه اللتين ترتفعان وتنخفضان من النحيب، وأصبح وجهًا لوجه مع "لالا". ولكن "لالا" ظل مسلطًا رأسه لأسفل.

كان نبرة صوت الشاه كالماس فقال له:

- انهض، انهض، كيف خرجت سالمًا من المعركة. ربما استجاب الله العليم القدير لدعائنا... الحمد لله.

في البداية لم يفهم "لالا" شيئًا من كلام الشاه، ثم فهم. فكاد أن يفقد وعيه. وكان الوزير يقف منتحيا جانبًا وهو في شدة الحيرة. وكان يختلس النظر خفية إليهما. وعلى وجهه ابتسامة خفيفة. انظر كيف استقبل الشاه "لالا". إذا "لالا" يعود إلى القصر وإلى الحكم. وبهذا يمكن تجنب الخطر الذي يمكن أن يأتي من "لالا"، فمطلع الكلام له أهمية كبيرة. فعلق الوزير في قلبه على تصرف الشاه هذا قائلا "أحسنت أيها الشاه "، وردد بلسانه كلمات الشاه الأخيرة:

- الحمد لله، الحمد لله الخالق...

أما "لالا" فكأنما فقد وعيه وهو واقف. وفي لحظة أظهر له الظلام الذي غشى عينيه أن الدنيا كلها والحياة والعذاب والمشقة والقتال والحروب والسلام والمحبة والكراهية كل هذه الأمور سدى، لا قيمة لها. فقد ضاع كل شيء في لحظة واحدة. وفي هذا الظلام الذي خيم على عينيه للحظة واحدة فطن "لالا" فجأة إلى سرّ عظيم.

واصل الشاه كلامه:

- أنت تعرف جيدا كم أسعدني مجيئك وما أجمل أنك لا زلت على قيد الحياة ولم تمت في المعركة. تعال اجلس هنا، واحك لي بالله عليك، لا تصمت، إلى أين ذهبت بك الرياح، أين اختفيت، ومن أين أتيت. تحدث، تحدث...

أخيرًا عاد "لالا" لوعيه بعض الشيء وقال بصوت مختنق وكأنه يُحدث نفسه:

- هل بقائي على قيد الحياة شيء جيد حقًا؟ كيف؟

بعد ذلك رفع فجأة رأسه الذي كان لا يجرؤ أن يرفعه والذي كان منحنًا لأسفل. ودقق النظر بشدة في وجه الشاه. وكأنه يخرق الستار المسدل على وجه الشاه بنظراته. ثم صدرت آهة من صدر "لالا" تحولت إلى همس، لم يسمعه حتى الوزير الذي كان بالقرب منهما، وكان الهمس هو:

- أنت...أنت لست الشاه، أنت لست الشاه

تغير وجه الشاه، وارتعدت فرائصه، واستطاع بصعوبة بالغة أن يقول له اصمت"، ثم استدار للوزير وأمره بصوت متغير:

- اخرج من هنا أيها الوزير، لا تقف عندك، ابتعد عن هنا!

أراد الوزير أن يراجع الشاه:

- سيدي الشاه....

- لا، اخرج، بالله عليك لا تطل في الكلام. قلتُ لك اخرج، لدي كلام مع "حسين بك لالا".

خرج الوزير من حجرة الديوان إلى الخارج. وبقي في الحجرة الشاه و"حسين بك لالا".

ضاقت نفس الشاه، واستطاع بصعوبة بالغة أن يقول هذه الكلمات لـ "لالا":

- ماذا حدث لك، يا "لالا"؟ نحن لم نسئ إليك نحن نقول لك "مرحبا بك" هل أنت في وعيك؟ تعال واجلس...

لم يتحرك "لالا" من المكان الذي كان يقف فيه، فقال أيضًا هذه المرة بصوت مختنق:

- أنت لست الشاه.

ثم كرر الكلام بشكل يُقنع فيه نفسه:

- بالطبع أنت لست الشاه.

فتكلم الشاه:

- "لالا" ، تعال، لا تردد مثل هذا الكلام...

فصاح "لالا":

- ماذا حدث لمرشدي الكامل الشاه، ماذا حدث له.

وحاول "لالا" أن يكتم غيظه ويهدأ ويجمع شتات نفسه وقال أيضًا:

- ماذا فعلت للشاه، أيها الشاعر الملعون؟ لقد عرفتك، وعرفتك جيدًا.

فقال الشاه:

- تقول عرفتني؟ حسنا، إذن ليس للستار لزوم حينئذ.

قال الشاه هذا وخلع الستار عن وجهه، وألقى به جانبًا، وسلط وجهه نحو "لالا" وتلفت يمينا ويسارًا قائلاً:

- كيف الآن بعد أن ألقيتُ بالستار؟ انت تعرفني جيدًا بدون أي ستار.

- أنا أعرفك بالستار. نعم، بالطبع أنت الشاعر الملعون. لقد عرفتك من صوتك، لن يمكنك أن تخدعني مطلقًا.

في النهاية غضب الشاه:

- اخرس، اعرف حدك! لقد مضت تلك الأيام الآن أنا الشاه. بأمر واحد مني، بإصبع واحد مني... أعرف إنه بنظره واحدة مني أجعلك....

رفع "لالا" رأسه ورفع قامته. ولم يتكلم الشاه بعد ذلك، فلم يتحمل هذا، فخر أمام "لالا" على ركبتيه:

- "لالا"، "لالا" والله، بالله، أقسم بالله العظيم الأحد الصمد، ليس لي ذنب في هذا الأمر مطلقاً، هو الذي اضطر إلى هذا...

لم يكترث "لالا" بكلامه وأصر قائلاً:

- قل لي، ماذا فعلتم بالشاه؛ لعنة الله عليكم؟

- الشاه هو الذي فعل بنفسه هذا...

قاطع "لالا" كلامه:

- كف عن هذا الكلام الفارغ، ماذا حدث للشاه؟ أحي هو، أم... قل لي الحقيقة أيها الظالم، أسمعك.

انتصب الشاه، وجلس دون أن ينظر إلى "لالا" بجوار العرش وسأل "لالا":

- هل تتذكر معركة تشالديران، يا "لالا"؟

كاد الدم يتجمد في عروق "لالا":

- لماذا تسأل؟ هل معركة "تشالديران" يمكن أن تُنسى؟

- هل تتذكر ماذا قلتَ لي قبل أن تبدأ المعركة؟ لقد قلتَ لي ارتد ملابس الحرب الخاصة بالشاه.

- وليكن.

- لقد ارتديتُها. فاسمعني الآن. أنت الذي أردت هــذا، فاســمعني. هل تتذكر؟ لقد قمت أنت بالهجوم. حيث أرسلت الشاه إلى الجناح الأيمن. وكان هو معي في الخيمة كــان لا يــستطيع أن يتخــذ قرارًا، كان يذهب ويروح يفك. ومن حين لآخر يخوض المعركة في أشد حالتها بنفسه، يروي ظمأه من القتال، ثــم يعــود إلــى الخيمة. وذات مرة ألقى بنفسه على جيش العدو، وأنت تتــذكر كيف قضى على (مالباش اوغلو)، لقد أطاحوا برأس هذا البطل المغوار. أنت كنت في الهجوم. وكان هناك فتحة في الخيمة كنت أشاهد من خلالها سير المعركة. وأنت بنفسك أكدت عليَّ مرارًا وتكرارًا ألا أغادر الخيمة وأن أظل فيها. رأيت الشاه هذه المرة عندما عاد إلى الخيمة، أن هناك قطرات دم تسيل مــن تحــت الدرع. لقد جُرح الشاه المعظم. لم أقل لأحد مطلقا ما قلتُــه لــك الآن. ليس لي ذنب في الموضوع، يا "لالا"...أنا ألقيتُ بنفــسي عليه وقلتُ:

- سيدي الشاه، الدم يسيل، إن شاء الله يكون جرحا طفيفا.

- لا أشعر بشيء، أين؟

فأمسك الشاه بيدي وتنحى جانبًا وأخذ يتفقد بيده وأدخل يده تحت الدرع وعندما أخرجها كانت ملطخة بالدم.

- لا شيء.

- انتظر نخلع الدرع، ونضع علاجًا على الجرح

قال:

- لا ، لا. بعد ذلك، ربما ينقطع الدم. لا تخف لم يحـــدث شـــيء. ربنا معي، لن يحدث لي شيء.

فتجرأت وطلبتُ منه:

- سيدي الشاه، فداك نفسي، اتركني أنا أيضًا أشارك في المعركة، وأقاتل في سبيلك، هل بقي لي سوى النظر من الخيمة؟

- لا، لا تخرج من عتبة الخيمة. ما هذا الصوت؟ ما هذا؟ ما هذا؟

خرج الشاه من الخيمة على صوت جلبة قدمت من أمام الخيمة. وكنتُ أنا أسمع كل شيء من الداخل.

كان رئيس الحراس يسرع ليوصل خبرًا للشاه:

- سيدي الشاه، فداك نفسي، لقد دُمر الجناح الأيسر.

غضب الشاه:

- كيف؟ أسرع وابحث عن "خليل سلطان ذو القادر" واجعله يتولى الجناح الأيسر بنفسه

فتلجلج رئيس الحراس من شدة القلق وقال:

- سيدي، فداك نفسي...

- ما الأمر، قل بسرعة، ماذا حدث؟

- سيدي الشاه، لقد خانك "ذو القادر" وفر هاربًا أيها الشاه؟

- فر؟ خائن. كان والده خائنا أيضًا. وهو خائن أيـــضًا. لا تقـــف، ابحث عن "اوستاجلو عبد الله"، وليذهب إلى الجانـــب الأيـــسر. أسرع إلى الجانب الأيسر.

في هذه الأثناء قدم آخر وهو لا يكاد يأخذ نفسه:

- سيدي الشاه، سيدي الشاه، الجناح الأيمن !...لقد دُمـر الجناح الأيمن فداك نفسي أيها الملك...

توجه الشاه بوجهه نحو رئيس الحراس:

- الجناح الأيمن... اذهب وأسرع إلى الجناح الأيمن، اجمع كل الحراس، واذهب، أنا سآتي بنفسي الآن...ولكن أرسل أحد الحراس إلى (عبد الله خان)...

ركب هؤلاء خيولهم وذهبوا، عاد الشاه ودخل الخيمة، وكان في غاية القلق والتفكير. كان يفكر ويقلب في ذهنه أمرًا ما. وفجأة استدار نحوي قائلاً:

- اقترب مني.

فاقتربتُ. وركعتُ على ركبتي، وشعرتُ الآن أن الشاه سيقول لي شيئًا مهمًّا. فقال لي ما يلي وهو ينظر إلى وجهي باهتمام شديد:

- استمع جيدًا لي، ولا تنس ما سأقوله لك.

- على الرأس.

- لا تقاطعني، أستمع إليَّ فقط...

فبدأتُ أستمع إليه دون أن أتنفس. سبحان الله، كم كان في صوته حزن وضيق. حتى إنني لن أستطع أن أقول ما قاله بالضبط. ولكن مضمون ما قاله لي:

- قبل ذلك أثناء الهجوم، انتفض الحصان، فأسقطني تحته. لقد أراد هؤلاء الكفار قتلي. "سلطانعلي ميرزا افشار" أنت تعرفه، لقد

أمسك بالسيف ومنع هؤلاء عني، فأخذ يحميني ويقول "أنا الشاه أنا الشاه"، حتى استطعتُ النهوض على قدمي. وإلا...، اسمعني جيدًا. لو خرجت من المعركة سالمًا أجزل له العطاء، فقد أنقذ حياتي. و"ذو القادر" أنت تعطيه جزاءه بنفسك على الخيانة إن شاء الله عندما يقع في يدك...

لم أتحمل، وتعجبتُ مما يقوله الشاه، كنتُ لا أعرف ماذا يقصد، وكنت لا أفهم ماذا يريد، ماذا يعني بقوله "لقد أنقذ حياتي" و"تعطي ذو القادر جزاءه على الخيانة"؟؟

– سيدي الشاه، ماذا تعني بهذا... أنا لا أفهم شيئًا. الحمد لله، أنت ستقوم بهذه الأمور بعد الحرب بنفسك إن شاء الله...

بدا على الشاه علامات الغضب:

– لا تقاطعني في الكلام. اسمعني جيدًا واجعل هذا الكلام حلقة في أذنيك، الوقت ضيق. أنت ترى أن الحرب قد انتهت. نعم، نعم، الحرب منتهية. لقد تخلى الله عني، ربما ارتكبتُ ذنبًا عظيمًا. المهم...وقتنا ضيق، اخلع ملابسك.

لقد ارتديتُ فوق ملابسي ما يشبه المعطف، والملابس التي تحت هذا المعطف هي نفس ملابس الشاه. لقد خلعت هذا المعطف وألقيت به جانبًا.

دقق الشاه في النظر وقال:

– هكذا...أنت تقف تمامًا مثل وقفتي...كيف الحال، هل أنت مستعد للعبة؟ أرى، أرى أنك مستعد. هذه المعركة قد انتهت. غدًا سيصبح ملكي لك. اصمت...قلتُ لك لا تقاطعني لا تقطع

كلامي، أيها الشاه. إنني أعطيك دولة في هــذا الحجــم، ولكــن جريحة. انظر ماذا ستفعل...

لم أتحمل أنا هذا، وأخذتُ نفسي وتجرأتُ وقاطعت حديثه:

- ترانا من نخدع أيها الشاه؟

- نحن لا نخدع أحدًا، احفظ هذا جيدًا

- أنا...أنا خائف.

- لا تخف. لا تخف مطلقًا. لن تجد مجالاً للخوف عنــدما يــأتي الخوف الحقيقي، سوف تنتهي حياتك يوما ما. حدثت أصــوات ضجيج مرة أخرى عند عتبة الخيمة.

أحد الحراس اقترب من الخيمة وقال مسرعًا عند عتبة الباب:

- سيدي الشاه، فداك نفسي، هيا، فقد هُزم الجيش، نحن ننتظــرك، هيا، حان الوقت للفرار...صاح الشاه عند عتبة الباب:

- أنا قادم، انتظروا للحظة...

ثم وجه وجهه إلي وقال:

- انظر، لم أستطع أن أحمي دولة كبيرة في هذا الحجم من الخطر، سوف أختفي. ولا تسألني عن شيء لقد نما إلى أذني صوت من السماء يقول "من يحبونك ينتظرونك هنا تعال هنا، لقــد أنهيــت مهمتك عندك، تعال الجميع ينتظرك هنا، كل من يحبك هنا...". والآن أنا لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك، ولا تــسألني عــن

شيء بعد ذلك. والآن بإذن الله، سألقي بنفسي في خضم المعركة، فلا يبق لي أثر هنا. وسأبلى بلاء حسنا حتى تطيش رأسي في ناحية وجثتي في ناحية. ولا تقلق مطلقًا، لن يتعرف على جثتي أحد.

لقد تغلق آخر أمل لي فيك يا "لالا"، فقلتُ للشاه آنذاك:

- ولكن "لالا"، أين "لالا"؟

فقال الشاه:

- ارتح من هذا الجانب، فقد مات "لالا"، وقد قضى عليه في المعركة، لقد سلم نفسه للموت "لالا". إن شاء الله جعل الله الجنة مثواه.

لم يتحمل "لالا" هذا الكلام الذي كان يحكيه له الشاه (الزائف) أي الخضر فسالت دموع عينيه وقال:

- لا ، فداك نفسي أيها الشاه المعظم، لا، أنا لم أمت، "لالا" الخائن لم يمت. يا رب أمتني، اقض علي، بحق وحدانيتك اقتلني يا رب...

لم يستمع الخضر لكلام "لالا" وواصل الحديث الذي دار بينه وبين الشاه الحقيقي أثناء الحرب فقال الشاه آنذاك للخضر:

- لقد مات"لالا"، أيها الشاه لن يتعرف عليك أحد بعد اليوم. اخرج، اخرج مع حراسك، وأسرع بالفرار من هنا، وانسل للجبال، هل تسمعني؟ ينتظرونك في الخارج، أسرع. كل الأمور واضحة لك تماما وعلمك بالأمور علمي بها تماما.

بدأت الأصوات تتعالى مرة أخرى خارج الخيمة. فبدأت قذائف المدافع تتساقط بالقرب من الخيمة. فقد صمت الأذن من شدة الصراخ والضجيج. وهذه هي المرة الأخيرة التي نظرت فيها إلى عيني الشاه، ثم انصرف من الفتحة التي كانت موجودة في أحد أركان الخيمة من الوراء، فدخل بكل جسمه في هذه الفتحة وغاب عن الأنظار. في هذه اللحظة اقتحم رئيس الحراس الخيمة، ولم يتكلم بكلمة، احتضنني بقوة وأخرجني خارج الخيمة.

في البداية اضطرب بصري من الضوء، فوضعت يدي على عيني. وبعد ذلك رفعت يدي، وأحنيت رأسي لأسفل، ولم أنظر لوجه أي أحد. كانت الخيول تقف حاجزة. وتضرب بأقدامها على الأرض. فركبناها. وفي لحظة نسيتُ كل شيء، فظننتُ نفسي أنني أنا الشاه الحقيقي. التفتُ يمينًا ويسارًا وسألتُ رئيس الحراس في دهشة:

- أين "محمد خان أوسطاجلي"؟ وأين "دوه سلطانه روملو"؟ اجمع هؤلاء جميعًا للهجوم...

قال رئيس الحراس للشاه وكأنه يتوسل إليه:

- سيدي الشاه، لقد تأخرنا، لقد انتهى وقت الهجوم. نحن نفر بأرواحنا، لقد انسحب الجميع، ونحن فقط الذين ظللنا هنا، بعد ذلك سيكون الفرار متأخرًا...

لم يسمع لي شيئا بعد ذلك، وأنا أيضًا قمت بضرب الحصان سوطا شديد، فأسرع الحصان، وكان خلفنا حوالي عشرة أو خمسة عشر حارسًا، بدءوا جميعًا يقدمون...

مسح الخضر عرق وجهه، وكان جالسًا القرفصاء عند العرش. نهض على قدميه، وقد ذهب عنه التوتر والقلق، فاقترب من "لالا" قائلاً:

- "لالا"، والله؛ بالله، الحقيقة كما قلتها لك الآن. ليس لي ذنب ولو ذرة في هذا العمل...

لقد تجمد "لالا" مكانه واقفًا لا يتحرك، واستمر على ذلك دون أن يصدر صوتًا.

فنادى الخضر على "لالا" بحذر:

- لالا...هل تسمعني؟ أقول لك أمرًا، بحق روح الشاه...

صاح فجأة "لالا" بصيحة كانت تملأ صدره:

- لينتقم منك الله بحق روح الشاه. عشر سنوات، عشر سنوات والشاه ميت، جميع هذه السنوات وأنا أحيا على أمل لقائه. عشر سنوات وأنت... الشاه. ليت الله قد قضي علي قبل أن أجدك وأحضرك من المستنقع الذي كنتَ فيه. أنا الذي جعلتك هكذا، أنت الشاه؟ كان يجب أن تموت من زمن بعيد... أنت...

بينما كان "لالا" يقول هذا أخرج خنجرًا صغيرًا كان يخفيه تحت حزامه، وطعن به الخضر في قلبه:

- الموت لك أيها الملعون. خذ نصيبك. تقوله ليس لي ذنب، أنا ذنبك. وكان الشرر ينطلق من عين "لالا".

على الرغم من أن الخضر قد ترنح عدة مرات فإنه ما زال يتحامل على نفسه ويقف على قدميه. فصاح صيحة وخر على الأرض رويدًا رويدًا وهو يضع يده على صدره. وآخر ما كان يفكر فيه هو أن الرؤية التي رأتها له "تاجلى خانم" قد تحققت...

بعد ذلك خر على الأرض، وفاضت روحه.

ظل "لالا" لفترة ينظر إلى جثته بكراهية، وبعد ذلك حول وجهه، وبدأ يدقق النظر في حجرة الديوان ويتفقدها. لقد أغلق الباب بإحكام.

لدرجة أنه لا يأتي أي صوت من الخارج. من أجل عدم إضاعة وقت اتجه "لالا" بقوة نحو الحائط الموجود بجانب العرش، وسحب السجادة الموجودة على ذلك الحائط بشدة، فأوقعها على الأرض. وضغط على الحائط بكل قوته، فكاد الجدار أن يقع عليه، فتنحى جانبا، وكان خلف هذا الجدار طريق. وكان هناك سلم يوصل إلى هذا الطريق. فنزل "لالا" إلى هذا الطريق. وترك حجرة الديوان خالية. بالطبع خالية إلا من جسد الخضر التعيس هذا الذي كان طريحًا على الأرض في دمه.

***

فتح الوزير الباب وأطل أولاً خائفا على الحجرة من الداخل ، فما إن رأى ما رآه حتى أغلق الباب بسرعة. وبعد لحظة تشجع الوزير وفتح الباب ودخل إلى الحجرة، وألقى بنفسه على جثة الشاه الملقاة على الأرض:

- سيدي الشاه، سيدي الشاه، من قتلك... ماذا حدث لك يا مرشد الكمال؟

قلب الجثة، فرأى الخنجر مغروسًا في صدره، وكادت عينيه تخرج من حدقتيهما من شدة الدهشة، فلم يتحدث وصمت. وبدأ يتفقد الجوانب الأربعة من الحجرة بدقة، فنهض ووقف مدة بجانب السجادة الملاقاة على الأرض، ونظر إلى الحائط العاري وأرد أن يلمس الحائط بيده ولكنه لم يفعل، فذهب وفتح الباب ونادى على اليوزباشي رحيم.

قال الوزير وهو في شدة الغم:

- تعال، أدخل، انظر ماذا حدث؟ لقد ضاع الشاه من أيدينا.

ارتعدت فرائص اليوزباشي رحيم، وتقدم للأمام بعض الشيء، فطاش عقله بعد أن رأى الجثة على الأرض وتلعثم لسانه. وخر على ركبتيه وتسمر بجانب الجثة. بدأ الوزير يجول داخل الحجرة وأخذ يلعب بحبات المسبحة الموجودة في يده ويقول "بسم الله الرحمن الرحيم"، وأخذ يفكر فيما يجب أن يعمله.

وقف الوزير فجأة أمام اليوزباشي رحيم وتفقده من أعلى لأسفل وسأل قائلاً:

- هل دخل شخص آخر هذه الحجرة؟ ألم أقل لك لا أحد يدخل هنا. من كان هنا؟

ومع أن اليوزباشي رحيم بدأ يستعيد وعيه، إلا أنه كان يتكلم بصعوبة وقال:

– هنا؟ لم يدخل شخص آخر مطلقا هنا، ولكن...لم يكن الشاه وحده، أنت...

بدأ الوزير يتجول من جديد في الحجرة قائلاً بصوت مرتفع "بسم الله الرحمن الرحيم".

تلفت اليوزباشي حوله وقال:

– ولكن كان بجانب الشاه شخص..."حسين بك لالا"...بالتأكيد هو "حسين بك لالا". كان بجوار الشاه، ولكن أين اختفى؟

– ماذا تقول؟ هل فقدت عقلك؟ هل هنا رجل غيرنا؟ باب، ونافذة ذات أسياخ حديدية...فمن "حسين بك لالا"؟ نعم، نعم، هناك شخص هكذا. كان في زمانه كاتم أسرار الشاه، كان شخصية لها شأن عظيم. هل سمعت عن معركة تشالديران. لقد قتل "لالا" هذا في معركة تشالديران واستشهد. وعمل فترة بحراسة الشاه. وكان هو الشخص الذي يثق فيه الشاه. كان له سلطة عظيمة. وكان له خبرة كبيرة. من أين خطر على بالك "حسين لالا" هذا؟ أنت تبدو في عيني متغيرا بعض الشيء...

تعجب اليوزباشي رحيم. ولم يعرف ماذا سيقول. وماذا يقول هذا الوزير وعما يتحدث! نهض على قدميه وهو يقول "بسم الله". ورد على الوزير:

- والله، بالله أنا لا أعرف، لا أعرف شيئًا. أستحلفك بالله العظيم صدقني سيدي الوزير، هذا كلام صحيح. كان يحدث في هذه الحجرة شيء ما، كان يتراءى لسمعي أصوات ما وكان يوجد ضجيج، وفي النهاية خرجتُ إلى الحديقة وناديتُ عليك. كانت أصوات غريبة. كانت تشبه صوت والدي، كان هناك صوت ما يصرخ بقلق ويقول:

"سيدي الشاه، سيدي الشاه، الجناح الأيمن:

بالتأكيد كان هذا هو صوت والدي. ولكن...ربما بدا هذا الصوت إلى أذني. لقد هلك والدي في معركة تشالديران. كان حاملا الراية...فما علاقته بالأجنحة في الحرب؟...

كان الوزير لا يستمع مطلقًا لليوزباشي، كأنه قد غرق في أفكاره الخاصة. في النهاية انتبه الوزير إلى ارتعاش اليوزباشي وقال:

- حسنا، تعال، اخرج من هنا. فلا يجوز الوقوف كثيرًا في مكان به جثة. والآن تعال، علينا أن ندعو الجميع، ونجمعهم في حديقة الديوان. افتح هذه النافذة الآن.

كانت النافذة محكمة الإغلاق، وكان لها إطار حديدي به أسياخ.

- اكسر هذا الإطار الحديدي بالله عليك.

نزع اليوزباشي رحيم هذا الإطار الحديدي مرة واحدة من مكانه بكل ما أوتي من قوة، وألقى به جانبًا وفتح النافذة، وملأ الضوء الحجرة. ألقى الوزير نظرة على خارج الحجرة من النافذة، وقال لليوزباشي:

- أسرع، واذهب واجمع الجميع أمام النافذة وسوف أخبرهم أنا بهذا أيضًا. لا، انتظر، قف وانتظر قليلا.

سحب الوزير اليوزباشي من جوار الجثة. وأمسك بالخنجر ونزعه مرة واحدة من صدر الخضر، ومسح دمه في السجادة الموجودة على الأرض، وأعطى الوزير لليوزباشي الخنجر وأمره قائلاً: "خذ هذا واخفه، فلا يراه أحد" وبعد ذلك بدأ يعدل من ملابس الجثة، وكان يقول وهو يفعل هذا الفعل لنفسه أو لليوزباشي:

- يجب أن يعلم الجميع أنه مات بسبب المرض. لا يمكن مطلقا التطاول على الشاه أو قتله. مستحيل. كان مريضًا، ففاضت روحه. لم يكن أحد موجودا هنا، فهمت، لا أحد... اذهب الآن، ونفذ ما قلته لك. اجمع جميع الناس أمام النافذة، فليأت الجميع، الشيوخ والمريدون والحراس والدراويش، الجميع... ماذا تنتظر، اخرج من هنا...

كان اليوزباشي رحيم قد تجمد وتسمر مكانه، ولكنه الآن بدأ يعود إلى وعيه، وفجأة صاح صيحة، وفر خارجًا من الحجرة. فتابع الوزير اليوزباشي بنظره، وحاول بكل قدرته أن يغطي الجرح الموجود في الجثة ويجعل الجثة تتمدد فوق السجادة بارتياح. وبعد أن أخذ ينظر إلى الجثة بشك، همس لنفسه وقال

"رحمك الله، بسم الله الرحمن الرحيم"، وبعد ذلك اقترب إلى النافذة، وبدأ بالفعل النداءات الحزينة وأصوات البكاء تتعالى من الحديقة وتزداد وتصل إلى عنان السماء، وكانت العبارات والنداءات تقول: "يا سيدي الشاه، يا مرشد الكمال، فداك نفسي، فداك الجميع، ماذا حدث لك آه...". التف السادة والأشراف حول اليوزباشي رحيم، وفي لحظة امتلأ أمام النافذة بالناس.

أطل الوزير برأسه من النافذة وهو يقول نحو الأصوات القادمة من الخـــارج "يا الله". رفع يده، فانقطعت أصوات الضجيج.

ولكن أصوات النواح مازالت موجودة. وكانت تجدد من هناك وهناك.

بدأ الوزير حديثه بصوت غليظ. وكلما تحدثت كانت تتعالى أصـــوات البكاء والعويل إلى عنان السماء وتتقطع:

- أيها الناس! لقد دُمر منزلنا... وساء نصيبنا، وانطفأ ســـراجنا... فليعم الحداد على جميع البلاد ! سيدنا ومرشدنا الكامل الحـــاكم العظيم الـــشاه إســـماعيل بـــن حيـــدر جونيـــد الـــصفوي قـــد تركنا وترك الدنيا الفانية اليوم السابع والعشرين من شهر رجب عام ٩٣٠ هجري، وذهب إلى ربه، وسوف تخلد أعماله. اللهـــم ارحمه رحمة واسعة...

ما إن أنهى الوزير كلمته، حتى خرجت من صدره صـــرخة مـــلأت الأرجاء، وانهمرت الدموع كالسيل من عينه على وجهه، ومن وجهه علـــى لحيته. غطت الصرخات وأصوات البكاء حديقة الديوان، فكان في الحديقة من فقدوا الوعي ومن شقوا الجيوب. لقد تجمع أهل المدينة جميعهم هنا. لا يوجد موضع قدم فارغ في الحديقة. وتعالت الرايات السوداء والخضراء والحمراء والسوداء في الهواء، وقد ازدادت الآهات والغم والحزن عند الناس، ونداءات "سيدي أين ذهبتَ، أيها الشاه المعظم لا تدعنا نتيتم، عُد إلينا، فداك أنفسنا، يا مرشدنا الكامل"...

هنا ينتهي النص الخاص بالشاه إسماعيل في هذا الموضع الحزين. في الحقيقة يمكن أن نعتبر أن الموضوع قد انتهى بالفعل. ولا يمكن لأحد على الإطلاق في أي زمان أو مكان يستطيع أن يجزم أن هذه الأحداث التي رُويت قد حدثت بالفعل. وما هي إلا نتاج للخيال فقط. هناك فرق جوهري بين الشاه إسماعيل الذي هلك في معركة "تشالديران" والذي استمر حكمه بعد معركة "تشالديران" عشر سنوات. هذا الفرق الجوهري يكمن في ذلك الفرق الموجود بين الشاه إسماعيل الأصلي وبين شبيهه الخضر وحسب. كنتُ أريد أن أصدق هذا المخطوط المبتور أو الحقائق التي فيه. فهذا على الأقل عبارة عن حادثة وقعت في الحياة بشكل أو بآخر. ولكن من يستطيع أن يُجزم أنه لم يحدث مثل هذه الأحداث في حياتنا؟

لقد حل الظـــلام. فنهــضتُ وأطفأت الإضاءة. وربما لم يبــق أحـــد مطلقــا فـــي مبنـــى دار المخطوطات. لقد اعتـــدتُ علـــى قراءة المخطـــوط، إلا أننـــي لـــم أستطع أن أجبر نفسي على قـــراءة ما تبقى منها الآن وأخذتُ أنظـــر لفترة إلـــى صـــفحات المخطـــوط المبتور الـــصفراء. وبعـــد ذلـــك نهضتُ أنا الآخر وتركتُ المبنى...

***

رحل "أروز قوجا" برجاله، ومضوا إلى حال سبيلهم وخلت فجأة حديقة قصر الملك بايندر خان. جلس قيلباش وقازان تحت الشجرة الضخمة. فاقتربت منهم. فقال قازان:

- أرأيت يا قيلباش، لقد غضب "أروز قوجا" من الملك بايندر خان، أليس كذلك، يا قورقود؟

صدق "قيلباش على ما قاله قازان:

- نعم غضب، ولكن غضب من نفسه، فكن على علم من هذا.

تحدث قازان في حق "أروز قوجا" فقال:

- إن لم يغضب من نفسه، فممَّن من سيغضب؟! ليس لغروره وتكبره حد. الجميع مدين له. . فما رأيك يا قيلباش؟

رد قيلباش على قازان قائلاً:

- سنرى. الله لا يحب المتكبرين ونحن أيضًا نبغضهم.

(لقد أعجبتني هذه الكلمة التي قالها قيلباش: "الله لا يحب المتكبرين، ونحن أيضًا نبغضهم". في الحقيقة قيلباش يتكلم قليلاً، ولكن لما يقوله معان كبيرة).

نهض قيلباش وتركنا واتجه نحو حجرة الملك قائلاً:

- سأذهب للملك، أيها السادة، أسأله. هل إذا كان لديه أمر أو طلب منا، انتظروني هنا.

جلسنا القرفصاء نحن الاثنان أنا وقازان على أريكة تحت الشجرة. فقدم لنا خادمان وسألانا:

- تفضلا، ماذا تريدان؟

فسأل، قازان :

- هل جعتَ يا قورقود؟

فأجبته :

- لا.

فنظر إلى قازان :

- أنا أيضًا لا أريد الطعام. فلنشرب لبنًا، هل تريد؟

فقبلتُ قائلاً:

- فلنشرب.

نظر قازان إلى الخادمين. فأحنى الخادمان رأسيهما وانصرفا.

قال قازان:

- خر شير شمس الدين على الأرض ونام. لقد أكل خروفًا وحده، عندما قُسم الخروف إلى ستةُ أجزاء، استطاع أن يأكل، ولو قُسم إلى أربعة أجزاء، لما استطاع أن يأكله. ولكن حدث ما حدث...

ثم غير قازان الحديث فجأة وسأل :

- لقد تعب الملك جدًا، هل يمكن أن يعاود هذا الأمر مرة أخـــرى الليلة أيضًا؟

فقلتُ :

- لا أعلم. كل شيء جائز. أنا نفسي تعبتُ جدًّا.

سلط قازان نظره إليَّ وسألني قائلاً:

- بالله عليك، يا قورقود، قل لي، هل تحدث "أروز قوجـا" عنـي بأشياء سيئة كثيرًا، هل اغتابني كثيرًا؟

فقلتُ :

- لقد تحدث عنك كثيرًا واغتابك.

- كنت أشعر بهذا. أنه سوف يغتابني، إن كـان هـو الخسيس "أروز قوجا"، فأنا قازان...ما رأيك يا قورقود، هل تجمع عند البوابة السوداء نساء وفتيات أوغوز الداخل؟ وليقولـوا رأيهـم في للملك بايندر خان. هل يُعجب الملك هذا، أم لا؟...

فقلت :

- لا، بالطبع لا، لن يُعجب الملك هذا، لا تيأس. الله يساعدك. كـل شيء سيكون على ما يرام.

فسألني قازان ثانية:

- لا يمكن ألا تكون قد عرفت هذا الأمـر، هـل صـدق الملـك "أروز قوجا"؟

- من أين أعرف يا قازان؟ هل الملك صدق "أروز قوجـا" أم لا؟ أنا لم أدخل في عقل الملك، أنا حتى الآن لم أنظر مطلقًـا إلـى عينيه أو وجهه. كما رأيت مهمتي هي الكتابة. كل مـا رأيـتُ هي أقدام الملك الضخمة، وأنه يحرك أصابعه فقط.

فقال قازان:

- لقد غضب الملك. أنا أعرف ما إن يحرك الملك إصبعه الإبهام حتى يصمت ويقف، ويكون قلبه مليئا بالغضب.

- ماذا أفعل؟ فلننتظر، والله يقدر الخير.

- آمين.

أحضر الخدم اللبن. وكنا صامتين، فشربنا اللبن. وقدم قيلباش آنذاك مرة أخرى، وكان يبدو من وجهه وعينيه أنه ليس هناك أمر عاجل.

قال قيلباش:

- أمر الملك، أن تستريحوا، غدًا من الصباح الباكر نواصل عملنا.

بعد أن وافقنا على هذا، جلسنا طويلاً تحت الشجرة نتبادل أطراف الحديث، وتحدثنا عن السادة وعن شير شمس الدين.

سأل قيلباش قازان:

- هل جاء "اوروز"؟

- جاء، جاء. وراء الحصان الذي اخترته له، وأعجبه كثيرًا. شكرًا لوالدنا الملك، عاش الملك، أطال الله عمره.

حل المساء، وعم الليل. وظهر القمر ساطعًا متلألئا مستديرًا. كانت السماء بلا نجوم. وقد علاها اللون الأزرق الداكن.

سألني قازان:

- هل أحضرت ربابتك معك وأنت قادم؟

- لا يا سيدي، فالمقام ليس مقام ربابة. وأنت تعلم ذلك جيدًا.

- بالفعل، أنت تقول الصواب. ليس المقام مقام ربابة على الإطلاق. أنا لا أعرف لماذا سألت عن الربابة... التفت قازان حوله وواصل حديثه - ما رأيكم أيها السادة، لا يوجد الآن لا حديث ولا ربابة، هيا فلنذهب. ولتسترح. لقد تعبت غاية التعب. فما رأيكم؟

فقلتُ:

- أنت محق، لقد تأخرنا، فلننم أيها السادة.

التفت قيلباش وقال :

- استريحوا أنتم.

ثم التفت وقال:

- لا زال لدي أعمال يجب أن أقوم بها.

قمنا وودعنا بعضنا البعض، وذهبنا إلى حجراتنا. فآويت إلى سريري، ومرة أخرى رأيتُ في منامي ما يشبه الفريسة الجريحة تفر مني. أحيانا ألحق بها، وأحيانًا أتركها، فتسبقني، فقد حلت برأسي بعض الأفكار والخيالات الغريبة. "لقد استمع الملك للجميع، وأحاط بكل شيء، ولم يبق شيئًا. ربما يكون الغد آخر يوم. بالتأكيد سوف يصدر الملك قراره الأخير. اللهم ساعدنا في هذا الأمر. اللهم احم الأوغوز. آمين" وغصتُ في النوم وأنا أفكر في مثل هذه الأفكار. ولم أستيقظ إلا بعد طلوع النهار، فنهضت من سريري بسرعة، وارتديت ملابسي، وكنتُ أعرف أن قيلباش سوف يأتي خلفي، فانتظرته.

قدم قيلباش، ودخلنا نحن الاثنان حديقة قصر الملــك، وجئنـــا تحــت الشجرة الضخمة. عم الضباب هذا اليوم أعلى الجبل وغطى جميع الأرجاء. وكانت حديقة قصر الملك باردة. لم يعد يظهر قازان حتى الآن. لــم أســأل قيلباش شيئًا. أحضر الخدم الطعام والشراب بسرعة. فأكلنا وشبعنا. ثم قــال قيلباش، "حان الوقت، فلنذهب". فنهضنا وذهبنا نحو حجرة الملك.

استيقظ الملك بايندر خان منذ الصباح الباكر، فدخلنا حجرة الملك ذهب كل منا مكانه. كان ينتظرنا. فألقينا عليه السلام ورد علينا هو الآخر السلام، وانحنينا له، فجلس كل منا مكانه. فجهزتُ أنا أوراقــي، وأخرجــتُ قلمــي وضعته أمامي، فنظر الملك لهذين ثم قال لي:

- قورقود يا بني، لقد تعبت كثيرًا طيلة عدة أيام. ضع هذا جانبــا أريد أن أتحدث معك.

لم أشعر في صوت الملك بايندر خان بغــضب أو قلــق. فأحســستُ بارتياح داخلي. فنحيتُ الأوراق والقلم جانبًا وركزتُ كل اهتمامي في بايندر خان. اتجه الملك بايندر خان بوجهه إلى قيلباش قبل أن يبدأ الحــديث هــذه المرة وقال:

- قيلباش، اذهب أنت، واتركنا وحدنا، لدي كلام أريد أن أقوله لــ "قورقود"، وبلغ قازان يستعد، بعد أن أنهى كلامي مع قورقــود، تحضره لي، وانظر أيضًا، هل شير شمس الدين لازال حيًا على قيد الحياة أم مات هذا الوغد ابن الوغد؟

ضحك الملك ما إن ذُكر اسم شير شمس الدين، فقد كان عنــده علــم بمسابقة أمس.

بمجرد أن خرج قيلباش قال لي الملك بايندر خان:

- قورقود يا بني، اجلس قريبًا مني، تعال أمامي.

اقتربتُ من الملك، وبعد أن تفقدني كثيرًا سألني:

- ما رأيك يا بني يا قورقود. لم يبق أحد لم نسأله ونعرف منه أمورًا متعلقة بموضوع الجاسوس، أليس كذلك؟

- لم يبق سيدي الملك أحد. تقريبا تم التحقيق مع الجميع.

- لا يا قورقود، ما تقوله ليس صحيحًا، بقى شخص. وبعد أن رد عليَّ الملك تجمد الدم في عروقي فسألتُ الملك:

- من يمكن أن يكون هذا الشخص، أيها الملك المعظم؟

فأجاب الملك بايندر خان:

- أنت: أنت الذي بقى يا قورقود يا بني، أليس كذلك؟

صمتُ، وسلطتُ عيني في الأرض، وشعرتُ بضربات قلبي تزداد، والعرق يتصبب من ظهري.

ولكن بقي صوت الملك بايندر خان كما هو لا يوجد فيه أي غضب. وفجأة ضرب الملك هذه المرة يده كفًا على كف وأخذ يضحك وقال:

- ولكن، كيف استطاعت المرأة المسماة فاطمة بوغازجا أن تلف الأوغاد على إصبعها؟!

كان وجهي شديد الحمرة، وكنتُ أتمنى لو انشقت الأرض وتبلعني. ليت هذه الشكوك التي في قلب الملك بايندر خان تمضي بسرعة كما جاءت كالضباب الذي غيم علينا اليوم.

تمالك الملك نفسه من الضحك بصعوبة ووجَّه إليَّ الكلام قائلاً:

- قلتُ لك يا قورقود يا بني، لقد جاء الدور عليك، هيا فلنتحدث، ما رأيك؟

بدأت أنا أيضًا الحديث حتى لا أضيع الوقت سدى:

- نعم أيها الملك المعظم، ما قلته حق، لقد جاء عليَّ الدور. أنا مستعد لأن أقول ما تريده مني.

سألني بايندر خان:

- قورقود، هل أنت الذي عرفت بوغازجا كل هذا؟

فأجبته :

- نعم، أيها الملك المعظم، أنا الذي علمتها.

- لماذا فعلت هذا، ألا تخبرني؟ هل كان بينك وبين بوغازجا علاقة أنت الآخر؟

- كان يوجد. أنا أيضًا في وقت من الأوقات تركت الطريق القويم وسلكت طريقًا معوجًا، وذهبت إلى منزلها. أما الآن فأنا نادم وغاضب من هذا، فليغفر لي الله في السماء وتعفو أنت عني أيضًا إن شاء الله.

وقال الملك بايندر خان برضا وهو ينظر لوجهي:

- نعم...لقد أعجبني ردك. أنت قلت كل ما عندك ولم تخطئ.

وبعد أن صمت الملك بايندر خان قليلاً واصل الكلام قائلاً:

- أنت تعرف جيدًا أنك ساعدتني كثيرًا في هذا التحقيق، ألا تخبرني ما الذي فهمته حتى الآن من هذه الأمور؟ ولماذا أجريتُ أنا هذا التحقيق؟

فكرتُ مليًا. والملك بايندر خان هو الآخر ينتظر ردي دون أن يتكلم بكلمة. أخذتُ نفسًا عميقًا وقلتُ:

- أردت أيها الملك المعظم أن تعرف من الذي هرّب الجاسوس، وتُعاقبه وتجعله عبرة للأوغوز.

نظر إليَّ الملك بايندر خان باهتمام قائلاً:

- أحقًّا هذا، ألأنت تفكر هكذا؟

- نعم، سيدي الملك، أفكر هكذا.

قال بايندر خان:

- يا قورقود، يا بني، أنا كنتُ أعرف هذا جيدًا قبل أن أبدأ التحقيق. ألم تشعر بهذا؟

(بالتأكيد ما فكرتُ فيه هو الصواب؛ وهو أن الملك لم يُجر تحقيقًا، بل امتحانًا. أما غرضه الأساسي فهو وحده الذي عرفه).

قرأ الملك بايندر خان ما دار في قلبي من عيني وأجابني قائلاً:

- نعم، يا قورقود، بالطبع كنتُ أعرف، لقد حكوا لي عن الحدث. اعرف أن هدفي الأساسي هو الرد على السؤال "من الوغدا بن الوغد الذي يُفرق الأوغوز من الداخل". أنا أبحث عن جواب على هذا السؤال، يا قورقود يا بني. وقد وجدتُ الجواب. فاعلم هذا.

لقد كنت أتحرج أن آخذ نفسي، فلم يكن هناك صوت في حجرة الملك سوى الصمت.

سأل الملك بايندر خان:

- ما رأيك، من يمكن أن يكون هذا الوغد ابن الوغد؟

(مرة أخرى يجري على الامتحان. نحن الاثنين نعلم هذا، أليس كذلك؟ لا؛ مستحيل. هل أقول له على "أروز قوجا"؟ لا، حينئذ فمن. . فمن أقول؟ شعرت بدم الشفقة حل في قلبي من الحجر نور، وجاءني النبأ من الحجر نور وهو: "لا تقل على أحد، الملك توصل إلى النتيجة بنفسه، ولا ينتظر مني الرد. هو يتحدث مع نفسه).

- فكر يا قورقود، يا بني، مع من حققتُ؟ مع "أروز قوجا"، هل تعلم أنني لا أستريح مطلقاً لـ "أروز قوجا". لماذا؟! أسباب عدم الارتياح كثيرة. ولكن كما رأيت، "أروز قوجا" هو الوحيد الذي كان رجلاً بحق. ألم يمتنع عن ذكر الحديث الذي دار بينه وبين بوغازجا؟!

فقلت:

- نعم يا سيدي الملك، حدث هذا بالفعل.

سألني الملك بايندر خان وصمت وانتظر مني الرد.

- نعم بالفعل، فما رأيك في قازان؟

فتعجبتُ :

- قازان، هو عماد أوغوز الداخل يا سيدي الملك.

- نعم بالفعل، ولكن هو الذئب الذي ينهش في الأوغوز ، أليس كذلك، هل تعجبتَ من هذا؟ لا تتعجب مطلقًا استمع لي. سأقول لك أنت فقط، وليس لأحد آخر. أنت فقط. أعلم أنه سيأتي وقت ويلزمك هذا يا قورقود يا بني، هل الوغد الذي يذهب للصيد يأخذ معه كل الجيش؟ وهل لو أخذ الجيش معه، ألا يترك خاله على البلاد؟ عندما خرج قازان إلى الصيد، جاءه خاله "أروز قوجا" وسأله: أنت ستخرج إلى سفر بعيد ومخيف، فمن ستجعله على البلاد على الجيش؟ فماذا فعل قازان؟ لم يضع قازان "أروز قوجا" على الجيش. وضع ابنه الذي لا يزال رائحة اللبن من فمه تفوح ابنه الساذج الذي لا خبرة له. وأغضب منه "أروز قوجا". أليس كذلك ، طلب "أروز قوجا" أن يكون في المقدمة بعد قازان، فلم يدعه يفعل ذلك، وقال هذا مستحيل ، أنا لا أعتبرك يا "أروز قوجا" شيئًا. والنتيجة؟ استولى العدو على البلاد، ودارت حرب ضروس. وبعد ذلك استدعى قازان بكيل من الحدود وقال نكرمه أيها السادة. ونذهب سويًا مع بكيل إلى الصيد. وخرجوا بالفعل، وأكلوا وشربوا، أليس كذلك؟ وماذا فعل قازان بعد؟ ضايق وحقر بكيل وقال له المهارة لا تكمن فيك، بل هي في فرسك، وأغضب منه بكيل أيضًا، ألم يفعل هذا؟ نعم، فعل هذا. وبعد ذلك ماذا حدث؟ عاد بكيل إلى منزله، وأراد أن يخرج من طوع الأوغوز، فلم يدعوه يفعل هذا، وقالوا له يخرج للصيد، حتى يعتدل مزاجه، فخرج وسقط من الحصان وانكسرت ساقه، وقدم العدو "قارا تكور" إلى حدود الأوغوز، والنتيجة حرب أخرى! قازان هو الذي فعل هذا كله يا قورقود، قازان...ألا تفكر في هذا؟

وعلاوة على هذا دعا الوغد بن الوغد الناس إلى "اليغمة" في منزله. فدعا أوغوز الداخل، ولم يدع هذه المرة أوغوز الخارج. فما السبب في هذا؟ أخبرني، أريد أن أعرف. أنا لا أعرف سبب هذا، لا سبب لهذا سوى أن قازان سيد السادة أراد هذا ، أليس كذلك؟ أسألك هذا حدث أم لا؟ يا قورقود؟ أسألك. مستحيل هذا يا قورقود، يا بني، مستحيل هذا.

صمت بايندر خان، وضاق أنفاسه. واحمر وجهه. وأحنى رأسه وتفقد الورود من النافذة. واستمر الصمت لفترة، ثم نظر إلي مرة أخرى، وواصل كلامه.

- أنا لم أتحدث عن بطولاته الأخرى! وقعت أمه وزوجته وابنه في الأسر...وهذا الوغد طلب من "شوكلو مليك" إعادة أمه فقط من الأسر. ولم يطلب زوجته ولا ابنه.... وخرج إلى الصيد وترك الأوغوز بدون حماية هل أنا الذي أمرته بهذا؟ لا بالطبع...

أضف إلى ذلك كله أنه ملتصق تماما بـ"بيرك"، أنا لا أعرف ما الذي يربطهما ببعض كل هذا الترابط؟

أنا أعرف بيرك هذا جيدًا دون أن تُحدثني عنه، وأعلم ما الذي قام به. كان يكيد المكائد مع بورلا خاتون. هل لدي خاتون هي الأخر عقل تفكر به؟ كانت تُجن ما إن تسمع اسم "باصات" والآن تريد الانتقام من "أروز قوجا" بسبب "باصات". ولا يفهم هذا قازان أو بيرك. ألم أقل لك هل عند خاتون عقل تفكر فيه؟ ولكن عند خاتون بدلاً من العقل بعض الأشياء الأخرى - نحن لا نفهم هذا الآن - لا يفهم قازان أوبيرك. هل تعرف بيرك هذا؟ لديه زوجة في منزله كالوردة، بنت "باينجان". ألم ننتظره ستة عشر عاما؟ ترك

حلاله وأخذ يتجول في الأوغوز...أنا كنت أعرف أيضا الوغد شير شمس الدين. قبل أن تقول لي عليه. بالطبع يجب ربطه بالنهاية. و"أروز قوجا" خطر على الأوغوز. وبيرك خطر على منزلي، أنا الذي أسستُ الأوغوز، وأنا الذي رفعت شأنها. فيجب أن يحترمني أوغوز الداخل والخارج. قبل كل شيء لو لم يحترم الأوغوز بعضه البعض. فهل ننتظر الاحترام من العدو أمثال "عرشين ديراك تاكو" "وشوكلو ماليك"؟.... وهناك أمور أخرى كثيرة يا قورقود، وكما قلت لك أنا لم يكن هدفي هو الجاسوس، فالذنب عندنا يا قورقود وليس في الجاسوس. الذنب عند قازان، يا قورقود.

قال بايندر خان كل هذا، وسكت. وسكتُ أنا أيضًا. نعم، ها هو الهدف الحقيقي الذي كان الملك يريد أن يعرفه. وماذا يفعل كل فرد في الأوغوز؟ أين جرح الأوغوز؟ من المذنب؟ الملك بايندر خان لا يتحدث سدى. الذنب عند قازان. قازان، قازان...والآن من يستطيع أن يفعل شيئًا...ليس لي علاقة بالموضوع. لقد بقي الموضوع في يد الملك، أيها الحجر نور...

- قورقود، يا بني، اسمعني جيدًا. قازان زوج ابنتي. ولن أستطيع أن أفعل معه ما يجب أن أفعله. فما رأيك؟
- أنت محق يا سيدي الملك، لو عاقبتَ قازان، فسوف تنقسم حينئذ الأوغوز للأبد، وتتفرق. وتنشب الحرب ولن تنتهي.

فسألني بايندر خان

- إذن، ماذا أفعل؟ المهم بالنسبة لنا إطفاء نار الحرب قبل أن تشتعل. يلزمنا أن يكون المذنب شخصًا آخر.

فقلتُ :

– المذنب موجود أيها الملك.

نظر إلي الملك بايندر خان، فقلتُ له أيضًا:

– نعم، أيها الملك المعظم، هل ينتهي الأمر لو قلنا إن المذنب هـو "أروز قوجا"؟

– قورقود، لو قلنا أن هناك مذنبا، إذا يجب أن يُعاقب، فماذا ستقول لـ "أروز قوجا"؟ هل ستقول أنه جمع حوله، أوغوز الخارج، لو قلت ذلك ستنشب حرب ضروس، لن تنطفئ ! "أروز قوجا" لم يقترف ذنبًا عظيمًا لهذا القدر...

فسألتُ الملك:

– ماذا سيفعل؟

لمعت عينا الملك بايندر خان السوداء

– ماذا سيفعل "أروز قوجا"؟ هل سيخرج عليَّ؟

فسألتُ الملك:

– سيدي الملك لو قتل "أروز قوجا" أحد سادة الأوغوز بدون أمر، هل يُعاقب؟

أجاب الملك بايندر خان:

– نعم، يُعاقب. لو قتل دون إذن، فسوف يُعاقب.

- سيدي الملك، لو عُوقب "أروز قوجا"، هل تنتهي الحرب بين أوغوز الداخل والخارج؟

قال الملك بايندر خان بتأكيد:

- تنتهي!

- إذن، يجب سيدي الملك أن يرتكب "أروز قوجا" هذا الذنب.

دقق الملك بايندر خان النظر في، فواصلتُ حديثي.

- نعم، أيها الملك المعظم، يلزم ضحية، يذهب هذا الضحية لـ "أروز قوجا". ويقل له "لقد ذهبتُ للمصالحة بينك وبين قازان".

اهتم الملك بايندر خان بالأمر وقال:

- وبعد ذلك ماذا يحدث؟

- بعد ذلك، يا سيدي الملك، "أروز قوجا" يرتكب المحظور، ويقتل هذا الرجل.... ثم تعاقبه الأوغوز، وينتهي الأمر.

انخفض صوت الملك بايندر خان:

- أيمكن هذا؟ فمن سيكون هذا الضحية إذًا؟ ألا تخبرني؟...

وبدون تفكر حركتُ شفتيَّ وبهدوء بالغ قلتُ للملك بايندر خان اسم هذا الضحية.

دقق بايندر خان النظر إليَّ ثانية، فرأيتُ في أعماق عينيه أنه كان يُخفي هذا الاسم قبل أن أقوله. فدارت في قلبي بعض الكلمات وهي "لقد أعد

الملك لك هذا منذ البداية، وأجرى اختبارًا لي، وكان غرضه هو أن يستخرجُ مني هذا الاسم".

سألني الملك:

- الدنيا فانية يا قورقود، والأجل المحتوم لابد من مجيئه، فهل تستطيع أن تحتفظ بهذا السر في نفسك، وهل تستطيع أن تقوم بهذا الأمر حتى النهاية؟

فقلتُ :

- الدنيا قد شابت ! أيها الملك المعظم، وأنا لا أعرف بالضبط، هل السر في هذه الدنيا يبقى أم لا، لقد ظللتُ أحتفظ بأسرار الأوغوز في قلبي حتى سار حالي كما ترى. وهذا هو سر الأسرار، سوف يُدفن معي في القبر ولكن الدنيا كما تقول، مثل الرجل، موجودة الآن، غدا غير موجودة، غدًا غير موجودة، فلمن تبوح بسرك؟

قال الملك :

- سوف تزداد أسرارك واحدًا آخر. ولكن الدنيا ليست كما تقول أنها شابت، فالدنيا التي تقصدها لا زالت شابة.

- ما تقوله هو الصواب أيها الملك. إذن.... فماذا بقي لم يحدث في الدنيا بعد؟ لقد اخترعوا المنجنيق الذي يطلق النار...

- الدنيا شابة يا قورقود. قمة العمر الطويل للمرء هي الموت. أما الدنيا فليس لها نهاية حتى الآن. هل تعرف من أخبرني بهذا؟ إنه أبي، أبي الذي قال لي هذا. لا تنس هذا مطلقًا أبي "قمغان" هو

الذي قال لي هذا...لقد سلط نظره إليَّ ذات يوم وقال لي كلامًا كثيرًا، سوف أخبرك به. سوف أقوله لك كله. اسمع لي جيدًا، لعله يلزمك، كان والدي قمغان يقول لي..........

... منذ عدة أيام والناس الذين ظلوا أحياء بعد الزلازل يجمعون جثث الأموات جراء الزلازل. وبعد ذلك جمع هؤلاء قواهم وحملوا الجثث إلى مدافن "سيذكار" القديمة الموجودة في الناحية الشمالية من غنجة، لم يبق مكان فارغ بسبب المقابر الجديدة الموجودة في المكان. وقد حلقت على المقابر طيور لا عدد لها تطوف هنا وهناك فى جنون. وهذه المناظر تحزن الإنسان أكثر وأكثر. وكان هناك مُنجم طاعن في السن قد نجا سالمًا من بيته الذي هُدم. كان يقول في هذا الشأنء عبارة قاسية، حيث كان يقول "هذه الطيور هي أرواح الأبرياء الذين ماتوا، تبحث عن الهدوء. لا تعتقدوا أنها ستحوم وتحوم ثم تتعب، وتتركنا للأبد وترحل من هذه الأماكن".

***

الخاتمة

أو علامة عدم الكمال

كان يجب عليَّ – كما وعدتُ تلك الفتاة المتخصصة في اللغة العربية– أن أعيد لها المخطوط المبتور ذا الرقم ٢٧ أ / ٧٣٣ أو أسلمه إلى حجرة حفظ المخطوطات الموجودة على الجانب الأيمن عند مدخل دار المخطوطات. لسبب ما كنتُ أريد أن أرى هذه الفتاة نفسها، وعندما كنتُ أُعيد المخطوط للمرة الأخيرة في علبته بشكل منظم، خطر ببالي هذا الخاطر؛ "لن أرى هذه الفتاة مرة أخرى. حتى لو بحثتُ عنها واقتفيت أثرها، فقد انتهت مهمتها بالنسبة لي ، وقضى أمرها...".

ارتديتُ معطفي، وعندما أردتُ الخروج من الحجرة، صادفتها أمامي. كانت العلبة الموجود بها المخطوط تحت إبطي. وفي يدي الدفاتر التي كانت قد أعطتها لي الفتاة من قبل المكتوب فيها نص المخطوط. فقدمتُ لها العلبة التي بها المخطوط، فشعرتُ بارتياح ما. وبعد أن قمت بإبداء الشكر الجزيل والعرفان لها، أخذت مني المخطوط بدون أن يظهر على وجهها تغير، وأمسكت به بإحكام. وانتظرت دون أن تسألني عن شيء مطلقًا كنتُ أريد بشدة أن تسألني عن أي شيء، وأن أتحدث إليها عن أفكاري وما يدور بداخلي بشأن المخطوط. ولكنها صمتت، ولم تتصرف أو حتى تتحدث، ربما كانت تريد أن تنظر وتتأكد أنني أخيرًا سوف أغادر المكان بلا رجعة للأبد.

وشيئًا فشيئًا توجهنا نحو باب الخروج بدون أي كـلام. ربمـا هـي ستذهب إلى حجرة حفظ المخطوطات، وأنا أيضا كنتُ سأخرج مـن الـدار. مرة أخرى بدأ الحوار الأخير الذي دار بين الملك "بايندر خان" و"قورقـود" في المخطوط المبتور يدور في ذهني. الملك بايندر الشيخ! قورقود الـشاب! الدنيا التي بينهما! الدنيا الشابة للملك الشيخ والدنيا العجـوز لـــ"قورقـود" الشاب. وكيف قال قورقود: "لقد اخترعوا المنجنيق الذي يطلق النار، فمـاذا بقي بعد؟!... ففطنتُ فجأة أن كل واحد منهما يتحدث على الآخر عن دنيـاه الخاصة به. يوجد للملك بايندر خان قورقود خاص به فـي دنيـاه، ويوجـد لـ"قورقود" ملك بايندر خان خاص به في دنياه أيضًا. ويا ترى هـل لهـذه الفتاة التي ظهرت أمامي وساعدتني في قراءة المخطوط دنياها الخاصة بهـا هي الأخرى؟... "ربما هذه الفتاة كانت تتهرب من الحديث معي عمدًا". ربما رغبة جميع العاملين في الدار هي انصرافي وذهابي وعدم تـرددي علـى الدار، وتظهر هذه الرغبة في عدم صبر الفتاة علي. وإن كان الأمر كـذلك، فليس هناك مكان لحديث أو كلام بعد ذلك.

"ويا ترى هل هناك تجانس أو علاقة حتى ولو خفية بين النص المتعلق بالشاه إسماعيل ونص قورقود، أم لا؟ كيف أسألهم عن هذا؟ لو سألتهم سوف يُشكل عليهم الأمر، وسيعتقدون أنني أريد كتابة بحث أو شيء من هذا القبيل في هذا الموضوع. ولا قدر الله حينئذ سنجد الأنظار تتبعني من كل مكان..." الفتاة في المقدمة وأنا من خلفها بدأنا ننزل على درجات السلم الواسع.

والآن سينتهي مجيئي وذهابي إلى هنا الذي استمر ثلاثة أيـام. كنـتُ أستعد لأودع هذه الفتاة مرة أخيرة وأعبر لها عن شكري وعرفاني، ولكنها لم تكترث ولم تنظر خلفها وكأنه لا وجود لي، دخلت حجرة حفظ المخطوطات، ومضت إلى حال سبيلها.

خرجتُ إلى الشارع. تفقدتُ بيدي الدفاتر التي أعطتها لـــي (دفتـــرين سميكين) في جيب المعطف. وأخذتُ نفسًا عميقًا بارتياح. فبذلك لعل شكوكي قد انتهت، وربما انتهت ولكنها لم تنته بشكل كامل، مثل هذا المخطوط تمامًا بتمام ربما عدم التمام يخيم على كـــل مـــا يتعلـــق بـــالمخطوط المبتـــور. بالتأكيد...هذا طريق طويل أسير فيه وأنا أفكر في ذهنى ماذا سأفعل. وفجأة تذكرتُ ما قالته لي الفتاة...

***

المؤلف فى سطور :

كمال عبد الله:

ناثر وشاعر وكاتب مسرحي أذربيجاني معاصر، لــه العديــد مــن الروايات والقصص القصيرة وبعض الدواوين الشعرية، وكذلك المــسرحيات الفنية. ترجم، بعض أعماله، ولا سيما المسرحيات إلى لغات مختلفــة منهــا الروسية والجورجية والتركية والإنجليزية والفرنسية والألمانيــة والإســبانية والبرازيلية. وعرضت مسرحياته فى جورجيا وأستونيا وتركيا وإيران.

حصل على كثير من الجوائز والأوسمة داخل أذربيجان وخارجهــا، حتى إن الرواية التى بين أيدينا (رواية المخطوط المبتور) رشــحت رســميًا لجائزة نوبل.

له أكثر من مائتى مقالة وأكثر من عشرين كتابا وتناولت العديد من الدراسات والمقالات فى مختلف الدول الإبداع العلمى والأدبي للكاتب (كمال عبد الله).

وهو أيضًا أستاذ جامعى، حاضر فى العديد من جامعــات الولايــات المتحدة الأمريكية وفرنسا وبولندا وتركيا، ويترأس حاليًا جامعة باكو للغــات السلافية بأذربيجان.

المترجم فى سطور :

د. أحمد سامي عبد الفتاح

يعمل مدرسًا للغة والأدب الأذربيجاني فـى كليـة الآداب جامعـة عين شمس.

حصل على درجة الماجستير فى الأدب فى موضوع "سيرة" قاجـاق بني والصراع الروسي الأذري فى النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

حصل على درجة الدكتوراه من جامعة باكو الحكومية بأذربيجـان فى موضوع "الرواية الأذربيجانية فى فترة الاستقلال - دراسة موضـوعية وفنية".

له أكثر من عشرين مقالة باللغات الأذربيجانية والتركية العربية حول الأدب الأذربيجانى والأدب التركي، وله العديد من الترجمات الأدبيـة مـن اللغتين الأذربيجانية والتركيه، ويرأس حاليًا قـسم الدراسـات الأذربيجانيـة بمركز القاهرة للدراسات التركية.

التصحيح اللغوي: موســـى عجلان
الإشـــراف الفنى: حســـن كـــــامل